جامعة اليـــــرموك
كلـيــــــة الآداب
قسم اللغــة العربية

العدول النحوي السياقي

في القرآن الكريم

إعداد

عبدالله علي عبدالله الهتاري

إشراف الأستاذ الدكتور

سمير شريف استيتية

التخصص: لغة ونحو

العدول النحوي السياقي

في القرآن الكريم

Syntactic Grammatical Deviation in the Holy Qura'n

إعداد

عبدالله علي عبدالله الهتاري

بكالوريوس لغة عربية، جامعة اليرموك، ١٩٩٦

ماجستير لغة عربية، جامعة اليرموك، ١٩٩٩

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه

في اللغة العربية تخصص لغة ونحو في جامعة اليرموك، اربد، الأردن

وافق عليها

الأستاذ الدكتور سمير شريف استيتية.............................. مشرفاً ورئيساً

الأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن.. عضواً

الأستاذ الدكتور "محمد بركات" أبو علي ....عضواً

الأستاذ الدكتور سلمان القضاة...عضواً

الأستاذ الدكتور عبدالقادر مرعي.......................................عضواً

تاريخ تقديم الأطروحة

٢٠٠٤/٥/٥

الإهداء

إلى أهل القرآن وخاصته

ومحبي العربية لغة التنزيل

وإلى والدتي وأم أولادي

وإخواني الأعزاء

ومن لهم حق عليّ

أهدي هذا الجهد المتواضع

الباحث

شكر وتقدير

الحمـد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والشكر لـه على نعمائه وفضلـه واعتنائه، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لمشرفي الأستاذ الدكتور سمير شريف استيتية على ما بذله من جهد، وما أبداه من توجيه وتسديد، فهو سمير العلم والعلم سميره.

كما أنني أشكر الأساتذة الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة الأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن، الذي لمسنا فيه أبوة العالم وعلم الآباء، والأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي، الذي غمر المكتبة البلاغية من فيض علمه المعطاء، والأستاذ الدكتور سلمان القضاة الذي تتلمذت على يديه أثناء دراستي الجامعية، والأستاذ الدكتور عبدالقادر مرعي، الذي عُرف عنه حُسن رعايته لطلابه، وإبداعه في العطاء.

بارك الله فيهم جميعاً

وما توفيقي إلا بالله

الباحث

محتويات الرسالة

الموضوع — رقم الصفحة

الإهداء..ج

شكر وتقدير..د

محتويات الرسالة..هـ

ملخص الرسالة..ح

المقدمة..١

تمهيد..٦

الفصل الأول العدول في الأفعال والأسماء ٣٣

المبحث الأول: العدول في الأفعال ٣٥

المبحث الثاني: العدول في الأسماء ٨٣

المبحث الثالث: العدول عن الاسم إلى الفعل والعكس ١١٨

الفصل الثاني: العدول في حروف المعاني ١٣١

المبحث الأول: العدول عن حرف إلى آخر..١٣٥

المبحث الثاني: العدول في حذف الحرف وذكره.. ١٨٧

الفصل الثالث: العدول في التركيب.. ٢١٦

المبحث الأول: العدول عن الفعل المتعدي بنفسه
إلى المتعدي بحرف والعكس.. ٢١٨

المبحث الثاني: العدول في إسناد الفعل ٢٢٧

المبحث الثالث: العدول عن ذكر المفعول به إلى حذفه والعكس..... ٢٣٧

المبحث الرابع: العدول في العدد ٢٤٣

المبحث الخامس:العدول في التقديم والتأخير ٢٥٦

المبحث السادس: العدول عن مطابقة الجواب للسؤال ٢٦١

المبحث السابع: العدول في الجمل ٢٦٥

المبحث الثامن: العدول في النسق الإعرابي................................ ٢٨١

الخاتمة... ٣١٦

قائمة المصادر والمراجع... ٣١٩

الملاحق.. ٣٣٦

ملخص باللغة الإنجليزية ٣٥٠

ملخص الرسالة

"العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم"

إعداد

عبدالله علي عبد الله الهتاري

إشراف الأستاذ الدكتور

سمير شريف استيتيه

يعد العدول النحوي في السياق القرآني ظاهرة أسلوبية لغويـــة، يبرزمظهــرا مـــن مظاهر الإعجاز البياني في النص القرآني، ويقصد به التحول في التركيب النحوي، بإعادة عنصر من عناصر بنائه على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، لــذلك فهــو عدول عن أصل سياقي سبق ذكره في السياق، وليس عدولا عن قاعــدة لغويــة خــارج السياق، فهذا عدول خارجي أطلق عليه النحاة وصف الشذوذ والندرة وليس محل دراستنا هذه.

وترد صور العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم في أشكال مختلفة متعددة،من ذلك العدول في الأفعال بالمخالفة في أزمنتها في السياق، والعدول عن الاسم إلى الفعل أو العكس، وكذلك العدول في حروف المعاني بالمغايرة بينها،أو العدول فيها عن الذكر إلى الحذف والعكس.

ويبرز العدول أيضا في التركيب في صوره المختلفة، كالعدول عن الجملة الاسمية إلى الفعلية والعكس،والعدول عن ذكر الفاعل إلى حذفه، أو عن ذكر المفعول بــه إلـــى حذفه، والعكس.

ويأخذ العدول في النسق الإعرابي في السياق القرآنى حيزاً كبيراً، فيرد فى صور أربع، عدولات الرفع، وعدولات النصب، وعدولات الجر، وعدولات الجزم، وتحت كل نوع من هذه الأنواع تتدرج أشكال متنوعة،وكل هذه العدولات المختلفة المتعددة في السياق القرآني ترد لمقصد دلالي، وغرض بلاغي، إذ كل عدول في المبنى يصحبه عدولٌ في المعنى.

كلمات مفتاحية: العدول- إعجاز بياني- سياق قرآني.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي علم الإنسان، وأنزل كتابه للهداية والبيان، وأصلي وأسلم على خير رسله، وأنبيائه محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومن سار على درب خطاهم واهتدى بهديهم، إلى يوم الدين.

وبعد.

فالقرآن الكريم، كتاب الله الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، وكلما أمعن المتأملون النظر فيه والفكر، وجدوا أنفسهم أمام بحر من المعاني لا ساحل له، فمعانيه متجددة حيَّة، تتجددُ بتجدد الزمان والمكان.

ومع كونه معجزة بيانية خالدة، هو -مع ذلك- معجزة تشريعية ربانية، لذلك انصرفت إليه جهود علماء اللغة والبيان؛ لمعرفة أساليبه، وبلاغة بيانه، فهو كتاب العربية الأول والبيان الخالد.

وقد جاءت هذه الدراسة بعنوان "**العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم**"، متناولة ظاهرةً من ظواهر التعبير القرآني، والمقصود بالعدول النحوي السياقي، هو التحول الحاصل في التركيب النحوي، بإعادة عنصر من عناصر بنائه على نسق مخالف لما سبق ذكره في السياق نفسه، وهذه الظاهرة هي من أبرز الظواهر الأسلوبية في التعبير القرآني.

إذ نجد أن التعبير القرآني كثيراً ما يغاير في استعمال الأفعال، كأن يرد السياق ابتداءً بالفعل الماضي، ثم يعدل عنه إلى المضارع أو الأمر في السياق نفسه، وكذلك العكس بأن يرد الفعل في السياق مضارعاً، ثم يعدل عنه إلى الماضي وهكذا، أو أن

يخـــالف بيـــن حروف المعاني فيعدل عن حرف إلى آخر، أو يعدل عن جملة اسمية إلى فعلية أو العكس، كما يرد في النسق الإعرابي وغيره من صور العدول المتعددة المختلفة.

فمـــن نمـــاذج ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾ [الأعـــراف، ١٧٠]؛ إذ نجـــد التعبير القرآني قد عدل عن الفعل المضارع (يمسكون) إلى الماضـــي (أقـــاموا)، وقد كان المتوقع لدى المتلقي اطراد السياق على سبيل المطابقة في الأفعال فيكون (يمسكون ... ويقيمون).

وكذلـــك ما نجده من مغايرة بين الاسم والفعل في نحو قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾[الأنعام، ٩٥].

ومـــن ذلك العدول في التعريف والتنكير نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت، ١٧].

أهمية الموضوع ودواعي دراسته:

هـــذه الـــتحولات في السياق القرآني، تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المـــتوقع لديـــه من اطراد السياق على نمط واحد من المطابقة والمشاكلة، مما يدعو ذلك المتلقي البحث عن مثيراتها السياقية، وأبعادها الدلالية.

لذلـــك قامت هذه الدراسة لمحاولة الوقوف على صور هذا العدول وأبعاده الدلالية فـــي التعبـــير القرآني، فهذا العدول ظاهرة نحوية بلاغية، تبرز وجهاً من وجوه الإعجاز البيانـــي فـــي القـــرآن، وتدلل على ما وهب المولى عزوجل هذه اللغة، لغة التنزيل من إمكانيات عديدة، وقدرات فائقة في التصرف في التعبير، والتعدد في الدلالات.

وتحـــاول هذه الدراسة أيضاً ربط التركيب بالمعنى، فالتركيب لا يوجد دون دلالة مقصـــودة مـــنه، والدلالـــة لا تفهـــم بمعزل عن التركيب، وتسهم أيضاً في تأكيد مقولة الجرجاني في أن القرآن معجز بنظمه، وأن النظم ما هو إلا توخي معاني النحو[1].

وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

التمهـــيد وفـــيه عرضـــت لمفهـــوم العدول لغة، ثم مفهومه عند المحدثين؛ لكونه مصـــطلحاً قد شاع في الدراسات الأسلوبية الحديثة، ثم عرضت لمفهومه عند المتقدمين، وقصدت من هذا الترتيب الدلالة على أن ما قاله الأسلوبيون المحدثون، في تناولهم للعدول هو ما نجد له إشارات في كتب التراث البلاغي عند المتقدمين.

وتناولـــت فـــيه أيضاً صور العدول السياقي في القرآن بشكله العام، والذي يمثل العدول النحوي فيه مظهراً من مظاهره.

والفصـــل الأول، تناولـــت فيه العدول في الأفعال، وصوره محللاً لنماذج من هذه الصـــور وذلـــك في المبحث الأول فيه، ثم عرضت للعدول في الأسماء وضمنته المبحث الثانـــي، وعرضـــت أخيراً لصور العدول عن الاسم إلى الفعل وعكسه وذلك في المبحث الثالث.

والفصل الثاني، تناولت فيه العدول في حروف المعاني، وقد استقل هذا النوع من العدول بفصل لكثرته وتنوع صوره كسابقه في الأفعال، وعرضت فيه لصور العدول عن حرف إلى آخر، وضمنته المبحث الأول، ثم عرضت في المبحث الثاني للعدول عن ذكر الحرف إلى حذفه والعكس.

---

(1) انظر: دلائل الإعجاز، ٨١.

وفي **الفصل الثالث**، تناولت فيه العدول الحاصل في بنية التركيب، من عدول عن ذكر الفاعل إلى حذفه، أو عدولٍ عن ذكر المفعول به إلى حذفه كذلك، والعدول في الجمل من اسمية إلى فعلية وعكسه، والعدول في التعريف والتنكير، والعدول في العدد، والتقديم والتأخير، ثم تناولت العدول في النسق الإعرابي بذكر صور العدول المختلفة فيه، عارضاً في ذلك آراء علماء النحو واللغة والبلاغة والمفسرين في تعليل أوجه المغايرة في الإعراب.

وفي **الخاتمة**، عرضت لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم ذكرت أهم المصادر والمراجع التي استفدت منها.

وقد كان المقصد من تناول هذا العدول في القرآن الكريم هو التحليل والتعليل لصوره وأنماطه، لا الوقوف عند ظاهر التركيب، وهذا جهدٌ لا أزعم فيه أنني قد استوفيت كل جزئيات هذا العدول في القرآن الكريم، فالنص القرآني أكبر من أن يحيط به دارس، لكني أفدت منه ما يحقق لي هدف هذه الدراسة.

وإنني أتقدم بالشكر الجزيل لمشرفي الجليل **الأستاذ الدكتور سمير شريف استيتية**، الذي كان له الفضل بعد الله -عزوجل- في أن أخذ بيدي، ووجهني وأنار لي ببصيرته وعلمه جوانب هذا الموضوع، فطالما ترددت عليه سائلاً عما غمض عليّ، فكان يجيبني عن ذلك ولا يكل ولا يمل.

وأشكر أيضاً أساتذتي الأجلاء الأستاذ الدكتور **عفيف عبدالرحمن**، والأستاذ الدكتور "محمد بركات" **حمدي أبو علي**، والأستاذ الدكتور سلمان **القضاة**، والأستاذ الدكتور **عبدالقادر مرعي**؛ لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة.

وختاماً، فهذا جهد متواضع حاولت فيه إبراز مظهرٍ من مظاهر بلاغة هذا القرآن العظيم، ولغته لغة التنزيل فإن أصبت في ذلك فلله الحمد والمنة، وإن أخطأت فحسبي أن لي أجر المجتهد المخطئ.

وأساله عزوجل أن يكتب لي أجر هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

تمهيد:

تعريف العدول:

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ)[١]: "وعَدَلَ عن الشيء يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدُولاً: حاد، وعن الطريق: جار، وعَدَلَ إليه عدولاً: رجع. وما لهَ مْعدِلٌ ولا مَعْدول؛ أي: مَصرِف، وعَدَلَ الطريقُ: مال".

وقال[٢]: "والعدول هو من قولهم: عدل عنه يعدل عدولاً، إذا مال، كأنه يميل من الواحد إلى الآخر.

وقال المرّار:

فلما أنْ صرَمْتُ، وكَانَ أمْري   قَويماً لاَ يميلُ به العُدُولُ

قال: عدل عني يعدل عدولاً لا يميلُ بهِ عن طريقه الميل.

وقال الآخر:

إِذا الهمُّ أمْسَى وَهْوَ دَاءٌ فأمضِهِ   ولَستَ بُمْمضيهِ، وأنَتَ تُعادِلُه

قال: معناه وأنت تشك فيه، ويقال: فلان يعادل أمره عِدَالاً ويقسمه، أي: يميل بين أمرين أيهما يأتي".

وقال[٣]: "وَعَدَلَ الفحلَ عن الضِّراب فانعدل: نحّاه فتنحَّى.

قال أبو النجم:

وانْعَدَلَ الفحلُ ولمّا يُعْدَلِ

"وعَدَلَ الفحلُ عن الإبلِ إذا ترك الضِّراب".

---

(١) لسان العرب، مادة (ع.د.ل).

(٢) السابق، ٤٣٥.

(٣) السابق نفسه.

فهذه التعريفات المعجمية تشير في مجملها إلى دلالة الميل.

وسنجد أن هذه الدلالة المعجمية توحي بالدلالة الاصطلاحية لمعنى العدول الأسلوبي، الذي يقصد به التغير والانكسار في النسق السياقي.

ولا تقف الدلالة المعجمية لمعنى العدول عند هذا المعنى فحسب، بل نجدها تحمل معنى التضاد والتقابل والثنائية، إذ يشير ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) في مقاييس اللغة إلى أن[١] "العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضّادين: أحدهما يدل على استواء، والآخر يدل على اعوجاج.

فالأول: العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة. يقال: هذا عدل، وهما عدل ... والعدل الحكم بالاستواء، ويقال للشيء يساويْ الشيء: هو عِدْلُه، وعَدَلْتُ بفلان فلاناً، وهو يُعَادِلُه، ... وكلُّ ذلك من المعادلة، وهي المساواة".

ويقول أيضاً[٢]: "والعدل نقيض الجور، تقول: عدل في رعيته، ويوم معتدل، إذا تساوَى حالا حرّه وبرده، وكذلك في الشيء المأكول.

ويقال: عدلته حتى اعتدل، أي: أقمته حتى استقام واستوى".

"ومن الباب: المعتدلة من النوق، وهي الحسنة المتفقة الأعضاء"[٣].

"وأما الأصل الآخر فيقال في الاعوجاج: عَدَل، وانعدل، أي: انعرج.

وقال ذو الرُّمَّة[٤]:

وإنّي لأُنحي الطَّرفَ مِنْ نَحْوِ غَيْرِهَا حَيَاءً ولو طاوعتُهُ لم يُعَادِلِ"[٥]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ٢٤٦.

(٢) السابق، ٢٤٧.

(٣) السابق نفسه.

(٤) انظر: ديوان ذي الرمّة، ت: عمر فاروق الطباع، ص ١٧٨.

(٥) معجم مقاييس اللغة، ٢٤٧.

فمــن الدلالــة المعجمية عند ابن فارس لمادة "ع.د.ل" نخلص إلى أن هذه المادة المعجمية تشير إلى الدّلالات التالية:

- المرضي المستوي الطريقة.
- نقيض الجور.
- المساواة.
- الاستقامة والاستواء.
- الحُسْنُ "فيقال: المعتدلة من النوق: هي الحسنة المتفقة الأعضاء".
- الاعوجاج، أي: الميل والخروج.

ويمكنــنا مما سبق أن نستنبط المعاني المختلفة للدلالة المعجمية لمادة العدول، بما يتصل بموضوعنا هذا، فنقول: إن هذا العدول هو ميل وعدول مُسوَّغ ليستقيم به المعنى، قُصــد مــنه المســاواة بين التراكيب والمعاني المقصودة من مجيئه، حتى يستقيم المعنى ويظهــر حسنه من اتفاق عناصر التركيب مع المعنى المراد، ولينفي الجور والتجاوز في التركيب على حساب المعنى أو العكس.

مفهوم العدول عند المحدثين:

شــاع مصــطلح العدول في الدراسات الأسلوبية الحديثة إلى حد كبير، مما جعل بعضــهم[1] يعرف الأسلوب بأنه عدول وانحراف، بمعنى "الميل عن معيار أو مفارقة أو عدول أو مجاوزة، وهو ما يستعمله معظم المتخصصين اليوم"[2].

---

[1] انظر: علم الأسلوب، صلاح فضل، ١٧٩، والإعجاز الصرفي، ١٤٣.

[2] منهج في التحليل النصي للقصيدة، محمد حماسة عبداللطيف، ١٠٨.

والعـــدول يمثل "ظاهرة أسلوبية فنية؛ لأنه عدول عن المستوى النمطي العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام"[١].

وقـــد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك، منها: الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة ... الخ[٢].

وأكـــثر هذه المصطلحات شهرة هي العدول والانحراف والانزياح[٣]، ومصطلح العدول هو أقرب هذه المسميات جميعاً بالظاهرة الأسلوبية اللغوية، التي لها عمق تاريخي فـــي تراثـــنا البلاغـــي العربي، وقد اختار الباحث التعبير عن هذه الظاهرة بلفظ العدول لأســـباب أولهـــا: أن هذا المصطلح له امتداد في تراثنا البلاغي القديم كما سيأتي ذكره، وثانـــيها: أن هـــذه التســـمية أدق فـــي التعبير عن الظاهرة ووصفها، وثالثها: أن لفظة الانحراف توحي في معناها بالخطأ لما تحمله من تراكمات موروثة غير إيجابية في عرف المجـــتمع، فالانحـــراف ظاهرة سلوكية مرفوضة[٤]، توحي في مضمونها بالتجاوز غير الأخلاقي في السلوك والتصرف، مما يجب الترفع عنه في اختيار مصطلحاتنا الدالة على الظواهر الأسلوبية واللغوية المنسجمة في مضمونها وشكلها.

وكـــل عـــدول لا بـــد أن يكون مسبوقاً بقاعدة، يعدل عنها، ويقاس إليها مدى هذا العدول[٥].

---

(١) الإعجـــاز الصـــرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبدالحميد الهنداوي، ١٤١.

(٢) انظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، ٩٨.

(٣) انظر: الانحراف مصطلحاً نقدياً، موسى ربابعة، ١٤٦.

(٤) انظر: السابق، ١٤٥، وبلاغة الخطاب وعلم النص، ٦٣.

(٥) انظر: الإعجاز الصرفي القرآن، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، الهنداوي، ١٥٦.

ومن ذلك يمكننا تصنيف العدول تبعاً للمعيار أو القاعدة التي يتم العدول عنها إلى نوعين رئيسين هما[1]:

أ. **عـــدول خارجـــي:** ويقصـــد به "عدول أسلوب النص عن معيار اللغة المعينة (النظام اللغوي)"[2].

فهو عدول وخروج عن الاستخدام اللغوي، وبهذا يقترب مفهوم العدول من مفهوم الشاذ والنادر، فالقاعدة اللغوية المقررة التي خرج عنها النص في الاستعمال، والتي يقاس إليها النص هي في الحقيقة خارج النص، وليست من داخله.

ب. **عـــدول داخلـــي (ســـياقي):** "ويقصـــد به عدول وحدة لغوية عن المعيار الممتد في النص"[3].

أو بعبارة أخرى: "انفصال وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النص في جملته"[4].

فـــالعدول هنا داخل النص ذاته، فهو عدول عن النمط السياقي للنص، إذ يقتضي الســـياق اللغـــوي بموجب المطابقة أن يسري على نمط واحد، فإذا بالانكسار يحصل في وحدة لغوية داخل السياق؛ فيمثل عدولاً عن النسق اللغوي العام لسياق النص، كأن يجري السياق على نمط واحد من الأفعال، وذلك -مثلاً- أن تأتي الأفعال في السياق ماضية، ثم يأتي فعل مضارع يشكل عدولاً عن النمط السياقي للنص.

---

(1) انظر: علم الأسلوب، ١٨١.

(2) منهج في التحليل النصي، محمد حماسة، ١١٢.

(3) السابق، ١١٢.

(4) علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، ١٨١.

وهو ما وجدت له إشارات عند البلاغيين في التراث البلاغي بما يسمى الالتفات، والالتفات ضرب من العدول السياقي، ويتمثل العدول فيه بخروج إحدى مكونات الضمائر عن النسق العام للسياق، كأن يعدل عن ضمير الغيبة إلى المخاطب، أو عن ضمير المتكلم إلى المخاطب والعكس، أو يكون في الأفعال.

وهـذا النوع من العدول، هو موضوع هذه الدراسة، إذ التركيز هنا منصب على العدول الحاصل داخل السياق القرآني(١)، وبيان ما نلحظه من تغيرات تحصل في مكوناته النحوية.

ويـرد هـذا العدول لغرض بلاغي، "إذ كل عدول من تعبير إلى تعبير، لا بد أن يصحبه عدول من معنى إلى معنى"(٢).

وإذا كان الأصل في العدول الخارجي هو القاعدة النحوية التي خرج عنها النص، فإن الأصل الذي تم الخروج عنه في العدول الداخلي هو السياق نفسه، أي: ما سبق ذكره في السياق.

"فالسـياق هـو الأصـل أو القاعدة التي يعدل عنها الأسلوب مخالفاً السياق لنكتة بلاغـية، أو غـرض بلاغي تطابق به مقتضى الحال، وتتحقق به المعاني الفنية المطابقة التي هي غاية البلاغة"(٣).

---

(١) أمـا مـا ورد فـي النص القرآني من تراكيب خرجت عن مشهور الاستعمال للقواعد النحوية، فقد لجأ فيه المفسـرون واللغويـون إلـى التأويل، وموضوع التأويل قد تناوله المفسرون واللغويون قديماً وحديثاً، فقديماً تناوله ابن قتيبه في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، ومكي بن أبي طالب في كتابه (إعراب مشكل القرآن) وابن الأنـباري في (البيان في غريب إعراب القرآن) وحديثاً تناوله كثير من الباحثين منهم عبدالفتاح الحموز في (التأويل النحوي في القرآن) ومحمد عبدالقادر هنادي في (ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم).

(٢) معاني النحو، فاضل السامرائي، ٩/١.

(٣) الإعجاز الصرفي، ١٥٩.

وقـد أشـار الأسـلوبيون المحدثون[١] إلى أن نظرية العدول السياقي تمثلت عند (ريفاتـير)، فالسـياق الأسلوبي -كما يحدده (ريفاتير)- "هو نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع، والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي"[٢].

إذ السياق عند (ريفاتير) يمثل القاعدة التي يعدل عنها الأسلوب "فالظاهرة الأسلوبية هي التي تمثل خروجاً أو تحولاً عن النمط السائد في السياق"[٣]، وهذا العدول يشكل لدينا مـا يسمى بالثنائية الضدية، التي تثير المتلقي وتلفت انتباهه، "فلو كنا نقرأ رواية -مثلاً- تحكـي وقائعها بصيغ الماضي المتوالية، فإن الاستخدام المفاجئ لصيغة المضارع يضاد السياق السابق"[٤].

والحقـيقة إن ما نسب إلى (ريفاتير) من نظرية العدول السياقي قد ورد في تراثنا البلاغي في نصوص ظاهرة صريحة، وهو ما سنعرض له عند المتقدمين. وقد ذكر بعض الباحثيـن[٥]: "أن تصـور (ريفاتير) للأسلوب من هذه الزاوية يلتقي مع تصور البلاغيين للالتفات، فإذا كانت الظاهرة الأسلوبية عنده لا بد أن يسبقها سياق ينعكس عليه انحرافها، فإن هذا بعينه هو ما عناه هؤلاء البلاغيون حين صرحوا بأن صورة الالتفات لا تتحقق إلا إذا كانت عدولاً عن شيء حاصل متلبس به، أو عن ظاهر سوق الكلام".

---

(١) انظر: علم الأسلوب، ١٩٣، ومفهوم العدول في الدراسات الأسلوبية المعاصرة، عبدالله صولة، المجلة العربية للثقافة، ع ٣٢، ١٩٩٧، ١٥٥-١٥٧.

(٢) السابق، ١٩٣.

(٣) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٥٥.

(٤) علم الأسلوب، ١٩٤.

(٥) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ٥٦، والإعجاز الصرفي، ١٤٩.

مفهوم العدول عند المتقدمين:

لقد وردت إشارات في تراث المتقدمين[١] تذكر العدول، من ذلك مثلاً ما نجده عند أبي هلال العسكري (ت ٤٠٠هـ)، في قوله[٢]: "فإن "الرحيم" مبالغة **لعدوله**، وإن (الرحمن) أشد مبالغة، لأنه أشد عدولاً، وإذا كان **العدول** على المبالغة فكلما كان أشد عدولاً كان أشد مبالغة".

٦٠٦٦٢٨

فأبو هلال العسكري قد استخدم مصطلح العدول، وجعله عدولاً عن أصل الصيغة وهي (راحم)، فهو عدول عن اللفظة خارج التركيب، ويقاس مدى هذا العدول بالنسبة لأصل خارج السياق، وهو ما نجده عند الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) أيضاً في قوله[٣]: "ورحمن **عدل** عن راحم للمبالغة".

وكذلك يرد لفظ العدول عند ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في قوله[٤]: "ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله"، ويرد عنده في سياق آخر في قوله[٥]: "وإنما يقع المجاز **ويعدل** إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاث، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه".

ونجده عند الرّماني (ت ٣٨٦هـ) في ذكره وجوه المبالغة فقال[٦]: "ومن ذلك فعّال كقوله عز وجل: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾** [طه، ٨٢]. **ومعدول** عن غافر للمبالغة".

---

[١] للاستزادة من ذلك ينظر: الانزياح بين النظريات الأسلوبية والنقد العربي القديم، أحمد محمد ويس، رسالة ماجستير، مخطوطة جامعة حلب، ١٩٩٥.

[٢] الفروق اللغوية، ٢٢١.

[٣] إعجاز القرآن، ٢٧٣-٢٧٤.

[٤] الخصائص، ٢٦٧/٣.

[٥] السابق، ٤٤٢/٢.

[٦] النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن). محمد خلف الله، ١٠٤.

وذكـــره ابن الأثير (ت ٦٣٦هــ) في أكثر من موضع في المثل السائر، من ذلك قولــــه[1]: "إن العــدول عــن صــيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك".

واستعمله عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هــ) أيضاً في قولــه[2]: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى الــنظم، فالقسم الأول: "الكناية" و"الاستعارة" والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع و**عدول** باللفظ عن الظاهر".

ونخلــص ممـــا سبق ذكره من نقولات عن المتقدمين، أن مصطلح العدول عندهم تمثل في الصيغ الصرفية كما هو الحال عند أبي هلال العسكري والباقلاني والرمّاني وابن الأثـــير، وتمـــثل أيضاً في العدول الدّلالي، أي: دلالة الألفاظ وخروجها عن الحقيقة إلى المجاز كما هو الحال عند ابن جني والجرجاني.

والعـــدول في ما سبق ذكره عند هؤلاء العلماء هو عدول خارجي، وليس داخلياً، أي: عـــدول عن قاعدة الاستخدام اللغوي، وهذه القاعدة من خارج النص، ويقاس عدول الــنص بالنســبة إلـــيها، أما العدول السياقي فنجد مفهومه يرد في إشارات واضحة عند الزمخشري وابن الأثير والفخر الرازي (ت ٦٠٦هــ) وابن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هــ)، وذلك في معرض حديثهم عن موضوع الالتفات.

---

[1] المثل السائر، ٢/١٩٣-١٩٤.

[2] دلائل الإعجاز، ٤٢٩-٤٣٠.

فمـــن ذلك ما ذكره الزمخشري (٥٣٨هــ)[١] في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة، ٤-٥]، "فإن قلت: لم **عدل** عن لفظ الغيبة إلى لفظة الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان".

ويقـــول فـــي قولـــــه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ [النساء، ٦٤]. "ولم يقل واستغفرت لهم و**عدل** عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً بشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره"[٢].

وذكـــره ابـــن الأثير أيضاً في معرض حديثه عن الالتفات معلقاً على قوله تعالى: ﴿قَـــالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود، ٥٣-٥٤].

"فإنـــه إنما قال أُشْهِدُ الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازناً له، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك **عدل** به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما"[٣].

فالعدول هنا عند ابن الأثير عدول عن الأصل السياقي، إذا الأصل السياقي يقتضي الفعـــل المضـــارع"، أُشْـــهِدُ الله وأُشْهِدُكم" حتى يسري السياق على نمط واحد في مطابقة الأفعـــال، فـــيكون (أشهدكم) فعلاً مضارعاً، لكنه عدل عن الأصل السياقي لدلالة بلاغية ذكرها ابن الأثير.

---

[١] الكشاف، ٦٢/١.

[٢] السابق، ٥٣٨/١.

[٣] المثل السائر، ١٩٣/٢.

وذكره أيضاً في معرض حديثه عن العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، في قولـــه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف، ٢٩].

قـــال ابن الأثير[١]: "وكان تقدير الكلام أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم".

وواضح من كلام ابن الأثير أن هذا العدول هو عدول عن الأصل السياقي، داخل الســـياق نفســـه، بإعادة المكونات النحوية مخالفة لما سبق ذكره في السياق، أي: حصول انكسار في النمط السياقي.

ومما سبق ذكره ندرك أن التغير الأسلوبي داخل السياق الواحد، هو ما عرف عند البلاغييـــن المتقدمين بالالتفات في الضمائر، وقد وسع ابن الأثير مصطلح الالتفات ليشمل أنواع الأفعال من مضارع وماضٍ وأمر.

بـــل عـــرّف بعـــض البلاغيين الالتفات بأنه عدول، من ذلك قول الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـــ) فـــي تعريف الالتفات بأنه[٢] "العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس"، وســـع بعضهم مفهوم الالتفات، ليشمل كل عدول أسلوبي في السياق اللغوي، كالذي نجده عـــند يحـــيى العلـــوي (ت ٧٤٥هـــ) في تعريفه للالتفات وتوسيع مفهومه، فيذكر أن الالتفات[٣]: "هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول".

---

[١] المثل السائر، ٢/١٩٣.

[٢] نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ١٤٦.

[٣] الطراز، ٢/١٣٢.

وقــد بيــن العلــوي مراده من هذا التعريف بقوله[1]: "وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة؛ لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير".

"وبهذا يربط العلوي قيمة الالتفات بموقعه من الأسلوب، وبلاغته تتبدّى في موقعه الحســن مــن التركيب، وهو بهذا يشير إلى قيمة الالتفات في ضوء النظم والعلاقات بين الكلم؛ أي: في الأسلوب"[2].

ويشــير الزركشــي (ت ٧٩٤هـــ) في البرهان إلى أن بعض البلاغيين قد عدّ المخالفة في البناء النحوي للجملة التفاتاً، فقال[3]: "وجعل بعضهم من الالتفات قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة، ١٧٧]، وقوله تعــالى: ﴿وَالْمُقِيمِيــنَ الصَّــلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَــئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء، ١٦٢].

ومما سبق ذكره ندرك أن مفهوم العدول السياقي كان له ظهور بارز عند علمائنا المتقدميــن بمــا يســمى الالــتفات بمعــناه الواسع الذي أشار إليه بعض علماء البلاغة المتأخريــن، وقد آثرنا مصطلح العدول على مسمى الالتفات؛ لأن مصطلح الالتفات ظل محصــوراً عــند كثـير مــن علماء البلاغة على العدول في الضمائر، وإن كان بعض المتأخريــن قد وسع مفهومه ليشمل كل أنواع العدول في الأسلوب، غير أن ذلك لم يكن محل اتفاق عند علماء البلاغة، كما هو معلوم من مصنفاتهم، فكان مصطلح العدول أوسع وأشــمل لكــل أنــواع المخالفــة الحادثة في السياق اللغوي للنص، لا سيما أنه مصطلح

---

(1) الطراز، ١٣٢/٢.

(2) دراسات في البلاغة، محمد بركات حمدي أبو علي، ١٥١.

(3) البرهان في علوم القرآن، ٣٣٧/٣.

بلاغـــي[1] قديم، قد ورد بكثرة في كتب التراث، واستعمله علماؤنا في مختلف العصور، كما ذكرنا سابقاً، فهو قديم في مضمونه، ومفهوم العدول هو روح مفهوم الالتفات يتسع له ويشـــمل غيره، من تنوع في الأساليب ومخالفة في التراكيب، ولا مشاحة في الاصطلاح. وأن ما أشارت إليه الدراسات الأسلوبية الحديثة من نسبة هذا المصطلح بما يسمى نظرية العدول السياقي عند (ريفاتير)، ما هو إلا امتداد لمفهوم العدول في التراث البلاغي العربي القديم، فنظرية العدول السياقي عند (ريفاتير) هي أقرب ما تكون إلى ظاهرة الالتفات في الــبلاغة العربية؛ لذا تعد من نقاط الالتقاء بين الأسلوبية الحديثة وبين البلاغة العربية في تناولها لظاهرة العدول، خاصة في مبحث الالتفات[2].

صور العدول في القرآن الكريم:

يمكننا تصنيف العدول السياقي في القرآن الكريم، طبقاً للمستوى الذي يعتمد عليه العدول إلى أشكال عدة هي:

أولاً: العدول الصرفي:

ويتمثل ذلك في الصيغ والمشتقات، نحو العدول عن صيغة (المصدر) إلى صيغة (اسم المرة) في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي **ضَلاَلٍ** مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَــيْسَ بِي **ضَلاَلَةٌ** وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف، ٦٠-٦١]. فقد حدث عدول عـــن المصـــدر (ضلال) إلى اسم المرة (ضلالة) ولم يسر السياق على نمط واحد فيكون (قال يا قوم لست في ظلال).

---

[1] قصــدت بـــ (مصـــطلح بلاغـــي) أنـــه استعمل بكثرة في كتب البلاغة -كما أسلفت- حتى إنه أخذ شهرة الاصطلاح في الاستعمال، لا أنه أفرد بمصطلح خاص به في أبواب البلاغة.

[2] انظر: الإعجاز الصرفي، ١٤٩، وأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٥٦.

ومنه أيضاً العدول في صيغة المصدر، نحو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل، ٨]، حيث عدل عن المصدر (تبتلاً) إلى (تبتيلاً)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ [نوح، ١٧]، "حيث عدلت الآية عن المصدر (إنباتاً) إلى (نباتاً)، إذ كان ينبغي أن يقال أنبتكم إنباتاً إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتا"[1].

ومـــنه العدول عن اسم الفاعل إلى الصفة المشبهة، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الـــرَّاجِفَةُ* تَتْـــبَعُهَا الـــرَّادِفَةُ * قُلُـــوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَـــرْدُودُونَ فِـــي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ [النازعات، ٦-١١]. فأكثر الفواصل جـــاءت على صيغة اسم الفاعل "راجفة"، "رادفة"، "واجفة"، "خاشعة"، "خاسرة"، إلا قوله "أإذا كنا عظاماً نخرة" فحدث عدول عن اسم الفاعل "ناخرة"، إلى الصفة المشبهة "نخرة"، ومـــنه ورود لفظة بصيغة ثم ترد مرة أخرى بصيغة أخرى في السياق نفسه، نحو قولـــه تعالى: ﴿الم * اللّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران، ١-٣]. فقد حصل عدول عن صيغة "نزّل" إلى صيغة "أنزل"، مما يسترعي الانتباه لمعرفة دلالاته، ومنه العدول عن "نبَّأ" إلى "أنبأ" ثم إلى "نبَّأ"، أي: وقع عدولان متتابعان كما هو الحال عند (ريفاتير) في ظاهرة التعاقب السياقي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم، ٣].

---

[1] تفسير الرازي، ٣٠/١٤٠.

والعدولات الصرفية في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، وقد تناولها بعض الباحثين بالدراسة والبحث[1].

ثانياً: العدول الدلالي "المعجمي":

والعدول في هذا المجال "يتمثل طرفاه في لفظين يشتركان في ما يطلق عليه علماء اللغة المعاصرون، الدلالة المركزية أو المعجمية أو الأساسية ويستقل كل منهما عن الآخر في ما يسمى عندهم: الدلالة الهامشية أو السياقية، أما قيمة المغايرة بينهما فتتمثل في ملاءمة كل منهما -بدلالته المتفردة- للموقع الذي أوثر فيه من سياق الكلام"[2]. بمعنى أن العدول يتمثل في المغايرة بين لفظتين تشتركان في الدلالة المعجمية أو الأساسية، وتفترقان في الدلالة السياقية. فلا ترادف بينهما في الحقيقة، وإنما لكل لفظ دلالته السياقية الخاصة به.

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت، ١٤]، فقد وقع عدول عن لفظة "سنة" إلى لفظة "عام" في الآية الكريمة وهذا يلفت الانتباه لمعرفة سر المخالفة بينهما في الآية الكريمة. ونحو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة، ٣] فقد عدل عن لفظ "الإكمال" إلى لفظ "الإتمام".

---

(١) من ذلك "الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة"، عبد الحميد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١، و"تنوع الصيغ المشتقة في القرآن الكريم"، عودة الله منيع القيسي، دار البشير، عمان، ١٩٩٦، و"العدول الصرفي في القرآن الكريم"، رائد طقش، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٨م.

(٢) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ٢١٠، وانظر: دلالة الألفاظ، ١٠٦-١٠٧.

ومنه أيضاً العدول عن لفظة "البحر" إلى لفظة "اليم" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه، ٧٧-٧٨].

والعدول الدلالي في القرآن الكريم موضوع مستقل بنفسه، يحتاج إلى دراسة مستوفاة.

ثالثاً: العدول الصوتي:

ويقصد به ورود لفظة من ألفاظ القرآن الكريم مرتين في سياق واحد أو في سياقين متشابهين، مصحوبة بتغيير صوتي من فك أو إدغام أو إبدال أو ذكر أو حذف.

كقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف، ٩٧].

نجد العدول عن "اسطاعوا" إلى "استطاعوا" قد برز في مخالفة صوتية تمثلت في حذف تاء الافتعال من اللفظة الأولى وذكرها في الثانية، ولا نسلم بالتعليل الظاهري الذي مال إليه بعض المفسرين واللغويين بأن الحذف هنا كان "للتخفيف؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء[1].

بل نعتقد أن هذا العدول الصوتي جاء لدلالة قصد إليها السياق[2]، وقد أشار الدكتور محمد بركات أبو علي إلى أنه لا يمكن "فصل المنهج الصوتي للبنية العربية عن المعنى النفسي الذي يؤثر ويفيد، وهذا المعنى من مواطن علم البلاغة"[3]، لذلك فالعدول

---

(١) انظر: الكشاف، ٤٩٩/٢، التفسير الكبير، ١٧٣/٢١، أبو السعود، ٢٤٦/٥.

(٢) انظر تعليل ذلك: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ١١.

(٣) في الأدب والبيان، ١٤١.

الصوتي في بنية النص القرآني يعد وجهاً من وجوه البلاغة والإعجاز في التنزيل، يمكننا تسميته بالإعجاز الصوتي[1].

وهـو مـا يظهر جلياً في السياقات القرآنية المختلفة من ذلك ما طرأ على الفعل "تكـن" فـورد مـرة بالنون، ومرة محذوفاً منه النون في قولـه تعالى على لسان لقمان الحيكم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ **فَتَكُن** فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان، ١٦].

بـل لقـد جـاءت هذه اللفظة في سياقين متشابهين تماماً، في النظم القرآني، مرة بالـنون وأخـرى محذوفاً منها في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ **تَكُ** فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل، ١٢٧]، وتأتي الآية نفسها في النمل في قولـه تعالى:﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا **تَكُن** فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل، ٧٠] فحذف نون (تكن) في آية النحل وأبقاها في آية النمل[2].

وقـد ترد الكلمة في التعبير القرآني مبدلة مدغمة مرة، ومرة ترد غير مبدلة[3]، نحو قوله تعالى في آيات عديدة: ﴿لعلهم **يتذكَّرون**﴾، وفي آيات أخرى: ﴿لعلهم **يذَّكَّرون**﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿ويحب **المتطهرين**﴾، وقوله: ﴿ويحب **المطَّهرين**﴾.

بـل ربما جمع بين الصيغتين في آية واحدة، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن **يَتَطَهَّرُواْ** وَاللَّهُ يُحِبُّ **الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ [التوبة، ١٠٨].

---

[1] انظـر فـي ذلك: من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م٩، ع ٣٦، ١٩٨٩، ٧٣-١١١، ومن أساليب التعبير القرآني، الزوبعي، ٣٥٣-٣٩٣.

[2] انظر تعليل ذلك في: التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ٧٦-٧٧.

[3] بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ٤٠.

ومنه أيضاً على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَــاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام، ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف، ٩٤].

فقال في آية الأنعام: " يَتَضَرَّعُونَ"، وفي الأعراف " يَضَّرَّعُونَ" بالإبدال والإدغام وهــو مــا نجــده فــي كثــير من مفردات القرآن نحو "اطَّيرنا" و"تطيَّرنا" و"يخصِّمون" و"يختصمون" والمصَّدِّقين" والمتصدِّقين"، ونحو "لا تفرّقوا" و"لا تتفرّقوا".

وكــل ذلك يشير إلى ما ذكرناه سابقاً من أن كل عدول في اللفظ لا بد أن يصحبه عدول في الدلالة يقتضيه السياق الوارد فيه، وأن كل سياق جاء وفق ما يقتضيه النظم من موافقته مقتضى الحال.

رابعاً: العدول البلاغي:

ويقصــد بذلك أن مباحث علم المعاني في البلاغة العربية "قد دارت في كثير من جوانــبها حول العدول عن النمط المألوف على حسب مفهوم أصحاب اللغة وتقاليدهم في صناعة الكلام، وهذا العدول يمثل الطاقات الإيحائية في الأسلوب"(١).

فمــن ذلــك مثلاً خروج فعل الأمر عن معنى الطلب إلى معانٍ أخرى كالالتماس والدعــاء وغيرها من المعاني، وكذلك خروج الاستفهام والنهي عن معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى.

وهكــذا جميع أبواب البلاغة العربية من حذف وذكر وتقديم وتأخير إلى غير ذلك مــا أســموه أيضــاً بالخروج عن مقتضى الظاهر، وكذلك موضوع المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من موضوعات علم البيان.

---

(١) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ١٩٩.

فالمجاز مثلاً: يمثل عدولاً باللفظ عن معناه الأصلي في اللغة إلى معنى آخر ليس موضوعاً للأصل، وهو ما يقرره شيخ البلاغة العربية عبدالقاهر الجرجاني بوضوح في قوله: "والمَجَاز "مَفْعَل"، من "جاز الشيء يجوزه" إذا تَعدَّاه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي"(١).

وهذا المقصود بالعدول البلاغي، وإلا فكل أنواع العدول في القرآن هو عدول بلاغي من حيث إن له دلالة بلاغية يقصد إليها النص القرآني، فكل حرف أو كلمة أو عبارة موضوعة لمعنى مقصود، وأي عدول يطرأ على التراكيب والألفاظ يصحبه عدول في المعنى دون شك.

خامساً: العدول في الرسم القرآني "العدول الخطي":

ويتمثل ذلك في مجيء اللفظة الواحدة مرسومة برسمين مختلفين في موضعين مختلفين في المصحف الشريف.

من ذلك مثلاً: مجيء الرسم لكلمة "تبغي" في قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا **نَبْغِ**﴾ [الكهف،٦٤].

فقد جاء رسمها المصحفي بحذف ياء الفعل "نبغ" مع عدم وجود جازم للفعل، وقد اختلف رسم الكلمة نفسها في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا **نَبْغِي** هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف، ٦٥]؛ إذ جاء رسمها بالياء على الأصل.

ومنه -أيضاً- مجيء الفعل "يأتي" مرَّة بالياء على الأصل، ومرة دون ياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام، ١٥٨].

---

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ٣٩٥.

وقولـــــه تعـــالى: ﴿يَـــوْمَ يَـــأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود، ١٠٥]. فحذف الياء من "يَأْتِ"، واجتزأ الكسرة في آية هود، دون آية الأنعام.

ومـــن ذلـــك -أيضاً- مجيء رسم كلمة "المهتدي" مرة بإثبات الياء، ومرة بحذفها والاجتزاء بالكسرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ **الْمُهْتَدِي**﴾[الأعراف، ١٧٨]. فجـــاء رسمها بالياء على الأصل، في حين عدل عن هذا الرسم إلى حذف الياء والاكتفاء بالكسرة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ **الْمُهْتَدِ**﴾ [الإسراء، ٩٧].

ومنه مجيء بعض الألفاظ مرسومة بالهاء (التاء المربوطة) تارة، ومرسومة بالتاء (الـــتاء المفـــتوحة) تارة أخرى، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى **وَرَحْمَةٌ**﴾ [الأنعام، ١٥٧]. وقولـــه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو **الرَّحْمَةِ**﴾ [الكهف، ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿أُولَـــئِكَ يَـــرْجُونَ **رَحْمَـــتَ** اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة، ٢١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ **رَحْمَتَ** اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف، ٥٦]، فلفظة "رحمة" رسمت برسمين مختلفين فـــي سياقات قرآنية مختلفة، فجاءت مرة مرسومة بالهاء (التاء المربوطة)، ومرة أخرى بالتاء المفتوحة.

ومـــنه أيضاً "نعمة" جاءت مرسومة بالهاء نحو قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ **نِعْمَةَ** اللّـــهِ عَلَـــيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء﴾ [المائدة، ٢٠]، في حين وردت مرسومة بالتاء في نحو قولـــــه تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ **نِعْمَتَ** اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران، ١٠٣].

وكـــل هذه المواضع وغيرها تدعو إلى تأمل الرسم القرآني وتدبره؛ لمعرفة أبعاده الدلالـــية، فالاختلاف في الرسم جاء لاختلاف المعنى، وقد أشار إلى هذا الرأي ابن البناء المراكشـــي (ت ٧٢١هـــ) في كتابه الموسوم بـــ "عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل"،

فسّـر فـيه أحـوال الرسـم وفق دلالات عميقة، وقد نقل عنه الزركشي (٧٩٤هـ) في البرهان[١] كثيراً مما ذكره في ذلك.

من ذلك قوله: "أما الواو فإن زيادتها تدل على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعلى طبقة وأعظم رتبة، مثل قوله تعالى: ﴿ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف، ١٤٥]، وقولـه: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنبياء، ٣٧]، زيدت الواو تنبيهاً على ظهور ذلك بالفعل للعيان أكمل ما يكون، ويدل هذا على أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد"[٢].

وذهـب كذلـك إلى أن الواو "قد سقطت من أربعة أفعال تنبيهاً على سرعة وقوع الفعـل، وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود، أولها: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق، ٨]، فيه سرعة الفعل، وسرعة إجابة الزبانية، وقوة البطش، وهو وعيد عظـيم ذكر مبدؤه وحذف آخره ... وثانيها: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤]، حذفت منه الواو: علامة على سرعة المحو، وقبول الباطل له بسرعة ... وثالثها: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء، ١١] حذف الواو يدل على أنه يسهل علـيه، ويسـارع فيه كما يعمل في الخير، وإتيان الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخـير، ورابعهـا: ﴿يَـوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر، ٦]، حذفت الواو لسرعة الدعاء، وسرعة الإجابة[٣].

ولا نـتفق مـع وليد العناتي الذي ذهب إلى أن "هذه التفسيرات لا تعدو أن تكون تمحُّلاً وتكلُّفاً ظاهرين"[٤]. وأرجع ذلك إلى تعدد اللهجات "وأن لبعض القبائل العربية سمتاً

---

[١] انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣٩٧/١.

[٢] عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل: أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي، ٨٧.

[٣] السابق، ٨٨-٨٩.

[٤] التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية، وليد العناتي، ٢٩٥.

خاصـــاً فـــي النطق، يخالفون فيه ما جرت العرب عليه، فينعكس هذا السمت على الرسم والكتاب"[1].

ومـــا ذهب إليه العناتي قد يكون تعليلاً لما ورد في الرسم القرآني مخالفاً لمألوف العربية في الرسم، لكنه لا يجيب عن علة الاختيار للهجة دون غيرها لترسم هذه الكلمة – وفقها– في هذا الموضع، ثم يقع الاختيار على لهجة أخرى لترسم الكلمة وفقها في موضع آخر.

فالاختـــيارات نفسها تعد معنىً من معاني العدول، وتشير إلى إيحاء دلالي معين، وهـــذا يدعـــو إلى دراسة اللهجات دراسة دلالية ليظهر تمايز كل لهجة عن الأخرى في دلالاتها، وذلك يجعلنا نعي سر اختيار القرآن للهجَة ما دون غيرها في تراكيبه ومفرداته ورسمه، مما يشير إلى أن السر كامن في العدول والاختيار في استعمال القرآن، وهذا هو روح نظـــرية الـــنظم، فكمـــا حصـــل الاختيار بعناية بالغة للمفردات القرآنية لتنسجم مع ســـياقاتها الـــواردة فيها، كذلك الحال هنا إذ يتناغم رسم الألفاظ مع السياقات الواردة فيها لـــيولد ذلـــك عمقاً دلالياً، وذلك يلفت "انتباهنا –عند تحليل النصوص العالية– إلى أهمية الربط بين مستويات الصياغة والأداء والمستوى الدلالي لها"[2].

وكمـــا توالدت الدلالات في سياقات النظم القرآني من خلال التقديم والتأخير لهذه الألفاظ، والحذف والذكر، وغير ذلك من التحولات، فكذلك الحال في تحولات الرسم فهي مظهر من مظاهر الإعجاز فيه.

---

(1) التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية، وليد العناتي، ٢٩١.

(2) جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبدالمطلب، ١١٢.

سادساً: العدول النحوي:

هـــو موضـــوع دراســـتنا هذه، ويعنى بالعدولات السياقية التي تحصل للتراكيب النحوية من مخالفة في الأفعال والأدوات والجمل والنسق الإعرابي، وما لذلك من دلالات بلاغية، مما يصب في ما سماه شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني بمعاني النحو[1]، وعدّه المـــزية فـــي معرفة إعجاز القرآن، فالقرآن مُعْجِز بنظمه، وذلك من خلال توخّي معاني الـــنحو في تراكيبه وجمله وأسلوبه، وهذا الأمر يدعو إلى دراسة للنحو لا تنفك عن دلالة الســـياق ومعناه، وتكشف الدراسة من خلاله علاقة المعنى في توجيه الأسلوب وجمالياته، وذلـــك بدراسة التراكيب النحوية ضمن سياقاتها النصية، بما يسمى (نحو النص)، لا نحو القاعدة المنفصلة عن النص وسياقها النصي، وهذه الدراسة تربط النحو بالمعنى، وتوظف النحو في تحليل النص وفهم معانيه.

فالنحو في بداياته الأولى عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) كان نحواً يهتم بسياقات النص، فالتراكيب النحوية تدرس في سياقاتها النصية، فيتذوق بها جمال النص وبلاغته، وقد أشار إلـــى ذلك الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) بقولـــه: "فسيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع وأن المفعول منصوب، ونحو ذلك بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى إنه احتوى على علمي المعاني والبيان، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني"[2].

---

(١) انظـــر: دلائـــل الإعجـــاز، ٨١، يقـــول الجرجاني: "واعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضـــيه "علـــم الـــنحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجت فلا تزيغ عنها، وتعرف الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها".

(٢) الموافقات، الإمام الشاطبي، ٥/٥٤.

وقد تناول بعض الباحثين المعاصرين ارتباط النحو بالمعنى عند سيبويه في أطروحة جامعية بعنوان "الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب"(1).

وتناول ذلك أيضاً عبدالقادر حسين في أطروحته(2) "أثر النحاة في البحث البلاغي".

والمقصود بالنحو في بحثنا هذا النحو التفسيري لا النحو التعليمي، أي: "النحو بوصفه البنية العميقة التي تعطي الجملة معناها، والنحو كما قدمه علماؤنا الأوائل علم نصي؛ لأنه يتعامل مع التراكيب، ولا يمكن فهم تركيب ما إلا من خلال بنيته النحوية"(3).

واخترت أن تكون دراستي دراسة نحوية نصيّة تتناول أعظم النصوص اللغوية وأرقاها وهو القرآن الكريم، فالباحث "كلما كان قريباً من النصوص اللغوية متعاملاً معها تجلت له غاية النحو الحقيقية، ولذلك لا محيد عن العودة إلى النصوص، فإن العمل من خلالها يفتح آفاقاً كثيرة مفيدة"(4).

وليست غاية النحو معرفة الخطأ والصواب في ضبط الكلمة فحسب، وإنما غايته الحقيقية هي تحليل النصوص ومعرفة أسرار تراكيبها من خلال فهم تعالق مفردات التراكيب بعضها ببعض والفروق بينها، فهو إبداع ولا بد من تفجير طاقته المبدعة في إضاءة النص وتفسيره "فالنحو ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء والفنانون هم الذين يفهمون النحو، أو هم الذين يبدعون النحو، فالنحو إبداع"(5).

---

(1) الأصول البلاغية عند سيبويه في الكتاب، أحمد سعد محمد، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٩.

(2) أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨.

(3) منهج في التحليل النصي، محمد حماسة عبداللطيف، ١١٤.

(4) النحو والدلالة، ٣٤٠.

(5) النحو والشعر، قراءة في دلائل الإعجاز، مصطفى ناصف، مجلة فصول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨٨، ٣٦.

والغايــة من نشوء النحو العربي ليس فشو اللحن والخوف من تطرقه إلى عربية القــرآن، وإن كان هذا الأمر يأتي ضمناً لغاية أهم وهي الرغبة القوية في معرفة أسرار التركيب القرآني، والوصول إلى فهم دقائق معانيه، ومعرفة أسرار إعجازه[١].

وقــد حاد النحو عن غايته الأولى على أيدي المتأخرين من النحاة إذ جعلوا الغاية منه تمييز صحيح الكلام من فاسده، ومعرفة إعراب أواخر الكلم، "وحصر النحو في دائرة الإعــراب والبناء الضيقة المغلقة لا يتسع لكشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته"[٢].

القيم الفنية للعدول:

يُعــد العــدول "تفنناً في الكلام وتصرفاً فيه يكسب النص قيمة جمالية، وينبه إلى أسرار بلاغية كثيرة"[٣]. وهو من فنون التواصل بين المبدع والمتلقي؛ لأنه يبرز "إمكانات المبدع في استعمال الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة"[٤]؛ "لإيصال رسالته إلى المتلقي بكل مـــا فيها من قيم جمالية، فيعدل الأسلوب عن نمط الأداء المألوف المعتاد؛ ليحقق ما يريده من أهداف يعجز عن توصيلها التركيب العادي"[٥].

يقــول الدكــتور محمد بركات أبو علي: "والخروج على خلاف مقتضى الظاهر يرتــبط بخــروج معــانٍ جديــدة يهدف إليها المتكلم عند كلامه، ويتغياها المتفنن موافقةً لشعوره، وحبه لما يريده[٦].

---

(١) انظر: النحو والدلالة، محمد حماسة، ٢٦.

(٢) السابق، ٢٧.

(٣) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٥٦.

(٤) جدلية الإفراد والتركيب، محمد عبدالمطلب، ١٨٨.

(٥) تحولات البنية في البلاغة، ٢٩٣.

(٦) الـبلاغة العربـية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، ٧٧، وقد تناول هذا الموضوع بالتحليل والشرح في كتابه هذا من ٦٥-٨٢.

وهـو يقطع رتابة النص بما يضفيه من تحولات في التراكيب تثير دهشة المتلقي وتلفـت انتـباهه، وذلـك بكسر أفق التوقعات لدى المتلقي من خلال حركة التراكيب في موضـعها "وتحورها تحوراً غير مألوف يبرز دلالةً فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي"[١]. وخروج السياق عن "هيكل هذه التوقعات هو الذي يسمح بقياس مدى قيمته الأدبية"[٢].

ويسهم في تفاعل المعاني وتوالد الدلالات، "فالنصوص الإبداعية نصوص مفتوحة قابلة لمستويات متعددة في القراءة"[٣].

والـنص القرآنـي تتعدد قراءاته وفهم دلالاته، وقد وصفه الله -عزوجل- بقوله: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾** [ص، ٢٩] .

فهـو مـبارك فـي معانيه ومضامينه، لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ويقتضي تدبره عدم الوقوف عند ظاهر عباراته فقط، بل ينبغي تجاوز ذلك بإعمال النظر الدقـيق والفهم العميق في فهم ما وراء عباراته ونصوصه من دلالات وإيحاءات، وذلك يحتاج إلى إعمال طاقات التأويل فيه من ذوي الأفهام والألباب.

والعربـية بما اشتملت عليه من أساليب بيانية وصور بلاغية وسيلة لتدبر القرآن الكريم وفهمه.

والعـدول مـن الأساليب المهمة في ذلك؛ لأنه يشد انتباه المتلقي فيدخله في دائرة الـتأويل والتفكير وإعمال النظر لفهم دلالات النص وأسراره، ويكتسب النص قيمته الفنية

---

[١] جدلية الإفراد والتركيب، محمد عبدالمطلب، ١٨٨.

[٢] مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، ١٥١.

[٣] النص الأدبي بين القارئ والمبدع، غسان السيد، ١٦٣.

"مـــن خـــلال قدرته على الإيحاء وهذا الذي يجعله يستمر في حضوره الدائم عبر الزمن ويكتب له الخلود"[1].

وإذا كانـــت القيم الفنية للعدول تبدو في كلام البشر من الشعراء والأدباء فيتذوقها الـــنقاد والبلغاء، فإن هذه القيم "أروع ما تكون في كلام خالقهم -عزوجل- ولكن الأذهان تتفاوت في إداركها والوصول إلى أغراضها، فقد تقترب منها وقد تصل إلى بعضها"[2].

والعـــدول وإن مـــثل قيمة فنية في تحليل النصوص وتذوقها، فلا يعني مطلقاً أن مجـــيء الكلام على ظاهره خلواً من هذا الأسلوب يخلو من مدلول بلاغي، فلكلٍّ مدلولـــه البلاغي في سياقه الخاص به، لا سيما السياق القرآني المعجز، "بل قد يكون جريان الكلام علـــى ظاهـــره أبلغ وأدل على مقصوده من غيره، فليست البلاغة دوماً في الخروج عن المعهود اللغوي"[3].

---

(1) النص الأدبي والمتلقي، سعود الجابر، ٧.

(2) النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٤٨.

(3) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ١٨٨.

الفصل الأول

العدول في الأفعال والأسماء

الفصل الأول

العدول في الأفعال والأسماء

نجد التعبير القرآني كثيراً ما يغاير بين الأفعال والأسماء، فيخالف بين الأفعال نفسها في السياق الواحد، ويتمثل ذلك في العدول في أزمنة الفعل، كأن يعدل عن الماضي إلى المضارع أو العكس، أو عن المضارع إلى الأمر، وغيرها من صور العدول المختلفة لهذا النوع.

وكذلك يرد العدول في الأسماء بالمخالفة بين الضمائر، كأن يعدل عن الخطاب إلى الغيبة أو العكس، أو عن التكلم إلى الغيبة، وغير ذلك، وكذلك العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر والعدول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالمخالفة بينها، كالعدول عن (ما) إلى (من) أو العكس، وكذلك العدول بين الأسماء والأفعال معاً، كان يعدل عن الاسم إلى الفعل في السياق نفسه، نحو العدول عن اسم الفاعل إلى الفعل أو العكس، أو العدول إلى اسم المفعول أو المصدر، وغيرها من صور العدول المختلفة المتعددة.

وهو ما سنعرض له بالتفصيل في هذا الفصل، محللين بعض النماذج لكل نوع من أنواع هذا العدول، لمعرفة أبعاده الدلالية، متناولين ذلك في ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: العدول في الأفعال.

المبحث الثاني: العدول في الأسماء.

المبحث الثالث: العدول عن الاسم إلى الفعل والعكس.

المبحث الأول

العدول في الأفعال

قسم النحاة الفعل ثلاثة أقسام هي: "ماضٍ وهو ما دل على الزمن الماضي، ومضارع وهو ما دل على زمن الحاضر أو المستقبل، وجعلوا القسم الثالث وهو الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل"(١).

وفي تقسيمهم هذا انطلقوا من أن الأزمان ثلاثة: ماضٍ وحاضر ومستقبل، يقول سيبويه (ت ١٨٠هـ): "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع"(٢).

"فالنحاة قسموا الفعل على أساس تقسيم الزمن الفلسفي، وهو الماضي والحاضر والمستقبل، وخصوا كل زمن بصيغة معينة، هو معناها في حالة الإفراد والتساوق على السواء"(٣).

وقد انتقد بعض الباحثين المعاصرين النحاة لتركيزهم على الزمن في صيغة الفعل، وإهمال السياق الذي وردت فيه، فيرى فاضل الساقي(٤): "أنه كان على النحاة أن يدركوا أن الأفعال مجرد صيغ وألفاظ تدل على زمن ما، هو جزء من معنى الصيغة لا على زمن معيّن، وأن السياق أو الظروف القولية بقرائنها اللفظية والحالية هي وحدها التي تعين الدلالة الزمنية وترشحها لزمن بعينه".

---

(١) أقسام الكلام العربي، فاضل الساقي، ٢٢٩.

(٢) الكتاب، ١/١٢.

(٣) أقسام الكلام العربي، ٢٣١.

(٤) السابق، ٢٣٢.

وعليه فقد قسم هؤلاء الباحثون[1] الزمن إلى نوعين هما:

أولاً: الزمن الصرفي وهو الزمن الذي تدل عليه الصيغة المفردة خارج السياق.

ثانياً: الزمن النحوي، أو يسمى "الزمن السياقي التركيبي" "وهو الذي تُحَدِّده القرينة اللفظية أو الحالية، أي: هو معنى الفعل في السياق"[2].

وللمقارنـــة بين الزمن النحوي والزمن الصرفي يمكن القول: إن "مجال النظر في الزمن النحوي هو السياق، وليس الصيغة المفردة، وبناء الجملة العربية أخصب مجال لهذا النظر بينما لا يكون مجال النظر في الزمن الصرفي إلا الصيغة منفردة خارج السياق"[3].

ويرى مالك المطلبي: "أن الصيغ في اللغة العربية تخلو من الدلالة على زمن في المستوى الصرفي"[4]. وأن "وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبي واحد يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن حيث تشير إلى وجه من وجوه دلالتها الحدثية، ومن هنا يكــون مــن الخطــأ إسناد الزمن إلى مثل هذه الصيغ بوصفها "شكلاً زمنياً"؛ لأن الزمن يكتسب من قرائن السياق اللفظية والمعنوية"[5].

ويـــرى الباحث أن دلالة السياق على الزمن النحوي لا تنفصل عن دلالة المفردة للصيغة الصرفية، فهما متعالقتان، وأن الصيغة الصرفية لا تخلو من دلالة زمنية، غير أن الســياق يضــفي دلالة إضافية للدلالة الصرفية المفردة يحددها السياق نفسه، فيُجمع بين الدلالتين، ولا تلغي إحدى الدلالتين الأخرى، أو تفرغها من محتواها.

---

(1) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ٢٤٠، الزمن واللغة، ٨٣، أقسام الكلام العربي، ٢٣٥-٢٣٦.

(2) الإعجاز الصرفي، ٥٠.

(3) أقسام الكلام العربي، ٢٣٧.

(4) الزمن واللغة، ٨٢

(5) السابق، ٧١.

فمن ذلك مثلاً: الفعل "أتى" في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١]. يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق، في زمن مضى وانقضى، إلا أن وروده في السياق "يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها، وهي دلالة الاستقبال؛ لأن القرينة اللفظية "فلا تستعجلوه" في السياق النحوي التركيبي تشير إشارة واضحة جلية إلى أنه لما يقع بعد. ومع كونه فعلاً ماضياً في الصيغة الصرفية، فإننا لا نفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله: "سيأتي أمر الله". ومع ذلك لا نقف عند حدود الدلالة الصرفية اللفظية لنقول: بأنه فعل ماضٍ قد وقع وحصل؛ فالقرينة السياقية تمنع ذلك وهي قوله: "فلا تستعجلوه"، وإنما نجمع بين الدلالتين الصرفية والنحوية، الإفرادية والتركيبية، لنقول: إن المراد "هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت نفسه، فكأن مقصود الآية أن تقول: سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل"(١).

ونلحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في العدول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم

---

(١) الإعجاز الصرفي، ٥٢-٥٣.

ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك العدول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني.

وهــذا العــدول "يكشف عن تصادم الأزمنة على مستوى البنية السطحية مما يدفع المتلقي إلى الانتباه والتفاعل مع النص، ومحاولة إعادة التوافق بين صيغ الأفعال وأزمنتها في البنية العميقة"(١).

فالبنية العميقة تستوجب المطابقة في أزمنة الفعل في السياق اللغوي، والعدول عنها إلـــى البنية السطحية التي برزت على سطح النص تستدعي عدولاً في المعنى يرافق هذا العدول في المبنى.

وقد توقف علماؤنا عند هذا النوع من العدوُل وعدّوه ضرباً من البلاغة، يقول ابن الأثــير (ت ٦٣٦هــ): "واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفــاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية، اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارها، وفتّش عن دفائنها، ولا تجــد ذلــك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً"(٢).

ونحـــن في تناولنا لهذا العدول في صيغ الأفعال، لا نتناولها من الناحية الصرفية، وإنما نتناولها من حيث دلالة الزمن النحوي الذي وردت فيه في السياق.

إذ تـــناول هذه الصيغ مفردة خارج السياق اللغوي يعد تناولاً صرفياً، وتناولها في الســـياق الواردة فيه من حيث الدلالة الزمنية يعد تناولاً نحوياً سياقياً، كما سبقت الإشارة إليه.

---

(١) تحوُلات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٠.

(٢) المثل السائر، ٢/١٩٣-١٩٤.

والعدول في الأفعال يتمثل في ست صور وهي على النحو الآتي:

الصورة الأولى: العدول عن الفعل الماضي إلى المضارع:

مجـــيء المضارع بعد الماضي في هذا الضرب من العدول يكون على نوعين[1]: نوع يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث قد مضى وانقضى، ونوع آخر يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال.

أمـــا الـــنوع الأول: فمجيء المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى، وقد قرر علماء البلاغة أن المضارع في الحالة هذه يقصد به استحضار الصورة للحدث الماضي، وكأنـــه أمر مشاهد بارز للعيان، يقول ابن الأثير[2]: "واعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به فـــي حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعـــل المســـتقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشـــاهدها، ولـــيس كذلك الفعل الماضي". وهذا ما أطلق عليه الزمخشري (ت ٥٣٨هـــ) مصـــطلح "حكاية الحال". يقول الزمخشري عند قولـــه تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر، ٩]. فـــإن قلت لم جاء "فَتُثِيرُ" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقـــع فـــيها إثـــارة الـــرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية"[3].

فالســـياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، إذ يقتضي السياق بموجب المطابقة

---

(١) انظر: المثل السائر، ٢/١٩٤.

(٢) السابق/ ٢/١٩٤.

(٣) الكشاف، ٣/٣٠١.

الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، يقول السيوطي (ت ٩١١هـ)[١]: "وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضٍ أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لاشتراط اتحاد الزمان في الفعلين المتعاطفين".

فمجيء الفعل المضارع في الحالة هذه خارجاً عن النسق العام للسياق يؤدي إلى توليد دلالتين بارزتين في السياق، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو الاستقبال، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده، فالدلالة السياقية تقتضي مضيه والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدلالتين ليقال: إنه الماضي الحاضر، أو بعبارة (فندريس) هو "المضارع التاريخي"، وذلك "استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي، وفيه يجد المثقفون سحراً خاصاً، يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغ حتى ليجعل المنظر يحيا من جديد أمام عيني القاريء، ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحديث"[٢].

ومن أمثلة هذا المضارع التاريخي ما جاء في حديث عبد الله بن عتيك حين دخل على أبي رافع اليهودي حصنه، قال: فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم لا أدري أنى هو من البيت، فقلت: أبا رافع، فقال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت **فأضربه** بالسيف وأنا دهش"[٣].

ففي هذا النص نجد أن الفعل المضارع (أضرب) يدل في معناه على حدث مضى وانقضى، بدلالة السياق على ذلك، إذ كل أحداثه ماضية (فانتهيت .. فقلت .. فأهويت ..)،

---

(١) همع الهوامع، ٢٣/١.

(٢) اللغة، فندريس، ١٣٨.

(٣) دلائل الإعجاز، ٢٠٦.

وكـــان حـــق الفعل (أضرب) أن يرد ماضياً فيكون (فأهويت نحو الصوت فضربته وأنا دهش) لكنه عدل عن الماضي إلى المضارع؛ لاستحضار الحدث وكأنه مشاهد للعيان؛ لأن الموقف موقف تعجب ودهشة.

ومنه أيضاً قول تأبط شراً[1]:

ألا مَــنْ مُــبلغٌ فِتْــيانَ فَهْــمٍ   بِمَــا لاَقَيْــتُ عِــنْدَ رَحَــى بِطَــانِ

بِأنِّــي قَــدْ لَقِيــتُ الغُــولَ تَهْــوِيَ   بِسَــهْبٍ كالصَّــحِيفَةِ صَحْصَــحَانَ

فأضْــرِبُها بِــلاَ دَهَــشٍ فَخَــرَّتْ   صَــرِيْعَاً لليدَيْــن ولِلْجِــرَانِ

فالمستوى السطحي[2]:	لقيتُ	→	←	أضربها
	ماضٍ	→	←	مضارع
والمستوى العميق:	لقيتُ	◄——————		فضربتها
	ماضٍ	◄——————		ماضٍ

فالسـياق الزمنـي للأبـيات يسـير على جهة الإخبار بالماضي (لاقيت، لقيت)، والشـاعر فـي هذا الموقف يريد أن يخبر على سبيل السرد والحكاية عن واقعة مدهشة حصـلت له، فـأتى بـ (ألا) الاستفتاحية ليشد انتباه السامعين لسماع السرد والحكاية، ثم يذكر المكان "رحى بطان" ويثير الرعب والخوف بذكر اسم "الغول"، وأنه لقاه بمكان خلاء لا ملجأ فيه ولا احتماء، ثم بعد السرد الحكائي بصيغة المضي عدل إلى الفعل المضارع.

---

(1) الأغاني، ٢١/١٢٩، وانظر: ديوان تأبط شراً، ضمن ديوان الصعاليك، ت: يوسف شكري فرحات، ص ١٧١-١٧٢.

(2) الأسـهم التـي للخلف دلالة على الماضي، والأسهم التي للأمام دلالة على الزمن المضارع، انظر: تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٢.

لحظـــة المواجهـــة الحاسمة مع الغول، فقال: "فأضربها" وذلك أنه "قصد أن يصور لقومه الحـــال التـــي تشـــجع فيها على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها مشاهدة، للتعجب من جـــراءته علـــى ذلـــك الهول، ولو قال: "فضربتها" عطفاً على الأول؛ لزالت هذه الفائدة المذكورة"[1].

ويقـــول ابـــن الأثـــير[2]: "فإن قيل: إن الفعل الماضي أيضاً يتخيل منه السامع ما يتخـــيله مـــن المستقبل، قلت في الجواب: إن التخيل يقع في الفعلين معاً، لكنه في أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيلاً؛ لأنه يستحضر صورة الفعل، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلهـــا في حال وجود الفعل منه، ألا ترى لما قال تأبط شراً "فأضربها" تخيل للسامع أنه مباشـــر للفعـــل، وأنه قائم بإزاء الغول، وقد رفع سيفه لضربها، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه، وهذا لا خلاف فيه".

وعـــد الســـكاكي (٦٢٦هـــ) هذا النوع من العدول أصلاً بلاغياً ثابتاً إذا اقتضى الســـياق اللجـــوء إليه، فقال[3]: "وإنه –أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع– طريق للبلغاء لا يعدلون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه".

ويـــرد هذا النوع من العدول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعد من روائع البيان فيه، إذ عمـــد القـــرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان، من ذلك قولـــه تعالى مخاطباً اليهود:

---

(1) المثل السائر، ١٩٦/٢.
(2) السابق الصفحة نفسها.
(3) مفتاح العلوم، ٢٤٧.

(أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) [البقرة، ٨٧].

ففي هذا السياق حصل عدول عن الفعل الماضي "كذبتم" إلى الفعل المضارع "تقتلون" وكان مقتضى السياق بموجب المطابقة الزمنية بين الأفعال أن يكون على النحو "ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم".

لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث في الزمن الماضي، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم، لكن السياق عدل عن الماضي إلى المضارع؛ لأن قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب[١].

وسياق هذه الآية يشابهه سياق آخر وهو قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [البقرة، ٩١].

إذ جاء الفعل المضارع "تقتلون" الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان "قبلُ" الدال على الماضي، مما يجعل الفعل المضارع هنا دالاً على الزمن الماضي، فهو لا يدل على زمن الحدوث، وإنما يدل على زمن الإخبار، فللفعل الماضي زمانان؛ زمن حدوث ووقوع، وزمن إخبار عنه، وهو ما أشار إليه الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) بقوله[١]: "والفعل الماضي ما تقضى وأتى عليه زمانان، لا أقل من ذلك، زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه".

ونجد أن السياق القرآني قد نسب جريمة القتل إلى الأحفاد عندما خاطبهم فقال: "فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ"، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد،

---

[١] انظر: الكشاف، ٢٩٥/١.

وذلــك مــن بلاغــة السياق القرآني، إذ أفاد الفعل "تقتلون" الاستمرارية للحدث، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل والإجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد.

وفــي ذلك تنبيه في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية فــي الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم، أو الرضى عن أفاعيلهم، أو الانطواء على مثل مقاصدهم"[1].

وأضفى ظرف الزمن الماضي "قبلُ" على السياق دلالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق اللغــوي للفعــل إلى الزمن الحقيقي للحدوث وهو الماضي، ودلالة أخرى توحي بأن قتل الأنبياء قد كان في الزمن الماضي في حق من سلف منهم، أما هذا النبي فلا يمكنون منه، فــالله يعصــمه من الناس، يقول دراز[2]: "ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفــظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم وباباً من الأطماع لأعدائه فــي نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقولــه "مــن قــبلُ" فقطــع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس".

"فــإذا أخذنا بدلالة الماضي للظرف "قبلُ" كانت دلالة الفعل "تقتلون"تفيد استحضار الصــورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحيه دلالة "قبلُ" من استحالة حصول الفعــل وتحققه بالنسبة لهذا النبي، كانت دلالة الفعل "تقتلون" تفيد تجدد محاولة الفعل منهم والاستمرار، والجمع بينهما نوع من الانفتاح الدلالي للنص القرآني.

---

(١) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ١٥٤.

(٢) السابق، ١٥٥.

ولكننا نجد سياقاً آخر في القرآن الكريم يرد فيه الإخبار بصيغة ضمير الغائب في الحديث عن بني إسرائيل، كما هو الحال في قولــه تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَـلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة، ٧٠].

وهذا السياق تنسجم فيه الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عمن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب "إليهم، جاءهم، أنفسهم" مع السياق الخارجي للزمن الماضـي، وبـناءً على ذلك فتنصرف دلالة الفعل المضارع "يقتلون"، في الحالة هذه إلى استحضـار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجدده، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)[١]: "جيء "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجيب منها".

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول: إن دلالة الفعـل "يقتلون" تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم، وذلك من سـياق الإخبار عنهم بضمير الغائب، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب، وفيه تيئيس من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي ﷺ.

وهـذا يعـد مـن بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد تم توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع.

وكمـا أن وظيفة استحضار الصورة في سياق الآيات السابقة كان لغرض تصوير فظاعة الحدث وقبحه، فكذلك نجد استحضار الصورة في سياق آخر يرد للفت الأنظار إلى

---

(١) الكشاف، ١/٦٣٣.

موضع القدرة والاعتبار، من ذلك قولـــه تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَـحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر، ٩]. فإنه إنما قال: "فتثير، مستقبلاً، وما قبله وما بعده ماضٍ؛ لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة علـــى القــدرة الباهرة"[1].

ويعدل عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي فيفيد الفعل المضارع فـــي هــذه الحالة تأكيد النفي، وليس استحضار الصورة كما هو الحال مع المضارع المثبت، وهو ما ذهب إليه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) إذ قال[2]: "ومنه قولـــهم: لم يقم زيد، جاءوا فيه بلفـظ المضارع وإن كان معناه المضي؛ وذلك أن المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي، ألا ترى أن أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة، ثم توجد فيما بعد، فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعد، أما الماضي فقد وقع وانتهى، فإذا نفي المضارع الذي هو الأصل فما ظنك بالماضي الذي هو الفرع". "وفي هذا النفي نوع من التوكيد، فالتعبير بالمضارع المنفي بدلاً من الماضي لا يفيد عند ابن جني استحضار الصـــورة، كمـــا يفيـــد التعبيـــر بالمضارع بصفة عامة، ولكنه يأتي لإرادة التوكيد"[3].

وبناء على ما تقدم يمكننا فهم سر العدول في سياق قولـــه تعالى: (وَلَقَدْ أَخَـــذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) [المؤمنون، ٧٦]. فالمتوقع من ســياق هـــذه الآية أن تكون على النحو التالي: "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكن السياق القرآنـــي عدل عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، والسبب في ذلك -والله أعلم- أن حالـــة

---

(١) المثل السائر، ١٩٥/٢.

(٢) الخصائص، ١٠٥/٣.

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي، ٣٠٦.

التضـــرع هـــي مرتــبة أعلى في الخضوع من الاستكانة نفسها، إذ التضرع ضرب من الإمعان في الابتهال واللجوء إلى الله تعالى، فنفي ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيد في نفي ما هو أعلى رتبة، فإذا انتفت الاستكانة منهم، فمن باب أولى ينتفي حصول أدنى تضـــرع منهم، لذا عدل السياق في النفي عن الماضي إلى المضارع؛ فنفي المضارع أشد تأكيداً من نفي الماضي، -كما سبق ذكره عند ابن جني- فوافق المقال مقتضى الحال.

ولعـــل ذلك ما قصده ابن عاشور بقولـــه(١): "والتعبير بالمضارع في "يتضرعون" لدلالـــته علـــى تجـــدد انـــتفاء تضرعهم". إذ يفهم من قوله: "تجدد الانتفاء" تكرار النفي واســـتمراره وذلك ضرب من التأكيد، وكأني بالسياق يقول: "ما تضرعوا، وما تضرعوا، ومـــا تضـــرعوا، ..."، فقال: "وما يتضرعون"، وهو ما يفهم أيضاً من قول الألوسي(٢): "وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفي، لا نفي الدوام".

ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" لكان المقصود -والله أعلم- وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب، وإنما جاء "وما يتضرعون" لنفي حصول أدنى شيء من التضرع أصلاً".

ولا منافاة فيما قررناه هنا وبين قولـــه تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ**﴾ [المؤمنون، ٦٤-٦٥]. فهناك فرق بين الجؤار والتضرع.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨/١٠١.

(٢) روح المعاني، ١٨/٥٦.

يقـول الشـهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)[١]: "فالتضرع يستعمل فيما إذا كان عن صـميم القلب لا باللسان فقط، ولذا عبر عن استغاثتهم أولاً بالجؤار الذي هو من صوت الحيوان، فلا منافاة بينهما كما توهم".

وللعـدول إلـى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يشي بها السياق القرآني الكريم، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب، وكثرة وقوع الفعل وتكراره، أو تجدده واستمراره، فمن دلالة التلطف في الخطاب قولـه تعالى: ﴿قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ، ٢٥].

لقـد كان من المتوقع لدى المتلقي أن يجري السياق على نمط واحد فيكون" قل لا تسـألون عمـا أجرمـنا ولا نسأل عما أجرمتم"، ولكن السياق القرآني عدل عن الظاهر والمـتوقع عدولين، عدولاً معجمياً عن لفظة "أجرم" إلى لفظة "عمل"، وعدولاً نحوياً عن الماضي "أجرمنا" إلى المضارع "تعملون".

وعلل ذلك الألوسي فقال[٢]: "وهذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلـو مـنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحـوه بمـا يعـبر عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك".

---

[١] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، ٥٩٨/٦.

[٢] روح المعاني، ١٤١/٢٢.

"وهذا أسلوب غاية في الكسب للخصم إلى جانب المتحدث، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس"[١].

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها هذا العدول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ [الزخرف، ٦-٧].

ففي هذه الآية نجد العدول عن الفعل الماضي "أرسلنا" إلى الفعل المضارع "يأتيهم"، وكان المتوقع بموجب المطابقة بين الأفعال أن يرد السياق على النحو التالي: "وكم أرسلنا ... وما أتاهم ... إلا استهزؤا به"؛ لأنه يخبر عن حدث مضى، وذلك بقرينة لفظية، وهي قوله "في الأولين"، ولكن العدول إلى الفعل المضارع "يأتيهم" في هذا السياق دل على الكثرة والتكرار، فكثرة مجيء الرسل قوبل بكثرة الاستهزاء، والفعل الدال على ذلك "يستهزؤن" مسبوقاً بـ (كان) "وسبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر في الماضي، ووقوعه بصورة متكررة"[٢]. قال الرازي[٣]: "والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء".

والفرق بين هذا النوع من العدول الدال على الكثرة والتكرار والنوع الآخر الذي يليه الدال على الاستمرار، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع، وإن كانت متقاربة في الزمان، في حين أن الاستمرار يقتضي الاتصال.

---

[١] التعبير القرآني والدلالة النفسية، ١٩٩، رسالة دكتوراه، مخطوطة عبدالله الجيوسي، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، ٢٠٠١م.

[٢] معاني النحو، ٣١٩/٣.

[٣] تفسير الرازي، ٦١٩/٢٧.

ومــن أمثلة مجيء هذا العدول للدلالة على الاستمرار، قولــه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج، ٨].

لقــد عدل السياق القرآني عن الفعل الماضي "نقموا" إلى المضارع "يؤمنوا" وكان يتوقع أن يرد السياق على النحو التالي: "وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد؛ لأنــه يخــبر عن حدث مضى وانقضى، وهو ما حصل للفئة المؤمنة على أيدي أعدائهم، واللافــت للنظر، هو مجيء الفعل المضارع "إلا أن يؤمنوا" وليس "إلا أن آمنوا"، كما هو الحــال في قولــه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة، ٥٩].

فمــا السر في مجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق سورة البروج، والعدول عنه إلــى المضارع "يؤمنوا" في السياق نفسه، في حين ورد العكس في سورة المائدة إذ جاء الفعل "تنقمون" مضارعاً وعدل عنه إلى الماضي "آمنا"؟!

والــذي يظهــر -والله أعلم- أن السياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له، فيكون كل سياق قد اختص بتركيب قصد إليه لمعنى، وهو من البلاغة بمكان؛ لأنه يقتضي موافقة الكلام لمقتضى الحال.

إن مجيء الفعل "نقموا" ماضياً في سياق الآية السابقة من سورة البروج يشير إلى أن هذه النقمة مضت وانتهت بهلاك الذين فُتِنُوا من المؤمنين، فليس فيها تجدد واستمرار، ودل العدول إلى صيغة المضارع "إلا أن يؤمنوا" على أن أعداءهم نقموا منهم استمرارهم على الإيمان وثباتهم عليه[1]. في حين دل سياق الآية من سورة المائدة على أن نقمة أهل الكــتاب مــتجددة مســتمرة ضد المسلمين لا تنقطع عنهم بحال، بدلالة الفعل المضارع

---

[1] انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٦/٤٧٧.

"تـــنقمون"، ودل العدول إلى الفعل الماضي "آمنا" أن إيمان المسلمين حاصل متحقق، فهو فـــي حكـــم الماضــــي في تحققه وحصوله، فلا مطمع لأعدائهم في ارتدادهم عنه. ويبرز الانفتاح الدلالي للنص القرآني في هذا السياق، ليضيف دلالة أخرى للفعل الماضي مفادها أن إيمـــان المســـلمين لـــيس حادثاً، وإنما هو امتداد لقافلة الإيمان التي مضت في تاريخ البشرية.

ومـــا ســـبق ذكـــره من الآيات القرآنية هي نماذج للنوع الأول الذي يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى.

وأما النوع الثاني: فيرد فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال.

ويقـــرر البلاغيون أن مجيء المضارع للدلالة على الحال والاستقبال يفيد التجدد والحـــدوث، وأن هـــذا الحـــدث مستمر الوجود ولم يمض، يقول ابن الأثير(١): "وعطف المســـتقبل علـــى الماضـــي ينقســـم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماضٍ بمســـتقبل، والآخـــر غير بلاغي: وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمضِ".

ويُفهـــم مـــن كـــلام ابن الأثير أن هذا النوع من العدول ليس ضرباً من ضروب الـــبلاغة، وما ذهب إليه ليس صحيحاً، إذ البلاغة هي موافقة المقال لمقتضى الحال، وقد جـــاء هذا العدول ليوافق مقتضى الحال الذي سيق من أجله كما سنوضحه لاحقاً في هذا البحـــث، وقد استعمل في النصوص الأدبية الراقية لا سيما القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلا لمـــنحى بلاغي، إذ لا يقع ما ليس بليغاً في كلام الله عزوجل، وقد اعترض محمد أبو موسى على ابن الأثير لإخراجه هذا النوع من العدول من البلاغة فقال(٢): "ولست أدري

---

(١) المثل السائر، ٢/١٩٤.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ٥٤٧.

لماذا كان هذا القسم غير بلاغي؟ أليست البلاغة نظراً فيما تنطوي عليه خصائص الألفاظ وأحوالها لإبراز معانيها وبيان لطائفها ومطابقتها لبيان الكلام؟ وأليس هذا داخلاً في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال؟"

بل إن ابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها، مما يوحي بالتضارب لديه[1].

ويشير هذا النوع من العدول في السياق القرآني إلى دلالات عديدة منها:

- الدلالة على التجدد والاستمرار للحدث.
- الدلالة على إطالة مشهد الحدث.
- التركيز على نتيجة الحدث.

فمن السياقات التي يدل هذا العدول فيها على التجدد والاستمرار قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد، ٢٨].

عدل إلى المضارع (تطمئن) لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره؛ وأنه لا يتخلله شك ولا تردد"[2]، ولو جرى السياق على نمط واحد فكان "واطمأنت قلوبهم" لما أفاد معنى التجدد والاستمرار الذي نجده في زمن المضارع الذي أضفى دلالة الزمن المفتوح في الماضي والحاضر والاستقبال، فقلوبهم قد اطمأنت بذكر الله منذ الزمن الماضي وما تزال تطمئن في الحال والاستقبال، في حين ورد ذكر الإيمان بصيغة المضي "آمنوا" لإفادة معنى الحصول والتحقق، فهو ثابت متحقق كتحقق الماضي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٢]. فقد

---

(١) انظر: المثل السائر، ٢/١٩٧-١٩٨.

(٢) التحرير والتنوير، ١٣/١٣٨.

عــدل عــن الماضـــي الصلة "صبروا" وما عطف عليه إلى المضارع "يدرؤون"، وذلك "لاقتضـــاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه، لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات"(١).

ومـــن السياقات التي يرد فيها هذا العدول للدلالة على إطالة مشهد الحدث لما في ذلك من التخويف والتهديد قولـــه تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ **فَتَخْطَفُهُ** الطَّيْرُ أَوْ **تَهْوِي** بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج، ٣١].

إذ حصل في هذا السياق عدول عن الفعل الماضي خرّ إلى المضارع "فتخطفه" أو "تهوي"، ولم يأتِ السياق على نمط واحد فيكون "خرّ من السماء فخطفته الطير أو هوت به الــريح"، وذلــك أن الفعـــل الماضي يشير في هذا السياق إلى تحقق حصول الخرور من المشـــرك لا محالة حاله حال الماضي في تحققه، فقال: "خرّ من السماء"، وفيه دلالة على سرعة حصول الخرور والسقوط دون تماسك أو انتظام، كما يوحي به جرس اللفظة "خرّ" وقصرها وخفتها، وتكرار صوت الراء فيها إشارة إلى تكرار السقوط والهوي والتقلب في الهـــواء، وما أضفاه التفخيم في الخاء والراء من تفخيم لمشهد الهوي نفسه "فالملحوظ هو ســـرعة الحـــركة مـــع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ بـــ "الفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء"(٢).

"ثـــم عدل إلى المضارع "فتخطفه" و"تهوي" لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٩/١٣.

(٢) في ظلال القرآن، ٢٤٢١/٤.

(٣) المثل السائر، ١٩٧/٢.

فكـــان العدول إلى المضارع لاستحضار المشهد وإطالته، وأمعن في إطالة مشهد الهوي أيضاً مجيء الحرف "في" الذي أفاد هنا الإمعان في تصوير التسفل والسقوط، وكأن المكـــان الســـحيق قد أصبح ظرفاً ووعاءً له لا ينتهي فيه إلى قرار. ولو قال: "إلى مكان سحيق" لأفاد انتهاء الهوي به إلى منطقة معينة، وذلك يوحي بالتهديد الشديد والإيعاد لمن كان هذا حاله.

ولو جرى السياق على النمط نفسه من المضي لمضى السياق كله على عجالة دون أن يتمكن المتلقي من إمعان النظر والفكر في مشهد الخطف والهوي.

ومـــثله قولـــــه تعالى: ﴿اعلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ **أَعْجَبَ** الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ **يَهِيجُ** فَتَرَاهُ مُصفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ [الحديد، ٢٠].

لقـــد عدل السياق عن الماضي "أعجب" إلى المضارع "يهيج" و"يكون"، ولو جرى السياق على نمط واحد لجاء: "كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم هاج ثم كان حطاماً"، لكن العـــدول عن الماضي إلى المضارع في هذا الموضع جاء لمنحى دلالي مقصود، فالسياق القرآني تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع، بالإخبار عنها بالزمن الماضي، وكأنها لحظة مضـــت دون تريث أو إمهال، تلاها على الفور مشهد الفناء والزوال، مخبراً عنه بالزمن الحاضر، حتى يظل مشهد الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان، ولا ينافي ذلك مجيء حرف العطف "ثم"، فهو هنا يفيد التراخي الرتبي لا الزمني(١).

---

(١) انظر: رأي الزمخشري في (ثم) التي تفيد التراخي الرتبي في الكشاف، ٤/١٥٤.

إذ يوحي المشهد بالتدرج من لحظة السرور والفرح بهذا النبات، إلى مرحلة شديدة علـــى النفس متمثلة في هيجان الزرع وذبوله، تليها مرحلة أشد من سابقتها وهي مرحلة الاصفرار والاحتضار[1].

ويرد هذا العدول للتركيز على نتيجة الحدث نفسها، من ذلك قولـــه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـــهَ أَنـــزَلَ مِـــنَ السَّـــمَاءِ مَـــاءً فَتُصْـــبِحُ الأَرْضُ مُخْضَـــرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحـــج،٦٣]. وقولـــه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحـــج، ٦٥]، ففـــي الآيتين السابقتين نجد أنه قد عدل عن الماضي "أنزل" و"سخّر" إلى المضـــارع "يمســـك" "فتصـــبح" واختيرت صيغة الماضي في "سخّر لكم ما في الأرض" و"أنـــزل مـــن الســـماء"، وذلك لأن "الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها"[2].

فمحـــل الـــتأمل في الآية الأولى ليس فعل التسخير نفسه وإنما مظاهر هذا الفعل وآثاره، ومن أهمها إمساك السماء بغير عمد.

بينما جاء العدول إلى المضارع (فتصبح) في الآية الثانية "لِتُثَبِّتَ المشهد عند نقطة مهمـــة، ينبغـــي للمتلقي أن يقف عندها ويستحضرها دائماً أمام عينيه"[3]. وفيه دلالة على "بقـــاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باقٍ لم يمض"[4].

---

(1) انظر: التحرير والتنوير، ٢٧/٤٠٥.

(2) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٩٧.

(3) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢١.

(4) المثل السائر، ٢/١٩٨.

ومنظر الخضرة في الأرض يشيع البهجة في النفس ويطمئن النفوس على أرزاقها، لذا جاء التعقيب بقولــه تعالى: ﴿**إن الله لطيف خبير**﴾، فهو لطيف بعباده، خبير بما يصلح أحوالهم.

الصورة الثانية: العدول عن الفعل المضارع إلى الماضي:

ويــرد هذا النوع من العدول في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وفي حين نجد بعــض النحاة يجيز عطف الماضي على المضارع أو العكس، نجد آخرين منهم يذهبون إلــى تــأويل الفعل الماضي في هذه الحالة بالمضارع لينسجم السياق لديهم، فممَّن أجاز العطــف مطلقــاً الرضي في شرح الكافية بقولــه[1]: "ويعطف الماضي على المضارع وبــالعكس، خلافــاً لبعضــهم، قــال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ**﴾ [الأعراف، ١٧٠]، ونحو: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ**﴾ [الحج، ٢٥]".

وممــن ذهــب إلــى التأويل السيوطي (ت ٩١١هــ)[2]، إذ يشترط لصحة عطف الماضــي علــى المضــارع أو العكس، اتحادهما في التأويل، بأن يكون الماضي مستقبل المعــنى ليصــح عطفــه على المضارع، أو المضارع ماضي المعنى ليصح عطفه على الماضــي، فيذهب إلى تأويل الماضي بالمضارع والعكس، وينقل عن السهيلي عدم جواز التعاطف "بين فعل واسم لا يشبهه، ولا فعلين اختلفا في الزمان"[3].

وذهب إلى التأويل أيضاً أبو حيان (ت ٧٥٤هــ) والشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هــ) والفــراء (ت ٢٠٧هــ) وأبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هــ)، فمن ذلك مثلاً قولــه تعالى:

---

(١) شرح الكافية، ٨٧/٣.

(٢) انظر: همع الهوامع، ٢٧١/٥.

(٣) السابق، ٢٧٢/٥.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾ [الكهف، ٤٧-٤٨]، أي؛ ونحشرهم ويعرضون"[١].

ونحو قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤]، أي: فتظل"[٢].

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين -كما سبقت الإشارة إليه- إلى "أن وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبي واحد، يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن، ...، ففي قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود، ٩٨]، فالفعل "يقدم" مفرغ من دلالته على الزمن وكذا الفعل "أورد"، وإنما قصد بالأول استحضار صورة الحدث لا غير، وبالآخر تحقق حصول الحدث"[٣].

ويرى الباحث أنه لا داعي لتأويل الماضي بالمضارع أو العكس، فلو أراد المولى عزوجل أن يرد التعبير بالمضارع أو الماضي لجاء السياق السابق على نحو: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فتظل أعناقهم لها خاضعين"، ولجاء قوله مصوراً حال فرعون يوم القيامة على نحو" سيقدم قومه يوم القيامة فسيوردهم النار وبئس الورد المورود"، وإنما ورد التعبير القرآني على هذا النحو لدلالة مقصودة فلا داعي للتأويل، فالعطف بين الأفعال المختلفة في الأزمنة وإن لم يظهر بين هذه المتعاطفات تناسب لفظي بموجب الصنعة النحوية فإن بينها تناسب معنوي يقتضيه السياق، وهو مبدأ نهجه البلاغيون في بحثهم للوصل والفصل[٤].

---

[١] انظر: البحر المحيط، ١٣٤/٦، وحاشية الشهاب، ١٨٥/٦.

[٢] انظر: التبيان في إعراب القرآن، ٩٩٣/٢، والبحر المحيط، ٥/٧، وحاشية الشهاب، ١٦٤/٧.

[٣] انظر: الزمن واللغة، ٧٢ بتصرف.

[٤] انظر: موضوع الوصل والفصل في: بغية الإيضاح، ٨٥/٢، وشروح التلخيص، ٣/٢-٧٢، والتوجيه البلاغي للقراءات، ٢٤٨.

وقــد عنـــي البلاغيون والمفسرون بالإبانة عن دلالات هذا العدول، فيذكر العلوي صـــاحب الطــراز[1]: "أن إيـــثار الماضـــي والعـــدول إليه يدل على مبالغة في الثوابت والاستقرار".

ولا يســـلم له بهـــذا العموم، وإنما السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، فقد يدل العدول إلى الماضي على الاستقرار كما قال، وقد يدل على غير ذلك من تحقق الفعل أو التقلـــيل والانقطـــاع، وغير ذلك مما يدل عليه السياق ويقتضيه، فمن هذه الدلالات التي يقتضيها السياق:

- الدلالة على سرعة تحقق حصول الفعل وحدوثه.
- الدلالة على أن الفعل سابق للمضارع في التحقق والحصول.
- الدلالة على الاختصاص بوصف ثابت.
- إظهار الرغبة في حصول الفعل.
- إظهار الرغبة في انقطاع الفعل وتغييبه.

مـــن السياقات القرآنية التي يدل العدول فيها إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحدوثه قولـــه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلا مَـــن شَـــاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل، ٨٧]. فقد عدل السياق القرآني عن الفعل المضـــارع "ينفخ" إلى الماضي "ففزع" وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجري على نسق واحد فيكون "فيفزع" لأن الحدث لم يقع بعد، وإنما هو حديث عن المستقبل البعيد وهو يوم القـــيامة، فدل العدول إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحصوله مثل تحقق الماضي فـــي حدوثه، وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل في الزمن الماضي[2] وفيه مزيد من

---

(١) الطراز، ٢/١٤٠.

(٢) انظر: الكشاف، ٣/١٦١.

تأكيد لأمر البعث والنشور ودلالة على السرعة والدهشة والذهول، بدلالة مجيء حرف العطف (الفاء).

والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل هو أسلوب من البلاغة بمكان، يقول ابن الأثير[1]: "والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها".

وأفاد الفعل المضارع "ينفخ" استحضار صورة الحدث من المستقبل البعيد وهو يوم القيامة حتى لكأنها ماثلة أمام الأنظار، فكما أفاد المضارع في سياقات سابقة استحضار صورة الحدث من الماضي السحيق، كذلك أفاد هنا استحضار الصورة من المستقبل البعيد، ويجمع الاستحضارين عنصر الزمن، وهناك فرق بينهما، فاستحضار الماضي استرجاع لزمن قد حدث بالفعل لإفادة تصويره في النفس، واستحضار المستقبل استباق للزمن كون الحدث لم يحصل لإفادة تحقق وقوعه.

ونجد -أيضاً- في هذا السياق أن الفعلين المضارع "ينفخ" والماضي "ففزع" قد استعملا للإخبار عن المستقبل، ولكن تختلف دلالتاهما، فدلالة المضارع في الإخبار عن المستقبل تفيد استحضار صورة الحدث، ودلالة الماضي تفيد تحقق حدوثه وحصوله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * **يَقْدُمُ** قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **فَأَوْرَدَهُمُ** النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود، ٩٦-٩٨].

---

[1] المثل السائر، ١٩٨/٢.

لقـد عـدل السياق عن المضارع "يقدم" إلى الماضي "فأوردهم"، ولو جرى على مقتضى الظاهر لكان على النحو: "سيقدم قومه يوم القيامة وسيوردهم النار"؛ لأن الحديث عن زمن مستقبل وهو يوم القيامة، ومجيء العدول إلى الماضي (فأوردهم) فيه دلالة على القطـع والتأكـيد بوقوع الحدث وحصوله، وصُدِّرَ الفعل بحرف (الفاء) ليدل على سرعة الورود؛ لما في ذلك من التهديد والتخويف.

وهـذا الـنوع من العدول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها، تحمل طابع الدهشـة والمفاجأة، فَفَزَعُ من في السموات والأرض حدث مفاجيء مترتب على النفخ في الصور، وكذلك ورود فرعون وقومه النار يعقب مشهد قدومه لهم إلى ساحة الحشر بذلة وصـغار[1]. ويـرد غالباً في مشاهد البعث والقيامة والحشر؛ لذا أضفى عليها الأسلوب القرآني زمن الماضي في حدوثها لتأكيد تحققها وحصولها[2].

ويرد العدول إلى الماضي للدلالة على أنه سابق للمضارع في التحقق والحصول، مـن ذلـك قولـه تعالى: ﴿وَيَوْمَ **نُسَيِّرُ** الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً **وَحَشَرْنَاهُمْ** فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف، ٤٧].

فقد جيء بـ (حشرناهم) ماضياً بعد (نسير) "للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك"[3].

ومـنه قولـه تعالى: ﴿وَيَوْمَ **نَبْعَثُ** فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ **وَجِئْنَا** بِكَ شَـهِيداً عَلَـى هَـؤُلاء وَنَزَّلْـنَا عَلَـيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ [الـنحل، ٨٩]. جاءت هذه الآية في سياق ذكر بعث الأنبياء والرسل شهداء

---

(١) انظر: الزمن واللغة، ٧٢.

(٢) انظر: من أساليب التعبير القرآني، طالب الزوبعي، ١٥٣.

(٣) انظر: الكشاف، ٢/٤٨٧.

علـــى قومهم، وخصص خاتم الرسل ﷺ بمزيد عناية وتكريم بأن جعله الله عزوجل شهيداً علـــى هذه الأمم كلها، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين[١]، ويدل على هذه العناية أيضاً العـــدول إلـــى الخطـــاب للرسول ﷺ بعد الإخبار عن البعث بالغيبة "وجئنا بك"، والعدول المعجمي عن كلمة البعث إلى المجيء، وفي "إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشـــأنه-ﷺ"[٢]. وفـــيه العدول الذي نحن بصدده عن الفعل المضارع "تبعث" إلى الماضي "جئـــنا"، وفي كل ذلك "إشعار بأفضليته ﷺ على سائر المرسلين، وأفضلية شهادته في هذا الـــيوم علـــى شـــهاداتهم، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهداً قبل بعث هؤلاء الرسل في أممهم شهداء"[٣].

لقد أفاد العدول إلى الماضي في هذا السياق أن الفعل الماضي سابق للمضارع في تحققـــه وحصـــوله، فقولـــه: "وجئنا بك على هؤلاء شهيداً" أي: وجئنا بك شهيداً قبل أن نبعث في كل أمة شهيداً عليهم.

ومنه قولـــه تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة، ٢]، فنجد العدول عن الفعل المضارع الواقع جواباً للشرط "يكونوا ويبسطوا" إلى الماضي "وودّوا".

ويعلـــل الزمخشـــري هذا العدول فيقول[٤]: "والماضي وإن كان يجري في جواب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفـــركم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل

---

[١] انظر: تفسير أبي السعود، ١٣٥/٥، وروح المعاني، ٢١٣/١٤.

[٢] تفسير أبي السعود، ١٣٥/٥.

[٣] أسلوب الالتفات، ص ١٠٠.

[٤] الكشاف، ٩٠/٤.

الأنفس، وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً، وردُكم كفاراً أسبق المضار عندهم؛ لعلمهم أن الديــن أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه".

وقــد بيــن الزمخشري في هذا السياق نكتة العدول من زاوية النظر إلى عنصر الزمن، وذلك من كون الماضي أسبق في الحصول من المضارع، ونجد بالمقابل السكاكي (ت ٦٢٦هـــ) وأبا السعود (ت ٩٥١هـــ) وغيرهما يفسرون هذا العدول من زاوية النظر إلــى الحــدث، فالماضــي يدل على تحقق الحدث وحصوله لا محالة، يقول السكاكي[١]: "وترك يود إلى لفظ الماضي؛ إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم -أي يثقفوهم- أعداء لهم، وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم".

ويفــيد حرف الشرط (إنْ) الداخل على الفعل المضارع "يثقفوكم" الشك في وقوع الحــدث، فظفــر الكفار بالمسلمين ليس مؤكداً فهو متوقف على مدى تمسكهم بدينهم قوة وضــعفا، وهــذا يختلف من حال إلى حال، في حين أن ودادة أعدائهم كفرهم أمر محقق وحاصــل في كل حال، سواء قبل الظفر بهم أم بعده، فليس متعلقاً بالشرط ومترتباً عليه، فــدل العدول إلى الماضي على تحققه في الحدوث وحصوله سابقاً للشرط والجواب، ولو جاء مضارعاً لأوهم تعلقه بالشرط، فيكون وُدُّ أعدائهم كفرهم أمراً حاصلاً بعد الظفر بهم لا غــير، يقول أبو السعود[٢]: "ووَدّوا لو تكفرون" أي: تمنوا ارتدادكم، وصيغة الماضي للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً".

ونجد أن الآية السابقة لهذه الآية وهي قولــه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَــدُوِّي وَعَدُوَّكُــمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ

---

(١) مفتاح العلوم، ٢٤٠.

(٢) تفسير أبي السعود، ٢٣٦/٨.

الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة، ١]. جاء التعبير فيها عما قد يصدر من المسلمين من ودٍ للكفار بصيغة الفعل المضارع "تلقون إليهم بالمودة"، و"تسرون إليهم بالمودة" وذلك في سياق نهي المؤمنين عن فعل ذلك، في حين ورد التعبير عما يوده الكفار للمؤمنين من ارتداد عن دينهم بالفعل الماضي "وودّوا لو تكفرون" وفي ذلك "إبراز للمفارقة أو البون الشاسع بين ما قد يصدر من المسلمين من موالاة هؤلاء، وما يضمره الكفار لهم من ضغينة وحسد"[١]. وذلك أن دلالة المضارع تفيد التجدد، في حين أن الماضي "وودّوا لو تكفرون" أفاد التحقق والرسوخ -كما أوضحنا سابقاً- فكأن السياق القرآني يخاطب المسلمين قائلاً لهم: إنه مهما تجددت هذه المودة من قبلكم واستمرت لهؤلاء الكفار سراً أو علانية، فإنها لن تغير ما استقر في قلوبهم ونفوسهم من كراهيتكم ورغبتهم في ارتدادكم عن دينكم الذي تنعمون به دونهم.

ويرد العدول إلى الماضي للدلالة على الاختصاص بوصف ثابت من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٠].

فالعدول في هذا السياق عن الفعل المضارع "يمسكون" إلى الماضي "أقاموا" فيه دلالة على "أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها"[٢].

---

[١] انظر: أسلوب الالتفات، ص ١٠٠.

[٢] تفسير أبي السعود، ٢٨٨/٣.

ومعنى هذا أن التعبير بالمضارع قد دلّ على "استمرار استمساكهم بكتاب الله وتجدده، كلما عنّ لهم في حياتهم أمر يهرعون إليه طلباً لهدايته وتطبيقاً لمنهجه، أما الصلاة فإنها لما "كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" عبر عن إقامتها بالفعل الماضي للدلالة على ثباتها، حتى صارت إقامتها على وجهها في وقتها صفة لهم"[1].

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها العدول إلى الماضي للدلالة على إظهار الرغبة في حصول الفعل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة، ٢١٥].

لقد حصل العدول عن المضارع "ينفقون" إلى الماضي "أنفقتم". ولو جرى السياق على مقتضى الظاهر لكان "يسألونك ماذا ينفقون، قل ما تنفقون ..." لأن الجواب جاء بأسلوب الشرط، والشرط يقتضي الاستقبال، والنحاة يؤولون فعل الشرط الماضي بالاستقبال[2]. "ولكن القصد من مجيء الشرط ماضياً وإن كان معناه الاستقبال، هو إنزال غير المتيقن منزلة المتيقن، وغير الواقع منزلة الواقع"[3].

يقول ابن جني[4]: "وكذلك قولهم: (إن قمتَ قمتُ) فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معني المضارع، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لا أنه متوقع مترقب".

---

(١) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ١٨٤

(٢) انظر: التصريح، ٢/٢٤٩، وحاشية الخضري، ٢/١٢٢، وحاشية الصبان، ٤/١٦.

(٣) معاني النحو، ٤/٥٦.

(٤) الخصائص، ٣/١٠٥.

ومما سبق ذكره يتضح لنا سر العدول إلى الفعل الماضي في الشرط، في قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم﴾ وإن كان مستقبلاً في معناه، وذلك لإظهار الرغبة في حصوله وحثهم على فعله، فكأنه حاصل منهم متقرر، متجاوزاً مسافة الزمن في ذلك ليشد الانتباه إلى حقيقة الحدث نفسه وهو الإنفاق، مشيراً إلى وجوه مصارفه الحقة، ليصرف عن النفس أدنى تردد أو شُحٌّ في الإنفاق والعطاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة، ١٥٩-١٦٠].

نزلت هذه الآية في أحبار اليهود[١] الذين كتموا ما في التوراة من صفات الرسول ﷺ، ودينه الخاتم، ودلائل صدق نبوته.

وقد حصل العدول في الآية الكريمة عن الفعل المضارع الواقع في جملة الصلة (الذين يكتمون) إلى الماضي الصلة (الذين تابوا)، وما عطف عليه (وأصلحوا)، و(بيّنوا)، ولو جاء السياق على أصله في مقتضى الظاهر لكان (إلا الذين يتوبون ويصلحون، ...) فيأتي فعلاً مضارعاً دالاً على الاستقبال[٢]، لا سيما أن قوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا﴾ يراد به الاستقبال؛ "لأن (يكتمون) فعل مضارع وهذا بعده، فالتوبة بعد الكتمان"[٣].

---

[١] انظر في أسباب نزول ذلك: تفسير أبي السعود، ١/١٨٢، وروح المعاني، ٢/٢٦-٢٧، والتحرير والتنوير، ٢/٦٥.

[٢] الفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال وهو ما نص عليه جمهرة من النحاة من ذلك ما ذكره المبرد في المقتضب ٢/٢، "تقول: زيد يأكل" فيصلح أن يكون في حال أكل، وأن يأكل في ما يستقبل"، وجاء في المفصل ٢/١٣٧: "ويشرك فيه الحاضر والمستقبل والذي يحدد كونه للحال أو الاستقبال قرينة السياق.

[٣] معاني النحو، ٣/٣١٦.

والذي يظهر لي -والله أعلم- أن مجيء العدول إلى الفعل الماضي في هذا السياق أفـــاد الحث على التوبة والحض على الإصلاح والتبيين، فالماضي يدل على تحقق وقوع الفعـــل وحصوله، وكأنه يخبر عن توبة قد حصلت منهم وإصلاح قد كان، أو هكذا ينبغي أن يكون.

وأمـــا التعبـــير بالفعل المضارع "يكتمون" فيرى ابن عاشور[1]: "أنه للدلالة على أنهـــم -أي: علمـــاء الـــيهود- فـــي الحـــال كـــاتمون للبيّـــنات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضـــي لـــتوهم الســـامع أن المعنِيَّ به قوم مضوا، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين".

ويـــرى الباحث أن دلالة الفعل "يكتمون" تتجاوز دلالة الحال إلى دلالة الاستمرار، فالكـــتمان للبينات والهدى حاصل منهم حال نزول القرآن، ويتجدد ذلك منهم ويستمر إلى قيام الساعة، فكتمان الحق صفة فيهم على الدوام.

وإذا كـــان العـــدول عن المضارع إلى الماضي في السياقات السابقة قد دل على الرغبة في حصول الحدث وتحققه، فإنه قد يرد في سياقات أخرى ليدل على النقيض وهو الرغبة في الانصراف عن الفعل وتركه، وهذا يدل على أن السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة للعدول، من ذلك قولـــه تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان، ١٢].

---

[1] التحرير والتنوير، ٢/٦٦.

سبقت الإشارة في هذا البحث أن فعل الشرط إذا جاء ماضياً، وحقه أن يأتي مضارعاً كما هو الأصل اللغوي، فإنه يدل على تحقق الحدث وحصوله، وقد يرد ماضياً لأسباب أخرى كالتفاؤل أو لإظهار الرغبة في وقوعه -كما سلف ذكره- "أو للدلالة على حصول الحدث مرة واحدة، في حين أن المضارع قد يفيد تكرار الحدث وتجدده"(١).

وكل الدلالات السابقة قد يقبلها الفعل ولكن السياق -كما أسلفنا- هو الذي يحدد الدلالة المناسبة للعدول إلى الماضي، فقد ذكرنا في سياق سابق أن العدول إلى الماضي "أنفقتم" في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة، ٢١٥] قد أفاد الرغبة في هذا الإنفاق فأتى به ماضياً وإن كان مستقبلاً في المعنى، في حين دل المضارع السابق له في السياق نفسه "يسألونك ماذا ينفقون" على التجدد والاستمرار في النفقة، فأراد المولى -عز وجل- الرغبة عند المكلفين في تحقق الحدث وحصوله على صورة التجدد والاستمرار، فنكون بذلك قد جمعنا بين أكثر من دلالة في سياق واحد إذا احتملها السياق، وكذلك الحال نفسه في هذه الآية التي نحن بصددها، فيرى فاضل السامرائي أن سر مجيء الفعل (يشكر) بصيغة المضارع، و(كفر) بصيغة الماضي؛ "لأن الشكر يتجدد ويكثر، وليس كذلك الكفر، فإن الكفر يحصل ابتداء ويبقى صاحبه عليه إلا إذا شاء الله، فالشكر عمل يومي متجدد بخلاف الكفر الذي هو الاعتقاد"(٢).

ولكن ما ذهب إليه السامرائي في هذا السياق ينقضه ما ورد في سياقات قرآنية أخرى، من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة، ١٢١].

---

(١) معاني النحو، ٥٨/٤.

(٢) معاني النحو، ٥٨/٤.

وقولــه تعالى: ﴿وَمَن **يَكْفُرْ** بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[آل عمران، ١٩]، وقولـــــه تعـــالى: ﴿وَمَن **يَكْفُرْ** بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [النساء، ١٣٦]، ومنه قولـــه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ **يَكْفُرُونَ** بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران، ٢١]، وقولـــــه تعـــالى: ﴿إِنَّ الَّذِيــنَ **يَكْفُــرُونَ** بِاللّـــهِ وَرُسُـــلِهِ وَيُــرِيدُونَ أَن يُفَــرِّقُواْ بَيْـــنَ اللّـــهِ وَرُسُـــلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء،،١٥٠].

ففـــي السياقات السابقة وغيرها ورد التعبير عن الكفر بصيغة المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث، خلافاً لزعمه أن الكفر يرد مرة واحدة ولا يتجدد؛ لذا ورد التعبير عنه في سياق الآية بالماضي.

والحقــيقة أن دلالة العدول إلى الماضي ينبغي فهمها من السياق نفسه، وبالمقارنة بالفعل المعدول عنه، مع افتراض بقاء التركيب على أصله ثم النظر إلى البدائل الأسلوبية الحاصــلة فـــي السياق وما أضفته من بعد دلالي جديد، فسياق الآية يذكر الشكر بصيغة المضـــارع (مـــن يشكر) ثم عدل عنه إلى الماضي، بقولـــه: (ومن كفر)، فالسياق سياق ترغيـــب وحـــث على الطاعة والشكر وتنفير من الشرك والكفر، بدليل سياق الآية كله: ﴿وَلَقَــدْ آتَيْـــنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن **يَشْكُرْ** فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن **كَفَرَ** فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان، ١٢].

وجـــاء بعدها على التو: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان، ١٣]، فجاء قولـــه تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَــرَ فَـــإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان، ١٢]، بين أمر ونهي، فهو مسبوق بأمر بالشكر "أَنِ اشْـــكُرْ لِلَّهِ"، وملحوق بنهي "لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ"، فالسياق كله أمر بالإيمان والشكر ونهي عن

الكفـــر والشرك. فدل المضارع في الحالة هذه على التجدد والاستمرار للحث على تجدد الشكر واستمراره، ومحاولة الوصول فيه إلى مرتبة من الكمال والتمام، ثم عدل عن ذلك في التعبير عن الكفر بالماضي "ومن كفر"، تغييباً لحدث الكفر، وعدم التوقف عنده رغبة للانصراف عنه والترك.

قال الرازي (ت ٦٠٦هـ)[١]: "وفي هذه الآية قال في الشكر (ومن يشكر) بصيغة المســـتقبل، وفي الكفران "ومن كفر فإن الله غني حميد"، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد، كقول القائل: من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر[٢]، فنقول: فيه إشارة إلى معنى، وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كـــل وقـــت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران".

---

(١) تفسير الرازي، ٢٥/١٤٦.

(٢) لـــيس كذلك، بل بينهما فرق في المعنى كما سبقت الإشارة إليه في هذا البحث، وهو أن مجيء الشرط ماضياً دلـــيل علـــى الرغبة في تحققه وحصوله، ومجيئه على أصله المضارع شرط مطلق، فقولـــه: من دخل داري فهـــو حـــر، فمـــع دلالة الشرط، فيه مزيد حث وحظ على الدخول، وقولـــه: من يدخل داري فهو حر، شرط محض، وليس فيه مزيد تأكيد على ذلك، وسياق المقام هو الذي يحدد النظم المناسب للكلام.

الصورة الثالثة: العدول عن الماضي إلى الأمر:

ويمثل الفعــل الماضـــي في هذه الحالة (جملة خبرية) في حين يمثل فعل الأمر جملة (إنشـــائية طلبــية)، "والعــدول عن الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي يهدف إلى تحقيق أغــراض بلاغــية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم) والوظيفة الافهامية (المتلقي) كدلالة الرضا بالواقع الصياغي حتى كأنه مطلوب تحقيقه في الواقع بالفعل"[1].

مــن ذلــك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

حصـــل العدول في هذا السياق عن الماضي إلى الأمر (وأقيموا) "ولو جاء السياق على أسلوب واحد، لقال: (أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم)"[2].

فالمستوى السطحي[3]:

أمـــر ← → أقيموا

ماضٍ ← → أمر

والمستوى العميق:

أمــر ← (أمر) بإقامة

ماضٍ ← ماضٍ

---

[1] تحولات البنية في البلاغة العربية، ١٣٢.

[2] الطراز: ١٣٧/٢.

[3] أي: على سطح البنية، وإلا فما جاء على سطح البنية هو العمق في الدلالة نفسها، وإنما هذا الافتراض على مقتضى المطابقة في السياق.

وندرك سر هذا العدول من ارتباط هذه الآية بما قبلها، إذ هي رد على مقولة الكفار التي ذكرها المولى عزوجل بقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وجـــاء الحديث عن الأمر بالقسط بأسلوب خبري، وإن كان متضمناً معنى الإنشاء (أمر ربي بالقسط) إذ معنى ذلك (أقسطوا) ولكنه جاء بأسلوب خبري ولم يأتِ أمراً مباشراً.

فلم يقل: "قل أقسطوا وأقيموا" وذلك للدلالة على أمرين:

الأول: أن فعل الماضي في (أمر ربي بالقسط) يدل على تحقق ذلك الأمر وحصوله، فهو "مــبدأ موغل في القدم، به قام ميزان السموات والأرض، ولذلك أسند الفعل الماضي إلى الذات العلية (ربي)، ليعمق الإحساس بالقدم والتمام، لأن الأمر صدر عن الذات الأزلية"[1].

والثانــي: أن القسط هو ما أمر الله به وشرَعَه، سواء التزموا به أم لم يلتزموا، فلا يغير ذلك من أمره شيئاً، فهو أمر أزلي استقام عليه أمر الكون والحياة، ولو قال: "أقسطوا" لكان الأمر مــوجهاً إليهم على وجه الخصوص، ولم يفد تحققه في الزمن الماضي واستمراره في الحاضر والمستقبل، فالفعل (أمر) فعل سلب منه الزمن، فهو دال على الأمر بالقسط مطلقاً، ثم عدل إلى الأمر (وأقيموا) للدلالة على أنه ما دام أمر الله بالقسط أمراً أزلياً كوناً وشرعاً، فحقكم أن تنفعلوا لأمره الكوني، ومراده الشرعي، فتحققوا معنى القسط في حياتكم بإقامة وجوهكم للصلاة له عند كل مسجد.

وفـــي هـــذا السياق تتوافق البنية العميقة مع البنية السطحية "فالمحافظة على تنفيذ الأمر بالصـــلاة فـــي الحاضر والمستقبل (كما هي دلالة الأمر) تؤدي إلى التمسك بإقرار مبدأ العدل،

---

[1] تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٤.

سواء في التعامل مع المنعم الأعلى عزوجل؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، أو في التعامل مع الناس، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر"(١).

لــذا كان العدول إلى الأمر ليدل على طلب الفعل على سبيل الوجوب ويحمل في طياته الزمــن الحاضــر والمستقبل، وأفاد المتلقين "العناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده"(٢).

ومــن دلالات هــذا العدول الدلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله. من ذلك قولــه تعــالى مخاطــباً بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ* فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت في الزمن الماضي، بقرائن لفظــية: (ولقد علمتم، اعتدوا، فجعلناهم، فقلنا، فجعلنا)، فالزمن المسيطر على السياق هو زمن الماضـــي، ولكن السياق عدل عن الفعل الماضي إلى الأمر بقوله: "كونوا قردة"؛ لأن في الأمر "كونـــوا" شـــداً للانتباه بالتحول الحاصل في السياق؛ مما جعل الأمر مركزاً على بؤرة الحدث الهامـــة وهـــي تحول ذواتهم إلى قردة خاسئين، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله مســـتمداً ذلك من قدرة الآمر عزوجل- القائل للأشياء: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكأن المولى -عزوجل- قد أمر الحدث نفسه أن يكون فكان، فإذا بذواتهم قد انفعلت لهذا الأمر الإلهي على وجه السرعة فانمحت معالم البشرية والإنسانية منهم ليصبحوا مسخاً حقيقياً حاصلاً فيهم، ففي الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحققه لا تكون في الماضي فـــي مـــا لـــو كان السياق على نحو "فجعلناهم قردة خاسئين"؛ لأن الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم، وصدور الأمر منه على وجه السرعة والقوة والجبروت.

---

(١) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٤.

(٢) المثل السائر، ٢/١٩٣.

وهـــذا الســـياق سياق تحول وتغيير، فكما حصل تحول في أشكالهم وذواتهم رافق ذلك تحول في التعبير عن ذلك الحدث، فوافق تحولَ المبنى تحولٌ في المعنى.

قال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ)[١]: "فقلنا لهم "كونوا" أمر من الكون، وليس بأمر حقيقة؛ لأن صـــيرورتهم إلـــى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم؛ لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة بل المـــراد منه سرعة الكون على هذا الوصف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ومجازه أنه لما أراد منهم ذلك صاروا كذلك".

وقد يرد العدول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

يخـــبر الســـياق عن حدث مضى، وكان يقتضي أن يكون "فأماتهم الله ثم أحياهم"، ولكنه عدل عن الماضي إلى الأمر "موتوا"، للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة وقوة شملت جميع المخاطبيـــن فلـــم يـــتخلف عـــنه أحد، وأن الموت قد تلبسهم جميعاً في لحظة واحدة، ولو قال: "فأمـــاتهم" لمـــا كـــان فـــي الماضي دلالة على ذلك، ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب، يقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)[٢]: "فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم"، فإن قلت: ما معنى قوله: فقال لهم موتـــوا قلـــت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحـــد بأمـــر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون".

ثم مثّل الفعل الماضي "فأحياهم" عدولاً عن الأمر إلى الماضي، لدلالة توحي بأن القدرة الإلهـــية هـــي التي أحيت كما أماتت، إذ ليس بمقدور الأموات أن يكونوا أهلاً للخطاب وتوجيه

---

(١) البحر المحيط: ١/٢٤٦.

(٢) الكشاف، ١/٣٧٧-٣٧٨.

الأمــر إلــيهم فــيما لو قال ثم (احيوا) وفيه إشارة إلى مطل الزمن مع التراخي الذي يشي به الحــرف (ثــم) مع فعل الإحياء، حتى يشاهد بعضهم بعضاً لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعاً على النفس وأثراً.

ويــرد العــدول عــن الماضي الذي يمثل جملة خبرية إلى فعل الأمر الذي يمثل جملة إنشــائية بقصد التفريق بين مضمونهما، منه قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

حقــق العــدول عن الماضي (أُحِلَّتْ) الذي هو جملة خبرية إلى الأمر (فاجتنبوا الرجس ...) الذي يمثل جملة إنشائية طلبية دالة التفريق بين الخبر والإنشاء، فالخبر بصيغة الماضي في قوله تعالى: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام" يشير إلى تحقق حصول الحل وتلبسهم به منذ زمن، وفي ذلــك مــزيد فضــل عليهم وامتنان، ثم استثنى مما أحله من الأنعام ما يتلى عليهم فأتى بصيغة المضــارع، وحقه أن يأتي بالماضي لمطابقة السياق فيكون "إلا ما تلي عليكم". فأفاد المضارع هنا الاحتراز؛ أي: ما يتلى عليكم من المحرمات في هذه الآيات وما سيعقبها من محرمات لاحقة لا مــا قد ذكر في آيات سابقة فحسب، ثم عدل عن الإخبار إلى الإنشاء والطلب فقال: "فاجتنوا الرجس من الأوثان"، وفي العدول عن الإخبار إلى الإنشاء، وهما أسلوبان مختلفان من أساليب العــربية إشارة إلى اختلاف مضمونها مبنىً ومعنىً، فالحلال يختلف تماماً عن الحرام وبينهما بــون شاسع، لذلك حسن مجي الأمر بالاجتناب ليكون هذا العدول في الأسلوب لافتاً للنظر إلى الاختلاف بينهما، وأن الرجس من الأوثان وقول الزور لا يدخلان في الحلال.

ولــو جــاء السياق على نسق واحد من الإخبار، فقال: "وأحلت لكم بهيمة الأنعام وحرم علــيكم الرجس من الأوثان وقول الزور"، لما كان فيه من الدلالة المذكورة في المفارقة ما في هذا التعبير.

وازداد الانفتاح الدلالي بإيجاد العلاقة السببية بين الأسلوبين، فكأن السياق القرآني يشير أيضاً إلى أن امتثال أوامر الله -عزوجل- هي سبب في حفظ ما أحله الله، وسبب في بقاء نعمته على العبد، فبينهما علاقة السببية من وجه والمفارقة من وجه آخر.

الصورة الرابعة: العدول عن المضارع إلى الأمر

ويعدل عن المضارع إلى الأمر للدلالة على اختلاف الفعلين، نحو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام وقومه: ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي **أُشْهِدُ** اللّهَ **وَاشْهَدُواْ** أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]. فأتى بالفعل المضارع ابتداء فقال: "أُشْهِدُ الله" ثم عدل عنه إلى فعل الأمر عند مخاطبة قومه فقال: (واشهدوا)، ولم يقل: "وأُشْهِدُكم" فخالف في المطابقة بين الأفعال، على نحو من التباين بين البنية السطحية والعميقة، على النحو التالي:

المستوى السطحي:

أُشْهِدُ	←	اشهدوا
مضارع	←	أمر

المستوى العميق:

أُشْهِدُ	←	أُشْهِدُكُم
مضارع	←	مضارع

لقد تضمن هذا السياق عدولاً عن صيغة المضارع (أشهد الله) إلى صيغة الأمر (واشهدوا)، وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، فإشهاده الله إشهاد صحيح وثابت عن اعتقاد ويقين، وإشهاده إياهم ليس إشهاداً حقيقياً وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي

لإرادتهم[1]، لذا أتى به بصيغة الأمر (واشهدوا) ليشير إلى الهوة الكبيرة بين الطرفين: طرف آمر وحقه أن يطاع وهو (هود) عليه السلام، وطرف آخر مأمور حقير الشأن وهم قوم هود.

ففي الأمر (اشهدوا) دلالة واضحة على البراءة التامة بين الطرفين وعلى التحدي القوي من قبل نبي الله هود لقومه، فأبرز هذا العدول "مواقف الطرفين المتباعدين عن طريق ذكر صيغة المضارع التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته ثم العدول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني وبطلان موقفهم الذليل"[2].

ويرى ابن المنيِّر أنه (ت ٦٨٩هـ)[3]: "يحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر".

وقد يعدل عن المضارع إلى الأمر للدلالة على أن الفعل المضارع يراد به الأمر، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أتى بالفعل المضارع المؤكد (ولنبلونكم) ثم عدل إلى فعل الأمر (وبشر الصابرين)، ولم يقل: (ولنبشرنّ الصابرين) حتى يكون السياق مطرداً على نسق المضارع المؤكد على نحو: (ولنبلونكم ... ولنبشرنّ).

---

[1] انظر: الكشاف، ٢/٢٧٦.

[2] تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٦.

[3] حاشية ابن المنير على الكشاف، ٢/٢٧٦، وانظر: المثل السائر، ٢/١٩٣.

ويـرى الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) أن قوله: (وبشر الصابرين) معطوف على (ولنبلونكم) مـن قبـيل عطف المضمون على المضمون، "أي: الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة، لكن لمن صبر منكم"(١).

وهـذا العطـف بين الإنشاء والخبر هو ما عرف عند الزمخشري بعطف القصة على القصـة، فالزمخشـري لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ، وإنما تطلب المناسبة بين المعاني"(٢).

"فهـو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلي المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبراً وإنشاء على مضمون كلي مثله"(٣).

والـذي يظهر أن قوله تعالى: "ولنبلونكم" فيه معنى إنشائي، هو طلب الصبر منهم على الـبلاء؛ لأن الإخـبار بـذلك مآلـه طلب الصبر على ذلك البلاء، فيكون (بشر) معطوفاً على (لنبلونكم) لما فيه معنى الطلب، "ولكنه عدل عن أن يقال: فاصبروا وأبشروا إلى ما عليه النظم ليكون الخبر المؤكد في (لنبلونكم) مفجراً الرغبة والعزم على الصبر ومقابلة البلاء به"(٤).

ومـنه قـولـه تعالـى: ﴿قَـالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ [مريم: ٤٦].

ففـي هـذه الآية عدول عن الفعل المضارع (أرجمنك) إلى الأمر (واهجرني) ولم يقل: (ولأهجرنك).

---

(١) انظر: روح المعاني، ٢/٢٣.

(٢) انظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ٥٣٣.

(٣) مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، ١٦.

(٤) السابق، ٢٠.

وقد علل الزمخشري وغيره أن فعل الأمر (اهجرني) "معطوف على محذوف يدل عليه لأرجمنك؛ أي: فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع"[1].

فالفعل (لأرجمنك) فيه تهديد ووعيد بإبراهيم -عليه السلام- مضمونه إنشاء، يراد به تحذيره من سب آلهتهم المزعومة، وكأنه يقول: إذا لم تنته فاحذرني.

الصورة الخامسة: العدول عن الأمر إلى الماضي

منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

في هذا السياق القرآني عدولان: عدول عن الماضي (جعلنا) إلى الأمر (اتخذوا)، ثم إلى الماضي (عهدنا)، وذلك على النحو الآتي:

(جعلنا) ← (اتخذوا) ← (عهدنا)

ماض ← أمر ← ماض

ففعل الأمر (اتخذوا) مثل عدولاً عن الأصل السياقي وهو الفعل الماضي (جعلنا)، ثم أصبح يمثل أصلاً سياقياً جديداً للفعل الماضي (عهدنا) فمثل الفعل (عهدنا) عدولاً عن الأمر إلى الماضي.

والعدول عن الماضي (جعلنا) إلى فعل الأمر (اتخذوا) فيه شد لانتباه المتلقي للنص القرآني، وذلك "لتقوية" روابط الاتصال بينه وبين النص؛ لأن السياق القصصي المروي ليس

---

(1) انظر: الكشاف، ٥١١/٢، والمحرر الوجيز، ٣٤/١١، ونظم الدرر، ٢٠٦/١٢، وتفسير أبي السعود، ٢٦٨/٥، ومسالك العطف بين الإنشاء والخبر، ٣٨.

غريــباً عــنه، وإنما يحتوي على أمور تهمه وتتصل به، يجب الحرص عليها وإحياؤها، لتكون مسيرته موصولة بتراث سابقيه"[١].

ويرى الزمخشري[٢] أن هناك فعلاً ماضياً محذوفاً تقديره: "قلنا" قبل فعل الأمر (اتخذوا)، أي: وقلــنا اتخــذوا، وذلك لاطراد الأفعال الماضية في السياق، ولتختفي المخالفة في الأفعال، والحقيقة أن الحذف نفسه على -رأي الزمخشري- قد أظهر فعل الأمر بارزاً في السياق لدلالة مــراده ينبغــي التوقف عندها وفهمها، وهي -كما ذكرنا- مقصود منها شد انتباه المتلقي للعمل بهذا التوجيه الإلهي من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ثم استمر السياق في السرد الحكائي للأحداث الماضية بعد ذلك.

ويحســن التــنويه في هذا السياق إلى قراءة نافع وابن عامر بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) بفتح الخاء، وعلى هذه القراءة ينتفي العدول، إذ يصبح السياق كله سياق سرد ماضٍ، وتمثل كل قراءة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، فورود القراءة بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) تفيد الإخبار عن الأمم السابقة من المؤمنين أنهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

ويــرى ابــن خالويه (ت ٣٧٠هــ)[٣]: "أن الله أمر بذلك المسلمين من هذه الأمة مبتدئاً ففعلوا ما أمروا به فأثنى بذلك عليهم وأخبر به، وأنزله في العرضة الثانية".

فــتكون القراءة بالإخبار عن وقوع الفعل قد تنزلت بعد قراءة الأمر به، وترتبت عليها، فجمع نسق الآية هذين المعنيين بقراءتيه، أي: قال لهم المولى عزوجل: اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى فاتخذوه مصلى.

---

(١) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٢٧.

(٢) انظر: الكشاف، ١/٣١٠.

(٣) الحجة في القراءات السبع، ٨٧.

الصورة السادسة: العدول عن فعل الأمر إلى المضارع

قـد يأتي فعل الأمر ابتداء ثم يعدل عنه إلى الفعل المضارع فيكون في المضارع مزيد حث على تنفيذ هذا الأمر، وذلك من خلال استحضاره مشهد الحدث، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:٧١-٧٢].

فنجد حركة الأفعال في السياق على النحو الآتي[١]:

المستوى السطحي:

أقيموا، واتقوه	←	تحشرون
أمر	←	مضارع

المستوى العميق:

لنسلم، وأن نقيم ونتقيه	←	نحشر (لأنه هو الذي إليه نحشر)
مضارع	←	مضارع

أي: أن البنـية العمـيقة للسياق وفق مطابقة الأزمنة في الأفعال تقتضي أن تكون على نحو:

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة ونتقيه؛ لأنه هو الذي إليه نحشر).

وبذلـك تطـرد الأفعـال على نسق واحد وهو زمن المضارع، إلا أن السياق في بنيته السطحية قد أبرز فعل الأمر (أقيموا، واتقوه) ليجسم معنى الفرض، والوجوب عند ذكر الصلاة والـتقوى، ثـم عدل إلى المضارع (تحشرون) ليفيد الاستحضار الدائم لمشهد الحشر المستقبلي بأهواله الجسام، وجعله متجدداً دائماً أمام عين المتلقي، لكي يقبل بهمة على تنفيذ الأوامر السابقة وهي الإسلام، وإقامة الصلاة، والتقوى[٢].

---

[١] انظر: تحولات البنية في البلاغة، ٣٢٨.

[٢] انظر: السابق، ٣٢٩، والفتوحات الإلهية، ٢/٤٧.

وقد يعدل عن أمر المضارع للدلالة على أن الأمر في معنى الخبر لا الطلب.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ **فَلْيَمْدُدْ** لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً * **وَيَزِيدُ** اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٥-٧٦].

جاء السياق القرآني بفعل الأمر (فليمدد) ثم عدل عنه إلى المضارع (ويزيد) وذلك على النحو الآتي:

المستوى السطحي:

فليمدد	←	ويزيد
أمر	←	مضارع

المستوى العميق:

فليمدد	←	وليزد
أمر	←	أمر

ولو جاء السياق على نسق واحد لكان (فليمدد له الرحمن مدا ... وليزد الله الذين اهتدوا هدى).

ويكون في الفعلين حينئذ معنى الدعاء (فليمدد وليزد)، ولكن السياق خالف بينهما للدلالة على أن فعل الطلب (فليمدد) يراد به الخبر لا الإنشاء.

يقول الزمخشري[١]: "(ويزيد) معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر، تقديره: من كان في الضلالة مدّ أو يمد له الرحمن ويزيد".

---

[١] الكشاف، ٢/٥٢٢، وانظر: تحولات البنية، ١٣٢

وعـــندئذ يصبح السياق مطرداً تقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مدا .. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

فـــيكون الطلب قد وضع موضع الخبر، أي: جيء بالطلب والمراد به الخبر، وإنما عدل به عن أسلوب الخبر إلى الإنشاء الطلبي مبالغة في تأكيد ذلك وحصوله وكأنه أمر واجب تحققه ووقوعه[1].

---

[1] انظر: الكشاف، ٢/٥٢١.

المبحث الثاني

العدول في الأسماء

يبرز العدول في الأسماء جلياً في المخالفة بين الضمائر، والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لا العكس، إذ العدول عن الاسم إلى الضمير بعد ذكر الاسم سابقاً هو ما يقتضيه الاستعمال اللغوي، وقد أرجأنا موضوع العدول في العدد وهو نوع من العدول في الأسماء إلى موضعه المناسب من هذا البحث وهو الفصل الثالث في العدول في التركيب، وكذلك يرد العدول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة بالمخالفة بينها، وهذا النوع من العدول هو ما وجدناه واضحاً في سياق التعبير القرآني، ويمكن تناوله على النحو الآتي:

أولاً: العدول في الضمائر

المقصود بالعدول في الضمائر: "هو العدول عن ضمير أصلي إلى ضمير آخر يغايره في الحضور أو الغيبة ويشترك وإياه في العودة إلى مفسر واحد"[1].

وعرف هذا النوع من العدول عند علماء البلاغة قديماً بالالتفات[2]، وهذا الضرب من العدول، ناتج عن الانتقال في استعمال الضمائر من حضور إلى غيبة أو تكلم، وهكذا، وقد تناول علماء اللغة والبلاغة قديماً هذه الظاهرة بالتحليل والتفسير، فيرى ابن جني أن العدول في

---

(1) انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٦٩، حوليات الجامعة التونسية، ع ٣٢، تونس، ١٩٩١.

(2) انظر: في ذلك: ما ذكره الدكتور محمد بركات أبو علي عن (الالتفات) في كتابيه: دراسات في البلاغة، ١٢٥-١٦٤، والبلاغة العربية في ضوء منهج المتكامل، ص ٧١-٧٦. فقد استقرأ مواطن الالتفات في كتب الإعجاز وعلوم القرآن خاصة (بديع القرآن) و(البرهان) و(الإتقان)، ووجد أن أغلب هذه الآيات ترتبط بالنفس الإنسانية وخلجاتها وتعالج بناء العقيدة الدينية والدعوة إلى التوحيد ونفي الشرك، ووضع الأسس العامة التي يقوم عليها المجتمع، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، ...، والآيات المدنية التي وردت لا تخرج عن هذه التسمية، التي اتصفت بها الآيات المكية، إذ تغلب عليها أن تكون قصيرة ذات وقع معين في الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية، وتشعر بمعنى الجلال والجبروت، [البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، ٧٦، ودراسات في البلاغة، ١٥٨].

الضمائر يحقق وظيفة بلاغية ينبغي الوقوف على مغزاها واستكناه السر الذي يدعوا المتكلم إلى المخالفة بينهما والخروج بها عن مقتضى الظاهر، وانتقد ابن جني الرأي القائل إن هذا العدول ضــرب من الاتساع في العربية، فيقول[1]: "وليس ينبغي، أن يُقْتَصرَ في ذكر علة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب بما عادة توسط أهل النظر أن يفعلوه، وهو قولهم: إن فــيه ضــرباً مــن الاتساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ، هذا ينبغي أن يقال: إذا عَرِيَ الموضع من غرض معتمد، وسر على مثله تنعقد اليد".

وقد بسط مذهبه في توجيه هذه الظاهرة في كتابه المحتسب[2]، ولا شك أن وراء تحويل الخطــاب والعدول في الضمائر مغزى أكثر وجاهة من علة التوسع في اللغة، ورأي ابن جني وجــيه فــي ذلك، وعلى نهجه درج الزمخشري وابن الأثير ومن جاء بعدهم من علماء البلاغة واللغــة، فهــذا ابن الأثير يردد فحوى كلام ابن جني فيقول[3]: "اعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سئلوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب، وعن الخطاب إلى الغيبة، قالوا: كذلك كانت عــادة العــرب في أساليب كلامها، وهذا القول عكاز العميان، كما يقال، ونحن إنما نسأل عن الســبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله، ... إن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضتها، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها؛ ليقاس عليها غيرها، فإنا قــد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه -وهــو ضــد الأول- قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض

---

(1) المحتسب، ١/٢٤٠، ت: محمد عبد القادر عطا.

(2) انظر: السابق، ١/٢٣٩-٢٤١.

(3) المثل السائر، ٢/١٨١-١٨٣.

الموجـب لاسـتعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود".

ولأهميـة هـذا العدول فقد أولاه المفسرون والبلاغيون جهداً من التأمل وإمعان النظر، فجـاؤا بدقـائق المعاني في ذلك، ولطائف التأويل، وهو ما سنعرض لبعض تحليلاتهم في هذا المبحث.

ويُظهر تتبع هذا العدول في السياق القرآني، أن صوره تتفاوت نماذجها من حيث الكثرة والقلة[1]، فبينما تكثر نماذج العدول عن الغيبة إلى الخطاب، والعدول عن الغيبة إلى التكلم، تقل بالمقابل نماذج العدول عن الخطاب إلى الغيبة وعن التكلم إلى الغيبة، وأما العدول عن التكلم إلى الخطاب وعكسه فنادر الوقوع. وهذا التفاوت ربما يهدينا إلى ملحظ أسلوبي يحكم هذه الظاهرة القرآنـية على عمومها وهو أن حديث الخطاب والتكلم فيه شد لانتباه المتلقي إلى تأمل المعاني التـي تتعلق بها مواضع العدول، والتفكير في الأغراض التي تنعقد عليها ترغيباً أو ترهيباً في مقامات الوعد أو الوعيد[2].

وعند تحليل العدول في الضمائر على مستوى البنية العميقة والبنية السطحية من منظور علم اللغة الحديث نجد أن أصل التركيب في بنيته العميقة يكون بإظهار الاسم مرات متعاقبة في النص نفسه، إلا أن البنية العميقة غير ممكنة إلا في حالات نادرة من التأكيد، لذا تقوم مقامها في التعبـير العـادي بنية سطحية يعوض فيها الاسم الظاهر بالضمير اجتناباً للتكرار، وهي حالة تجـانس، اعتباراً إلى أن الضمير لا يماثل الاسم تماماً بل يجانسه في الجنس والعدد، وقد تظهر

---

[1] ورد العـدول عن الغيبة إلى الخطاب (٤١) مرة، وعن الغيبة إلى التكلم (٩٣) مرة، وعن الخطاب إلى الغيبة (٣٨) مـرة، ومـن التكلم إلى الغيبة (١١) مرة، (من دون اعتبار الاسم الظاهر غيبة)، ومن الخطاب إلى التكلم (٣)، ومن التكلم إلى الخطاب مرة واحدة، (من دون الآيات المتشابهة).

[2] التوجيه البلاغي للقراءات، أحمد السعد، ٣٢٣.

في النص بنية سطحية ثانية يعوض فيها الاسم بضمير ثانٍ يغاير الضمير الأصلي في الحضور أو الغيبة، وفي هذه البنية يتحقق العدول[1].

أي: أن السياق الذي يوجد فيه عدول في الضمائر وهو ما يسمى الالتفات يمثل بنية سطحية شاذة[2] لبنية عميقة تتوحد فيها الضمائر، وهذه البنية تعد سطحية هي الأخرى لبنية أعمق منها يظهر فيها الاسم مرات متعاقبة، وهذا ممكن في حالة التأكيد.

فمثلاً: قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

في هذه الآية ضميران بارزان يعودان على مفسر واحد هو الله عزوجل ، ودل الأول على الغيبة (هو)، والثاني على التكلم (نا)، وهذا البناء يمثل بنية سطحية لبنية عميقة يقتضي فيها السياق توحد الضميرين في الغيبة على نحو:

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج (هو) به نبات كل شي).

وهذا السياق هو الآخر يمثل بنية سطحية لبنية عميقة أخرى ممكنة في حالة التأكيد[3] على نحو:

(والله الذي أنزل من السماء ماء فأخرج الله به نبات كل شيء).

وهذا العدول في الضمائر "يكسر آلية عملية التوصيل؛ لأنه يحدث اهتزازاً في مرجعية الضمير على المستوى السطحي للصياغة، فيتنبه المتلقي ويعيد للضمير استقراره في مستوى البنية العميقة"[4].

---

[1] انظر: الالتفات في القرآن، ١٦٩.

[2] المقصود بالشذوذ الحاصل في هذا السياق هو الخروج عن مقتضى الظاهر للسياق، لا الشذوذ بمعناه اللغوي المعروف، لذا فهو يعد شذوذاً مقصوداً لغاية فنية دلالية.

[3] انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٤٠.

[4] تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٠٦.

ويتيح للمبدع "حرية كبيرة في إضفاء الحيوية على النص، من خلال تعدد زوايا الرؤية والتحولات الدائمة من الذاتية إلى الموضوعية والعكس"[1].

وهو يشكل ست صور على النحو الآتي:

١. العدول عن التكلم إلى الخطاب.

٢. العدول عن التكلم إلى الغيبة.

٣. العدول عن الخطاب إلى التكلم.

٤. العدول عن الخطاب إلى الغيبة.

٥. العدول عن الغيبة إلى التكلم.

٦. العدول عن الغيبة إلى الخطاب.

الصورة الأولى: العدول عن التكلم إلى الخطاب

هــذه الصورة يندر تحققها في لغة الكلام، لأنه لا يتصور أن يكون الشخص الواحد إلا على نحو من أنحاء التجوز–متكلماً ومخاطباً، أو مرسلاً ومستقبلاً في آن واحد"[2].

لذلك لم يرد إلا موضع واحد لهذا العدول في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. فقد جاء بضمير المتكلم ابتداء فقال: "ومالي لا أعــبد الذي فطرني"، ثم عدل عن ذلك إلى ضمير المخاطب، فقال: "وإليه ترجعون"، ومقتضى السياق في المشاكلة بين الضمائر أن يكون على نحو "وإليه أرجع".

---

(١) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٠٦.

(٢) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٨.

وإنمـــا ترك و"إليه أرجع" إلى "وإليه ترجعون" ليفيد التلطف في توجيه قومه، وإعلامهم توحـــد مصـــيره مـــع مصـــائرهم، وتنبـــيههم إلى أنه مثلهم في وجوب عبادة من إليه المرجع والمآل"[1].

الصورة الثانية: العدول عن التكلم إلى الغيبة

ويـــرد هذا النوع من العدول لدلالات عديدة، من ذلك دلالة التفريق بين ما هو محسوس مشـــاهد وما ليس بمحسوس، نحو قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا** فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ **وَجَعَلْنَا** فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * **وَجَعَلْنَا** السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ **الَّذِي** خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١-٣٣].

إذ جـــاء الســـياق فـــي معظمـــه بضمير التكلم (جعلنا في ... الأرض فيها ... وجعلنا الســـماء...) ثم عدل إلى الغيبة فقال: (وهو الذي خلق ...) وقد صاحب هذا العدول في الضمير عـــدول معجمـــي تمـــثل في إيثار الفعل (خلق) على الفعل (جعل) فما العلاقة بين هذا العدول المعجمي والعدول عن ضمير التكلم إلى الغيبة؟

وللإجابـــة عـــن ذلك يجب أن نعرف الفرق الدلالي بين الفعلين (جعل) و(خلق). يرى الراغـــب الأصفهاني[2]: أن الفعل (خلق) يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سابق له ولا نظـــير، بينما الفعل (جعل) يراد به التصيير والنقل من حالة إلى حالة، وعليه فإن مرحلة الخلق سابقة لمرحلة الجعل، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ [النحل: ٨١].

وهـــذان الفعـــلان (جعـــل) و(خلق) كثيراً ما يردان في سياق ذكر مشاهد الكون وآياته وإبـــراز قـــدرة الخالق عزوجل، وبتأمل هذه السياقات القرآنية نجد أن هذه المشاهد والآيات إذا

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣/٣١٦.

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ٩٤، ١٥٧.

وردت مــع الفعــل (جعل) فإن الجانب المحسوس، أو الشكل الماثل فيها يكون هو محل التأمل والاعتــبار، أمـــا عند ورودها مع الفعل (خلق) فليس هذا الجانب المحسوس محل العبرة بل ما وراء تكوينه من لطيف الحكمة وخفي التدبير(١).

فمع الفعل (جعل) كان لفت الأنظار إلى المشاهد المحسوسة في الكون من شموخ الجبال وســعة الطــرق، وارتفاع السماء، أما مع الفعل (خلق) فلم تكن المشاهد المحسوسة هي محل الــتأمل فـــي خلــق اللــيل والنهار من نور أو ظلمة، وإنما كان التركيز على غير المحسوس والمشــاهد من شأن القدرة العجيبة التي يتعاقب بها الليل والنهار، وهنا يظهر التناسب المعنوي فـــي العدول المعجمي في الأفعال مع العدول في الضمائر. فسر العدول عن ضمير المتكلم في الفعــل (جعلــنا) إلـــى ضمير الغيبة في (خلق) هو "ملاءمة طريق التكلم (وهو قرين الحضور والمشــاهدة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، وملاءمة طريق الغيبة، (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة"(٢).

ومــن دلالات هذا العدول التفريق بين الوعيد والإخبار المحض نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِيــنَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦-٥٧].

نجــد أن المولـــى -عزوجل- قد عدل في هذا السياق عن ضمير المتكلم (فأعذبهم) إلى ضـــمير الغيــبة (فيوفــيهم)، ومقتضى السياق في مطابقة الضمائر أن يكون (وأما الذين آمنوا وعملــوا الصالحات فأوفيهم أجورهم)، وقد حاول أبو حيان تعليل ذلك فقال(٣): "وفي الآية قبلها قال: (فأعذبهم) أسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وذلك ليطابق قوله (فأحكم بينكم) [آية: ٥٥]

---

(١) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٣٩.

(٢) السابق، ١٤١.

(٣) البحر المحيط، ٢/٤٧٥.

وفي هذه الآية قال: (فيوفيهم)، بالياء على قراءة حفص ورويس، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة".

وما ذهب إليه أبو حيان في تعليله غير واضح، فهو لم يشرح المقصود بتنوع الفصاحة، ولم يذكر لنا الدلالة التي اقتضاها العدول هنا، والذي يظهر أن السياق لما كان فيه إشارة إلى شدة التخويف والتهديد للكفار ناسب ذلك حديث المولى عن نفسه بضمير المتكلم إمعاناً في التنكيل بهم والتفرغ لهم، فهو لا يريد الإخبار عن عذابهم فحسب، إنما يريد مع الإخبار الوعيد والتهديد، ثم عدل في الحديث عن جزاء المؤمنين إلى الغيبة على سبيل الإخبار فحسب، وليخالف بين الجزاءين في المبنى والمعنى.

ويرد هذا العدول أيضاً للدلالة على التعظيم والإجلال، نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١٧-١٩].

إذا أسند الفعل (نقذف) إلى ضمير المتكلم ثم عدل عنه إلى ضمير الغيبة (وله) ولم يقل (ولنا)، وذلك أن قذف الحق على الباطل يحتاج إلى قوة لدمغ الباطل وإزهاقه يناسبه الحضور في إسناد الفعل للدلالة على قوة الفعل، ثم كان العدول إلى ضمير الغيبة في ذكر ملكه للسموات والأرض، فقال: (وله من السموات والأرض) لما في التغييب من معنى التعظيم والإجلال.

الصورة الثالثة: العدول عن الخطاب إلى التكلم

وهذا النوع من العدول نادر وقوعه في القرآن الكريم، وقد سبقت الإشارة إلى سبب ذلك، ومنه قوله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وقولـــــه تعالى على لسان نبيه صالح مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَـيْرُهُ هُــوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ففي الآيتين عدل عن الخطاب في قوله: (استغفروا ربكم ثم توبوا)، وقوله: (فاستغفروه ثــم توبوا إليه) إلى التكلم في قوله (إن ربي) ومقتضى المطابقة في الضمائر أن ترد في السياق على نسق واحد من الخطاب فيكون (إن ربكم رحيم ودود) و(إن ربكم قريب مجيب)، لكنه عدل عن ذلك إلى ضمير المتكلم (إن ربي رحيم ودود) و(إن ربي قريب مجيب)، وهذا العدول يشير إلـــى "عظمة ذي الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه سبحانه بتلك الصفات، ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل: (إن ربكم رحيم ودود)، و(إن ربكم قريب مجيب)"[1].

الصورة الرابعة: العدول عن الخطاب إلى الغيبة

يكــون العدول عن الخطاب إلى الغيبة "لتحقيق مزية ما كان استئناف الخطاب في حالة الحضور، أي استمراره بضمير المخاطب ليحققها"[2].

نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَــذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

جــاء الكـــلام في مستهل هذه الآية موجهاً إلى المخاطبين الحاضرين (حتى إذا كنتم في الفلك) ثم عدل عن الخطاب فجأة إلى الغيبة "لهم -فرحوا-جاءهم-وظنوا- أنهم- لهم - دعوا"، ولو اطرد نسق الخطاب لجاء على النحو الآتي:

---

[1] علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، بسيوني، فيود، ١/٢٣٥.

[2] جمالــيات الالــتفات، عزالدين إسماعيل، ضمن "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، أبحاث ندوة نادي جدة الأدبي، ١٩٨٨، ٨٩٧.

(هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءكم الموج من كل مكان، وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتم الله ..)، لكـــن الخطاب لم يطرد على هذا النحو بل ما لبث أن عدل عن حالة الخطاب إلى حالة الغيبة، وقــد يراد بالعدول إلى الغيبة في هذا السياق التغييب الحسي أو التغييب المعنوي، فأما التغييب الحسي فيظهر من أنهم عندما ركبوا الفلك وجرين بهم أصبحوا غائبين لا مخاطبين.

وأمّا التغييب المعنوي فيظهر من أنهم عند ركوبهم الفلك استحضروا الله وطلبوا معنوته فاستحضرهم في الخطاب، فلما اطمأنوا إلى الريح الطيبة وجريان الفلك بهم غيبوا الله من أنفسهم فغيــبهم إذ لم يعودوا أهلاً للخطاب، وهو ما يتناغم مع دلالة الآية السابقة لهذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * **وَتَقَطَّعُوا** أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٢-٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ **أُمَّتُكُمْ** أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * **فَتَقَطَّعُوا** أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣].

نجــد إقــبال الله عليهم بالخطاب عندما كانوا أمة واحدة، فلما تقطع الأمر بينهم وتشتت كــيانهم واخــتلفوا، غــابوا عــن مشــهد الحــق، وغــاب عنهم المنهج القويم، فانصرف الله -عزوجل- عنهم ولم يعودوا أهلاً للخطاب فغيبهم[1].

وقد حاول الرازي أن يستخلص لهذا النوع من العدول ومقابله -وهو العدول عن الغيبة إلى الخطاب- دلالة عامة تكاد تحكم في نظره حركة التعبير بهما إذ قرر "أن الانتقال في الكلام

[1] انظر: علم المعاني دراسة بلاغية نقدية، بسيوني فيود، ١/٢٣٦.

مـــن لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدل على مزيد التقرب والإكرام، وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة فإنه يدل على المقت والتبعيد"[1].

ولـــيس الأمـــر كما ذكر، لأن دلالة العدول عن الخطاب إلى الغيبة -كغيره من صور العدول- تختلف باختلاف سياقه ومقامه، ولا تقتصر فقط على ما حاول الرازي تقريره، بل إن الموضع الواحد قد تتنوع أغراضه وتتعدد مقاصده باختلاف نظر المتلقين إليه[2].

فكما أن العدول عن الخطاب إلى الغيبة قد يدل في سياقات معينة على المقت والتبعيد - كمـــا هو الحال في آيتي يونس والأنبياء وغيرهما، فإنه قد يدل في سياقات أخرى على دلالات جديـــدة يوحـــي بها السياق، من ذلك دلالته على الثناء والمدح، كما قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

"كأنـــه قـــال لملائكـــته وخـــواص خلقـــه فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون"[3].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧٠-٧١].

فقـــد خاطـــبهم بقوله: (ادخلوا الجنة) وفي هذا الخطاب تشريف للمخاطبين وتكريم لهم، وفـــيه إعـــلام لهـــم ولغيرهم أن دخولهم الجنة كان بإذنه ومحض فضله ورحمته، ثم عدل عن الخطـــاب إلى الغيبة مخبراً عن عظيم جزائهم وثوابهم في الجنة، فقال: (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ..).

---

[1] التفسير الكبير، ٧٢/١٧.

[2] انظر: التوجه البلاغي للقراءات، ٣٣١.

[3] الكشاف، ٢٢٤/٣.

وفي الإخبار إشعار بتلبسهم بالنعيم وتقلبهم فيه، فكأنه حاصل وهو يخبر عنه. ولو استمر السياق على نسق الخطاب، قال: (يطاف عليكم بصحاف من ذهب ...) لأفاد ذلك أنهم لحظة الخطاب وُعِدُوا وبُشّروا بالنعيم ولمّا يتلبسوا به بعد، ثم في العدول إلى الغيبة أيضاً إشعار بالتعظيم فكأن المولى -عزوجل- يذكر حالهم لغيرهم من ملائكته وسائر خلقه مبيناً ما هم فيه من النعيم على سبيل التفخيم والتعظيم متضمناً ذلك الدعوة إلى التأسي بهم.

ويدل على العموم فيكون في الغيبة معنى العموم نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٣٨].

لقد توجه الخطاب بداية إلى المؤمنين الذين خاضوا مع النبي ﷺ غزوة أحد تسلية لنفوسهم مما حل بهم من جروح وقروح، ثم نبههم إلى أن ما حصل لهم هو ضمن سنن الله في الكون ، وهذه السنن في النصر والهزيمة ليست خاصة بهم وإنما هي لعموم الناس، فمن أخذ بها حقق مقومات النصر، ومن تخلف عنها مني بالهزيمة؛ لذا ناسب أن ينتقل السياق الكريم من خطاب المؤمنين إلى عموم الناس أجمعين، ومن جملتهم المؤمنون، وذلك بأسلوب الغيبة ليندرج فيه كل إنسان ذي عقل يتبين به سنن الله الثابتة في البشر وطرائقه المحكمة في الهزائم والظفر حين قال: (هذا بيان للناس)[١].

ويرد هذا العدول للدلالة "على التشهير والنداء حتى كأن المتكلم بهذا الالتفات يخيل أنه يحكي هذا الأمر الهام ويرويه لكل عاقل ليستنكره ويستقبحه"[٢].

---

(١) النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٥٢.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٣٧٢.

نحـو قولـه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠].

لقـد جـاء الخطاب موجهاً للناس (يا أيها الناس -كلوا- لا تتبعوا- إنه لكم- يأمركم- تقولـوا)، ثـم عدل عن الخطاب إلى الغيبة (وإذا قيل لهم). فقوله (لهم) "الضمير للناس وعدل بالخطـاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالتهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون"[١].

ويكثر هذا النوع من العدول في مخاطبة الله أعداء الإسلام "والتعبير يجري فيه الأصل علـى أسـلوب الخطـاب إذ يخاطب الله أعداء الإسلام خطاباً مباشراً، فيه أحياناً تنبيه لفظاعة جرائمهم وإبطال لترهاتهم ودعوة إلى التوبة والغفران، وفيه أحياناً أخرى توبيخ وتقريع وتهديد بسـوء المصـير، وفي كل هذه الحالات يكتسي الخطاب لهجة شديدة صريحة تتناسب والمقام، وفجأة تتحول المواجهة الشديدة إلى تحقير وإذلال وإهانة، وذلك بالإعراض عن مخاطبة الأعداء وبالحديث عنهم بطريق الغيبة وإبعادهم عن مقام الحضور إذ هم ليسوا بأهل للخطاب"[٢].

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٣-٦٥].

فبدأ السياق القرآني بالخطاب على سبيل التهديد والوعيد للكفار وهم على شفير النار، ثم عـدل إلى الإخبار عنهم بضمير الغيبة؛ إهانة لهم وتشهيراً بفضيحتهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة وحكاية حالهم لغيرهم بقصد الاعتبار.

---

[١] الكشاف، ٣٢٨/١.

[٢] انظر: الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٦٠.

الصورة الخامسة: العدول عن الغيبة إلى التكلم

جــرى العــدول عــن الغيبة إلى التكلم في سياقات عديدة، منها بيانه تعالى لقدرته على الصــنع البديع وتعداده لآيات فضله على عباده، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَــانٌ فَقَــالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْــنِ وَأَوْحَــى فِــي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١١-١٢].

لقــد أخــبر المولى -عزوجل- عن نفسه في مطلع هذا السياق القرآني بضمير الغيبة، فقــال: (ثــم استوى)، فقال: (فقضاهن .. وأوحى) ثم عدل عن الغيبة إلى ضمير المتكلم، فقال: (وزينا) وما دام السياق سياق إخبار عن قدرة الله -عزوجل- في الخلق والإبداع، فَلِمَ غاير بين الضــمائر فــي الحديــث نفسه، فأخبر عن نفسه بضمير الغيبة في سياق ذكره خلق السموات والأرض ثم عدل إلى ضمير التكلم عن نفسه عند ذكر تزيين السماء الدنيا بالنجوم؟

يرى ابن الأثير[1]: "أن الفائدة من ذلك أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن الــنجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليس حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى هنا عَدَل به خطــاب الغائــب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد، وفيه تكذيب للفرقة المكذِّبة المعتقدة بطلانه".

وهذا التعليل لابن الأثير ناتج عن ملحظ اعتقادي، فناسب ذلك -في نظره- العدول إلى ضمير المتكلم؛ لأنه أكثر دلالة على التأكيد والإقناع من ضمير الغيبة.

ويرى باحث معاصر[2] تعليلاً آخر لهذا العدول يلمس فيه دلالة معنوية تسري على كثير مــن ســياقات القرآن المشابهة لهذا السياق القرآني، محاولاً بذلك تعليل العدول عن الغيبة إلى

---

(١) المثل السائر، ٢/١٨٦.

(٢) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ١٤٣.

التكلم والعكس، فهو يرى -كما سبقت الإشارة في مبحث العدول عن التكلم إلى الغيبة- أن هذه المغايـرة بين المتكلم والغيبة والعكس تمثل المفارقة بين المحسوس وغير المحسوس، والمشاهد وغير المشاهد، فيرى أن الأفعال في هذا السياق القرآني كلها مسندة إلى الخالق -عزوجل- غير أن "الأفعال السابقة على فعل الزينة (استوى-قال-أوحى ...) هي أفعال غيبية حدثت في الأزل البعيد، ولا سبيل إلى الإقرار بنسبتها إليه سبحانه إلا صدور الإخبار عنها منه تبارك وتعالى - أما فعل الزينة فإنه بآثاره المشاهدة وعجائبه المرئية في صفحة السماء ماثل للحس، جلي للعيان لا يماري في نسبته إلى الخالق عزوجل إلا مكابر لجوج"[1].

فـيكون هذا السياق القرآني قد استدل بالمحسوس المشاهد من مخلوقات الله -عزوجل- على إثبات نسبة ما ليس محسوساً وغير مشاهد إلى الله -عزوجل- وذلك من قبيل قياس الغائب على الحاضر، والخفي المستور على المشاهد المحسوس.

وقد اطرد هذا التعليل في فهم سياقات قرآنية مشابهة لهذا السياق نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

فقد أسند فعل الإرسال إلى ضمير الغيبة، ثم عدل عن ذلك إلى ضمير المتكلم عند إسناد فعلي السوق والإحياء.

لقد ذكر الزمخشري أن سبب هذا العدول[2]: "إنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت وإحـياء الأرض بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه".

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٣.

(٢) الكشاف، ٣/٣٠٢.

ويـــرى محمـــد أبـــو موسى أن سبب ذلك هو إحداث اليقظة "عند هذا المقطع المهم من مقـــاطع المعنى؛ لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق، فناسب أن ينـــتقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة ...، ثم يقول: "فالالتفات هنا يشير إلى أن الله سبحانه يسوق السحاب بذاته العلية، ويقسمه رحمة ورزقاً بيديه ولا يدع لذلك لأحد من خلقه"(١).

وما ذهب إليه الزمخشري وأبو موسى لا يعدو أن يكون تعليلاً يحتاج إلى تعليل، فكما أن سوق السحب وإحياء الأرض مما اختص به الخالق -عزوجل- في الخلق، فكذلك إرسال الرياح وإثارة السحب، فما الذي خص الفعلين الأخيرين في السياق دون الأول، وكما أن سَوق السحب وإحياء الأرض ضرب من قسمة الأرزاق فكذلك الحال في إثارة السحب، فلماذا هذا الاختصاص بالإسناد إلى ضمير المتكلم؟

لعـــل تعليل ذلك راجع -والله اعلم- إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن في هذه المغايرة بيـــن الضمائر من الغيبة إلى التكلم دلالة على التفريق بين ما هو محسوس وغير محسوس من الأحداث والظواهر ففعل إرسال الرياح وإثارة السحب غير مشاهد ولا محسوس، وإنما المشاهد والمحسوس هو فعل سوق السحب وإحياء الأرض الموات مزدانة بالخضرة والجمال(٢).

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُـــوراً * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩]، ففي الآية عدول عن ضمير الغيبة في (أرسل الرياح) إلى ضمير التكلم في (أنزلنا)، والسبب -والله اعلـــم- أن الجانب المحسوس في نعمة إنزال الماء هو محل التأمل والنظر ويؤكد ذلك وصف الماء بكونه (طهوراً)، ومعلوم أن طهارة الماء هي صفة محسوسة فيه(٣).

---

(١) خصائص التراكيب، ١٩٩.

(٢) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٥.

(٣) انظر: السابق، ١٤٦.

لكنـــنا نجد آيات أخرى ورد فيها فعل إنزال الماء مسنداً إلى ضمير الغيبة على غير ما تقـــرر في هذا السياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

وقولـــــه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

ولعــل ذلـــك راجع إلى كون الماء النازل من السماء منه ما هو مشاهد محسوس لحظة نزولـــه فناسبه إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم (أنزلنا) للدلالة على المشاهدة والحضور، ومنه ما تســرب فـــي باطـــن الأرض، وســـلكه الخالق فيها ينابيع فهو سبب خفي مستور يمد الأرض بالخضـــرة والحـــياة، فناســـبه إسناد الفعل فيه إلى ضمير الغيبة (أنزل)، وهذا يلمح إلى تنوع أغراض العدول وتعدد مقاصده باختلاف النظر إليه[1].

ونجـــد أن الســـياق -في هذه الآيات- يشير إلى عظمة المولى -عزوجل- وقدرته في الإيجاد والخلق، فناسب ذلك مجيء التعبير بضمير المتكلم الجمع الدال على التعظيم بعد العدول عن ضمير الغيبة، وسيق هذا التعبير في أكثر هذه الآيات في جمل فعلية ماضية تدل على القدرة المطلقة نحو: "زينا-سقنا- أحيينا- أنزلنا- أخرجنا- أنشرنا-أنبتنا".

ويـــرد هذا العدول في مقام الوعد "بغرض الاهتمام بالمتلقين وزيادة الاعتناء بهم، وذلك بتشريفهم بالتكلم وما يصحبه من الدلالة على وفرة الحب وجزالة الجزاء"[2].

---

(١) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٤٧.

(٢) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ٣٢٩.

نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ [آل عمران: ١٩٤-١٩٥].

فالعدول في هذه الآية عن ضمير الغيبة (فاستجاب لهم ربهم) إلى ضمير التكلم والخطاب في آن واحد "فيه إظهار لكمال الاعتقاد بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب، والمراد تأكيدها ببيان سببها، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء[1].

ويرد في سياق آخر وهو سياق الوعيد ليلقي في نفوس متلقيه علاوة على معنى التعظيم والتفخيم -إحساساً بالتهديد والترهيب، والتخويف من سوء العاقبة[2].

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ * بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

إذ عدل عن الغيبة في قوله (هو) إلى ضمير المتكلم في قوله (سنلقي) وهذا العدول "مشعر بعظم ما يلقى إذ أسند إلى المتكلم بنون العظمة"[3].

ومنه أيضاً قوله تعالى للملائكة المنزلين في بدر مدداً للمؤمنين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

---

(١) تفسير أبي السعود، ٦٣١/١-٦٣٢.

(٢) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات، ٣٣٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، ٧٧/٣.

كان مقتضى سياق النظم في الآية من غير عدول أن يكون (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أنــه معهم ...)، ولكنه عدل عنه إلى أسلوب التكلم اعتناء بشان المعية ومراعاة للمعنى الدقيق للوحـــي، إذ يقتضـــي معنى الوحي قرب الموحي من الموحى إليه، وشعور الموحى إليه بذلك القرب، وذلك يزيد الملائكة قوة إلى قوتهم، فقد كلمهم مولاهم وخالقهم، وخاطبهم خطاب المعتني بهم، وصرح بمعية النصر والتأييد لهم، وذلك كله يحقق الغاية من إنزالهم ويتممها[1].

وقال في هذا السياق (سألقي) بضمير المتكلم المفرد، خلافاً للسياق السابق في سورة آل عمران حيث قال: (سنلقي) بنون الجمع للتعظيم.

والسر في ذلك -والله اعلم- أنه لو قال في هذا السياق (سنلقي) لتطرق الاحتمال إلى أن للملائكــة المخاطبيــن يداً في ذلك، وأنهم مشاركون لله -عزوجل- في فعل الإلقاء بحكم توجيه خطـــاب المولى لهم بضرب الأعناق، والأمر ليس كذلك، فهم خلق من خلق الله لا يملكون من أمر ذلك السر الإلهي شيئاً، وإن كانوا طرفاً من أسبابه[2].

الصورة السادسة: العدول عن الغيبة إلى الخطاب

"الانـــتقال من الغيبة إلى الخطاب هو ارتقاء بأسلوب الكلام إلى المباشرة والمصارحة؛ لإفادة التهديد أو العتاب أو التشريف"[3] والسياق هو الذي يحدد الدلالة المقصودة من ذلك.

فمـــن السياقات القرآنية التي أفاد العدول فيها إلى الخطاب دلالة التهديد والوعيد ما كان خطاباً للكافرين، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ [مريم: ٨٨-٨٩].

---

(١) النظم القرآني في آيات الجهاد، ناصر الخنين، ١٦٣، (بتصرف).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨٢/٩.

(٣) الالتفات في القرآن، الشاذلي، ١٦٢.

"وإنمـــا قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر، بعد قوله: (وقالوا)، وهو خطاب للغائب، لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسُخْطِه، وتنبيهٌ لهم على عِظَم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه، منكراً عليهم، وموبِّخاً لهم"[1].

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥].

لما أخبر عن شنيع أفعالهم عند البيت المحرم من صفير وتصفيق، ناسب الإخبارَ الحديثُ عـــنهم بضمير الغيبة على سبيل الإخبار والحكاية، ثم عدل إلى مخاطبتهم بالعذاب بقوله تعالى: (فذوقوا العذاب) لما في ذلك من مواجهة المتلقين بالتوبيخ والتقريع والدلالة على شدة غضب الله عليهم.

ومـــنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ونلحـــظ أن ورود هـــذا الـــنوع مـــن العدول في سياق التهديد والتقريع قد جاء مدعماً بالأســـلوب الإنشائي تارة وبالجمل الخبرية المؤكدة تارة أخرى. فالمثال السابق من سورة مريم جـــاء العـــدول فـــيه إلى الخطاب جملة خبرية مؤكدة بـــ (لقد)، وفي الموضعين الآخرين ورد العدول إلى الخطاب في أسلوب إنشائي، تمثل في أحدهما بالأمر في قوله (فذوقوا)، وفي الآخر بالاســـتفهام (هل تجزون)، وناسب مجيء الإنشاء غالباً في العدول إلى الخطاب؛ لكون الإنشاء طلباً، والطلب يقتضي الحضور.

وكما أفاد العدول إلى الخطاب في هذه المواضع التهديد والتوبيخ فإنه بالمقابل قد يدل في مواضـــع أخرى على التشريف والتكريم وذلك في سياق خطاب المولى عزوجل للمؤمنين، منه

---

(١) المثل السائر، ١٨٥/٢.

قولــــه تعــالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

إذ بدأ السياق الحديث عنهم بضمير الغيبة واصفاً النعيم الذي هم فيه، والإخبار بالوصف يناسـبه الغيـبة، والسياق يشي بالتفخيم والتعظيم لما هم فيه من النعيم، ثم عدل عن الغيبة إلى خطـابهم قـائلاً: "إن هــذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً" لما في الخطاب من التشريف والتكريم؛ ولأن النعيم نوعان: مادي حسي، ومعنوي نفسي، ولا يكتمل النعيم الحسي إلا باتصاله بالنعيم المعنوي، فكان من كمال تلذذهم بالنعيم تشريفهم بالخطاب من المنعم الكريم.

ومــنه أيضــاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ففــي قولــه: (ويتخذ منكم شهداء) عدول إلى الخطاب للدلالة على تخصيص المؤمنين بالشهادة وتشريفهم بها.

ويرد هذا العدول أيضاً للدلالة على استحضار المخاطب وكمال القرب منه، ويكون هذا في خصوصية خطاب الله عزوجل.

وهــو ما يظهر بوضوح في سورة الفاتحة التي خاض جمهور المفسرين والبلاغيين في تعلــيل ســر العــدول فيها عن الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

إذا جرى السياق في معظمه على الغيبة قال: (رب العالمين، الرحمن الرحيم ..)، فذكر الاسم الظاهر وهو من قبل الغيبة[١]، ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: (إياك نعبد)، وقد تعــددت الآراء في الحديث عن سبب هذا العدول، والذي ترتاح له النفس ويتذوقه الحس أن في

(١) انظر: مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص، ٤٦٢/١، والبحر المحيط، ٢٤/١.

التغييـب نوعـاً من التعظيم والإجلال -كما سبق ذكره- فكان الحديث عن المولى -عزوجل- بالغيـبة أنــه (رب العالميــن، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) وكلها صفات كمال تستوجب التعظـيم له ثم العدول إلى الخطاب عند ذكر العبودية فقال: (إياك نعبد) وذلك لاستحضار كمال قــرب المولــى -عزوجل- من عبده، حتى كأن العبد يرى مولاه ويخاطبه، وتلك أعلى مراتب العبودية وهي الإحسان.

وقــد يعدل عن الغيبة إلى الخطاب لدلالات أخرى غير ما ذكر يتسع لها السياق القرآني بحســب المقام والحال، فمن تلك الدلالات دلالة التلطف في الخطاب ورفع الحرج كما في قوله تعــالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]. ٦٠٦٦٢٨

يقــول السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)[١]: وفي قوله: "(إلا أن تتقوا) التفات من غيبة إلى خطــاب، ولو جرى على سنن الكلام الأول لجاء بالكلام غيبة، وأبدوا للألتفات هنا معنىً حسناً، وذلك أن مولاة الكفار لما كانت مستقبحة لم يواجه عباده بخطاب النهي بل جاء به في كلام أسند الفعــل المنهــي عنه لغيب، ولما كانت المجاملة في الظاهر والمحاسنة جائزة لعذر وهو اتقاء شرهم حسن الإقبال إليهم وخطابهم برفع الحرج عنهم في ذلك".

ومــن تلك الدلالات أيضاً الدلالة على اللوم والعتاب. نحو قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ١-٣].

وقد أبعد الزمخشري النُجْعَةَ في تعليله هذا العدول إذ قال[٢]: "وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كما يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة".

---

[١] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، ٣/١٠٩.
[٢] الكشاف ٤/٢١٨.

ومـــا كان ينبغي للزمخشري أن يقول هذا الكلام في حق رسول الله ﷺ إذ شبهه بالجاني الذي يخاطب بجنايته على سبيل زيادة الإنكار عليه والتوبيخ.

وإنمـــا الســـياق سياق معاتبة ولطف، فانظر كيف غيب نبيه ﷺ عندما وصف عبوسه وتوليه، فقال: (عبس وتولى) فلم يواجهه بقوله: (عبست وتوليت) تحننا بقلب نبيه من أن يخاطب بذلـــك الوصـــف، وإنما أخبر عما وقع فحسب، ثم التفت إليه بالخطاب فقصد بذلك المصارحة اللطيفة باللوم الخفيف والعتاب الرقيق، فقال له: (وما يدريك لعله يزكى) ولو استمر السياق على الغيبة فقال: (وما يدريه لعله يزكي) لأوهم ذلك التغييب المستمر اللوم الشديد لنبيه ﷺ، فتحنّن في تغييبه وتلطف في خطابه.

ثانياً: العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر

يمثل مجيء الضمير الوارد في السياق أصلاً سياقياً يقتضي مبدأ المشاكلة والمطابقة أن يطـــرد الســـياق عليه، لكن المتلقي يفاجأ أحياناً بالعدول المباشر عن الضمير إلى الاسم الظاهر الـــذي يحل محل الضمير في عودته على مفسر واحد، فما السر الدلالي في إحلال الاسم محل الضـــمير مع أن الأصل في مجيء الضمير أن يحل محل الاسم لكون الضمائر تمثل اختصاراً وإيجازاً في التعبير[1] يستغنى بذكرها عن إعادة ذكر الاسم؟

ولمعـــرفة سبب هذا العدول في سياقاته المختلفة ينبغي أن ندرك أولاً الفرق الدلالي بين الاســـم والضـــمير، وهو أن الاسم والضمير كليهما يحمل دلالة إشارية على الشيء الذي يشار إلـــيه، فهما يشتركان في هذا المفهوم العام، ويتميز الاسم على الضمير بأن إشاريته أكثر بروزاً مـــن الضـــمير ووضـــوحاً منه، وذلك "لأن الاسم الظاهر لـــه طبيعة دلالية خاصة ناتجة عن احتفاظه بانعكاسات دلالية من الشيء الذي يشير إليه"[2].

---

(1) انظر: الضمائر في اللغة العربية، محمد عبد الله جبر، ص ١٠٣.

(2) تحولات البنية ٨٢.

"فــإذا كان الضمير يعطي إشارة ذهنية إلى العائد عليه، هذه الإشارة تحضره في النفس، إلا أن قــدراً كبيــراً من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظاً به، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عــنه، لأن الإشــارة تــتولد حــين يقرع اللفظ السمع بجرسه وارتباطاته الدلالية المختلفة جد الاختلاف، والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف[١].

ويــولد هذا العدول دلالات كثيرة "يرجع تأثيرها إلى الخصوصية الدلالية للاسم الظاهر الــذي وضع موضع الضمير، وإلى تأثير السياق الخارجي، والمتلقي الخاص في البنية اللغوية، وإلى تفاعل المتلقي مع التشكيل اللغوي والظروف المحيطة به"[٢].

وترد هذه الدلالات على النحو الآتي:

أ- إنزال الأمر المعنوي منزلة المحسوس في ظهوره وبروزه:

وتبــرز هذه الدلالة حين يوضع اسم الإشارة موضع الضمير، لأن اسم الإشارة "بأصل وضــعه اللغــوي يشــير إلــى شيء محسوس خارجي، والضمير يعود إلى مرجع معنوي أو محســوس، وقد تعمد الصياغة إلى إبراز دلالة التجسيم والتشخيص في الأشياء المعنوية لا عن طريق المجاز والتخييل، ولكن بواسطة التشكيل اللغوي، عن طريق التبادل بين الضمير واسم الإشارة، واستغلال ثنائية الحضور والغياب في دلالة كل منهما"[٣].

وهذا وارد في البيان العربي، من ذلك قول عبد الله بن دمينة[٤]:

قِفِــي قَــبْلَ وَشْــكِ البَـيْنِ يـا ابنَةَ مَالِكِ　　　وَلا تَحْرِمينــــي نَظْــرَةً مِــــنْ جَمَالِـــك
تَعَالَلْــتِ كَـــي أشْــجَى وَمَــا بِـكِ عِلَّـةٌ　　　تُــرِيْدِيْنَ قَتْلِـــي قَـــدْ ظَفِــرتِ بِـــذَلِك

---

[١] خصائص التراكيب ١٩٢-١٩٣.

[٢] تحولات البنية ٨٢.

[٣] تحولات البنية ٨٤.

[٤] حاشية الدسوقي، شروح التلخيص ٤٥٦/١، وانظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ١٥٩/١، ورقم الشاهد (٢٧)، (ولم أجده في ديوان ابن الدمينة بتحقيق أحمد راتب النفاخ).

"فكــان مقتضـــى الظاهر أن يقول: قد ظفرت به؛ لأنه ليس بمحسوس، فعدل إلى (ذلك) إشارة إلى أن قتله قد ظهر ظهور المحسوس"[1].

ومن ذلك في التنزيل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقولـــه تعـالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].

فقـد كــان الأصل الإتيان بالضمير، فيكون في الآية الأولى (هي عقبى ...) وفي الآية الثانـــية (هو ظنكم الذي ظننتم ...) لكنه "عبر باسم الإشارة: (تلك) و(ذلكم) في موضع الضمير للدلالـــة علـــى كمال النعيم وتمام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركاً بـــالحواس، وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس"[2].

ب. الدلالة على العموم:

كمـــا في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم دون عذر. ونجد أن التعبير القرآني قد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر فـــي قولـــه (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) وكان مقتضى السياق أن يكون (فإن الله لا

[1] شرح السعد على التلخيص ضمن شروح التلخيص ١/٤٥٦.

[2] علم المعاني دراسة بلاغية، بسيوني فيود ١/٢٢٦.

يرضـــى عـــنهم) وذلك لأن الآية قد بدأت بالتعبير عن هؤلاء المنافقين بضمير الغيبة في قوله (يحلفـــون- لترضـــوا عنهم- فإن ترضوا عنهم...) وهو عدول يدل على أن عدم رضا الله - عـــزوجل- عـــن هـــؤلاء المنافقين ليس لذواتهم وأشخاصهم، فيكون خاصاً بهم، وإنما لكونهم فاســقين، فهو لا يرضى عن الفاسقين عموماً في أي زمان كانوا وفي أي مكان، فالحكم متعلق بالوصف لا بالذات، فبإمكان هذه الذوات أن تتخلع من هذا الوصف المشين فتدخل في رضوان الله- عزوجل- إذا رجعت إليه وتابت. ولو قال: (فإن الله لا يرضى عنهم) لكان قد أوصد باب التوبة أمامهم مطلقاً.

ومـــنه قـــوله تعالـــى:﴿وَالَّـــذِينَ يُمَسَّـــكُونَ بِالْكِـــتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

"فإنه لم يقل: (إنا لا نضيع أجرهم) وإنما عدل إلى الاسم الظاهر فأفاد فائدتين: **إحداهما:** أن هـــذا الصنف هو من المصلحين. **والأخرى:** أن الأجر لا يختص بهؤلاء الصنف من الناس، وإنما يشمل كل المصلحين فدخل فيه هؤلاء وغيرهم من المصلحين"[1].

فأفـــاد العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في هذا السياق العموم، ولو أتى بالضمير لكان الأجر مخصوصاً بهؤلاء دون غيرهم.

جـــ. إبراز الوصف الذي يفصح عنه الاسم ولا يظهره الضمير:

منه قولـــه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٣-٤].

---

[1] الجملة العربية والمعنى ١٩٢.

أتـــى بالاسم الظاهر في قوله: (وقال الكافرون) ولم يقل: (وقالوا)؛ لما في الاسم الظاهر مـــن وســـمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف، فالذي دعاهم إلى تكذيب الرسول هو كفرهم وعنادهم، فقد بلغوا من الكفر مبلغاً كبيراً حتى قالوا هذا القول(١).

ولو مضى السياق القرآني على نسقه فكان (وقالوا هذا ساحر كذاب...) لما كان في ذلك من وصفهم بالكفر والإنكار عليهم ما في الاسم الظاهر من الدلالة على ذلك.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُـــوَ يُحْيِـــي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

تـــتحدث الآية على لسان الرسول ﷺ وهو يخاطب الناس: "إني رسول الله إليكم" ثم عدل إلـــى الاســـم الظاهر عند دعوتهم إلى الإيمان فقال (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل: "فآمنوا بالله وبي"؛ وذلك لدلالتين: "إحداهما دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها- فهو لا يدعوا الناس ليؤمنوا به لذاته وإنما لكونه رسولاً مبلغاً عن الله عزوجل- وثانيهما: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصـــف به من الصفات المذكورة، من النبوة والأمية، التي هي أكبر دليل على صدقه، وأنه لا يستحق الاتباع لذاته، بل لهذه الخصائص"(٢).

د. رفع الحرج النفسي عن المخاطب بتغييبه بدلاً من مخاطبته:

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيـــنُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَـــكَ وَامْـــرَأَةً مُّؤْمِـــنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ

(١) انظر: الكشاف ٣/٣٦٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/٣١٧.

الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٠].

بـدأ السـياق القرآني بالخطاب للنبي ﷺ بقوله: (أحللنا لك) ثم عدل عن ذلك إلى الاسم الظاهـر النبـي، بقولـه: (إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي) ثم عدل مرة أخرى عن الاسم الظاهر إلى الخطاب فقال: (خالصة لك).

ولـم يجر السياق على نمط واحد من الضمائر فيكون (إنا أحللنا لك أزواجك... وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها خالصة لك...)؟

ويـرى الباحث أن العدول إلى الاسم الظاهر في هذا السياق فيه دلالة نفسية، وهي رفع الحـرج عن النبي ﷺ؛ لأن هذه الخصوصية فيها حرج لنفس الرسول أن يكون هذا خاصاً له دون المسلمين، بل هي أشد من خصوصيته بما زاد عن الأربع زوجات، لأنه زواج بمقابل وهو المهر خلافاً لزواج الهبة الذي هو دون مقابل، فالتحرج منه أشد، لذا ترفق المولى -عزوجل- إذ لـم يخاطـبه بهـذا الحكم مباشرة، فغيبه في الخطاب إذ الاسم الظاهر من قبيل الغيبة فقال (وامـرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها) فجعل اختصاصه بهذا الأمر بمقتضـى مقام النبوة فهو مقام له خصوصيته فلا يكون في صدره أدنى حرج من ذلك[1]. وأكد بذلك بقوله: (لكي لا يكون عليك حرج).

هـ- الدلالة على التفخيم والتعظيم:

نحـو قولـــه تعـالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٦٤].

---

(1) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٣٧.

وجه المولى- عزوجل- الخطاب لرسوله ﷺ فقال: "جاءوك" ثم عدل عن ذلك إلى الاسم الظاهر فقال: "واستغفر لهم الرسول" ولم يقل: "واستغفرت لهم"، فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر "تفخيماً بشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان"[1].

و- الحث على فعل المأمور:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١-٢].

نجد العدول عن ضمير المتكلم (إنا أعطيناك) إلى الاسم الظاهر (فصل لربك) ولم يقل (فصل لنا) وذلك "لأن في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به؛ لأن من يربيك يستحق العبادة، وفيه إزالة الاحتمال أيضاً، لأن قوله: "إنا أعطيناك الكوثر" ليس صريحاً في إفادة الإعطاء من الله، وأيضاً كلمة (إنا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلما التفت بقوله: (فصل لربك) زال هذان الاحتمالان"[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

قال: "ظن المؤمنون"، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم ..." مطابقة لسابقه في قوله: "سمعتوه" وذلك "ليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضٍ أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن"[3].

---

(١) الكشاف، ٥٣٨/١.

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد، ضمن شروح التلخيص، ٤٦٨/١.

(٣) الكشاف، ٥٣/٣.

ويرى ابن المنير أيضاً أن "السر في هذا التعبير هو تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه علـــى أن يذكـــره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك"[1].

ز- الدلالة على القوة والمهابة:

ويـــبرز ذلك في العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر الذي هو لفظ الجلالة (الله) تارة و(الرب) تارةً أخرى.

"والعـــدول عن الضمير إلى الاسم الصريح (الله) راجع إلى ما في اسمه تعالى من قوة الدلالـــة، وفـــي إظهاره بعد الضمير إلقاء للروعة والمهابة في القلوب، باعتباره المعبود الخليق بالعبادة"[2].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولم يقل: (ولنعلم الذين آمنوا) حتى يتفق مع قوله (نداولها) "فعدل عن ضمير العظمة إلى أسلوب الغيبة بإظهار اسمه الكريم الأعظم، وإسناد العلم إليه وحده في هذا المقام؛ تربية للمهابة في قلوب عباده وإلماعاً إلى أن الذي داول الأيام هو العظيم الواحد لحكمة يريدها"[3].

ومـــنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

[1] حاشية الكشاف، ٣/٥٣.

[2] الالتفات في القرآن، الهيثري، ١٦٤.

[3] النظم القرآني في آيات الجهاد، ١٥٧.

فالأصـــل أن يـــرد السياق: "لا تقنطوا من رحمتي" فعدل إلى الاسم الظاهر "إبرازاً للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة"[1].

ومما ورد فيه العدول إلى الاسم الظاهر (الرب) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّــا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣-٦].

إذ عــدل مـــن ضمير المتكلم في قوله: "إنا أنزلناه ... إنا كنا ... من عندنا" إلى الاسم الظاهر في قوله: (رحمة من ربك) "والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين"[2].

وقــد اســتعمل هــذا اللفظ في العدول عن ضمير المتكلم إلى الغيبة مضافاً إلى ضمير الخطــاب العــائد علــى الرســول ﷺ "تعظيماً لشأنه إذ هو مربوب لله، أي مملوك له فهو في رعايــته"[3]. نحــو قولـــــه تعـــالى: ﴿وَإِنَّــا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٣-٢٥].

"فالانـــتقال مـــن تعبيره تعالى بضمير المتكلم إلى الاسم الصريح هو ضرب من العدول اعتمده القرآن لقوة الدلالة المستفادة من اسميه تعالى: الله-الرب"[4].

ثالثاً: العدول في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة

يـــرد اســـم الإشارة ويقصد به "تمييز المسند إليه أكمل تمييز؛ لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديداً ظاهراً وتمييزه تمييزاً تاماً، لذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا

---

(١) علم المعاني، دراسة بلاغية، ٢٣٤.

(٢) الكشاف، ٥٠١/٣.

(٣) الالتفات في القرآن، الشاذلي الهيشري، ١٦٤.

(٤) السابق، ١٦٥.

التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع متميزاً تمام التميز، وذلك عندما يكون معنياً بالحكم الذي يريد إضافته إليه ويرغب في إبرازه وزيادة تأكيده"[1].

ولسنا معنيين في هذا المبحث بتتبع دلالات اسم الإشارة، في السياقات القرآنية بقدر ما نحن معنيون بتفسير ظاهرة العدول في استعمال هذه الأسماء، لمعرفة سر المخالفة بينها في السياق نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣١-٣٢].

فقد أشارت النسوة إلى يوسف باسم الإشارة القريب (هذا) في قولهن: "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم" في حين عدلت امرأة العزيز عن اسم الإشارة القريب إلى الإشارة بالبعد (ذلك) في قولها: (فذلكن الذي لمتنني فيه)، ولم تقل: (فهذا الذي لمتنني فيه). فتطابق إشارتها إشارة النسوة في الصيغة والأداء، وقد تناول البلاغيون دلالة اسم الإشارة بالبعد في قول امرأة العزيز في هذا السياق، ولكنهم تناولوه تناولاً مفرداً دون الإشارة إلى دلالته مقترناً مع اسم الإشارة قبله، فلم يشيروا إلى دلالة العدول في هذا السياق.

ويظهر لنا سبب هذا العدول من معرفة الفرق الدلالي بين الإشارتين، فإشارة النسوة إلى يوسف إشارة قرب، توحي بالقرب والوضوح "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك"، فكانت إشارتهن إلى ما ظهر لهن من حسن يوسف وجماله، وكانت إشارة امرأة العزيز إلى ما هو أبعد من ذلك من حسن خُلُقه ونبل سيرته، فكانت أكثر تعظيماً له منهن وإكباراً.

ونجد الإشارية في هذين الاسمين تحمل دلالة التفضيل، كما نفاضل بين أكبر وكبير، فإذا كان (هذا) اسم إشارة جاء في سياق التعظيم والإكبار (أكبرنه .. قطعن .. قلن .. ما هذا .. إن هذا) وكأن إشارتهن تعني: هو كبير، فإن دلالة اسم الإشارة (ذلكن) أفادت التفضيل على

---

[1] علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، ١/١٠٧.

التفضـيل، وكـأن امرأة العزيز تقول: هو أكبر مما تصورتن، وأكبر مما ظهر لكن من جمال مظهره، وهو جمال مخبره وجوهره.

فجاءت الإشارة الواردة من امرأة العزيز إليه أدق دلالة، وأعمق نظراً، إذ قالت: (فذلكن) علـى سبيل التعظيم والإكبار ليوسف. ودلت المخالفة بين الإشارتين (هذا–فذلكن) على التكامل في صفة الكمال لدى يوسف من ائتلاف حسن الجوهر وجمال المظهر، وسمو الخِلقة والخُلق.

ويبرز العدول في الأسماء الموصولة في المخالفة بينها في الاستعمال. من ذلك العدول عـن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

لم يجر السياق على نمط واحد فيكون (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب الذي يبيتون).

ولكي ندرك سر هذا العدول يجب أن ندرك أولاً الفرق الدلالي في الاستعمال بين (الذي) و(ما)[١].

ويفـرق ابـن القيم (ت ٧٥١هـ) بينهما فيرى أن الفرق بينهما: "أن (ما) اسم مبهم في غاية الإبهام حتى إنها تقع على كل شيء، وتقع على ما ليس بشيء، ألا تراك تقول: إنّ الله يعلّم ما كان وما لم يكن...، وتفارق (الذي) أيضاً في امتناعها عن التثنية والجمع؛ وذلك أيضاً لفرط إبهامها"[٢].

فـأرجع ابـن القـيم الفرق الأساس بين (ما) و(الذي) إلى قضية الإبهام، ومع أن (ما) و(الذي) يشتركان في الإبهام وذلك لأن الأسماء الموصولة كلها من المبهمات إلا أنها تتفاوت في الإبهام، فـ (ما) أشد إبهاماً من (الذي) بل هي في غاية الإبهام كما ذكر ابن القيم.

---

[١] ذكر فاضل السامرائي فروقاً عديدة بين (الذي) و(ما)، انظر: معاني النحو، ١/١٣٧-١٣٨.

[٢] بدائع الفوائد، ١/١٣١.

ويقـول فـي تحليل (ما) تحليلاً صوتياً مدللاً بذلك على فرط إبهامها "فهي لا تخلو من الإبهـام أبـداً، ولذلك كان في لفظها ألف آخرة؛ لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم مشـاكلة لاتسـاع معـناها فـي الأجـناس؛ فإذا أوقعوها على نوع بعينه وخصوا به من يعقل وقصروها عليه، أبدلوا الألف نوناً ساكنة فذهب امتداد الصوت، فصار قصر اللفظ موازناً لقصر المعنى"[١].

ويفهـم من تحليله هذا أن بناء (ما) يوافق استعمالها المتسع، فإن مدة الألف المتسعة في آخـرها، تشـاكل الاتساع في معناها، وأمّا (من) فهي مقيدة بالسكون، لذا كان استعمالها مقيَّداً بالعقلاء[٢]. وأن (من) أصلها (ما) وهو الذي أيدته الدراسات الحديثة فيرى برجشتراسر[٣]: "أن (من) و(ما) أصلهما واحد يعني: "ما" وألحقت بها النون، وهي من العناصر الإشارية أيضاً، وإن لـم توجـد فـي اللغة العربية بين أسماء الإشارة، فتدل (ما) على الأشخاص إذا وقعت مع هذا الحرف اللاحق، وعلى الأشياء إذا وقعت بدونه".

وتتفاوت الأسماء الموصولة (الذي) و(من) و(ما) في التعريف، "فأعرف هذه الأسماء ما كـان مختصـاً ثـم مـا كان مشتركاً، فـ (الذي) أخص من (ما) و(من) فإنه مختص بالمفرد والمذكـر، وكُـلّ مـن (ما) و(من) اسم موصول مشترك في المفرد والمثنى والجمع والتذكير والتأنيث. ومعنى (أخص) أي أنه أكثر تحديداً ووضوحاً من ذينك، فهو على هذا أعرف منهما، لتحديد معناه ووضوحه"[٤].

---

(١) بدائع الفوائد، ١/١٣١.

(٢) انظر: معاني النحو، ١/١٣١.

(٣) التطور النحوي، ٨٦.

(٤) معاني النحو، ١/١٣٨.

ثـــم يليه في الاختصاص (من) فهو أخص من (ما) كما أشار ابن القيم، وبناءً على ذلك يمكنـــنا أن ندرك سبب العدول في الآية السابقة التي نحن بصددها وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَــةٌ فَــإِذَا بَــرَزُواْ مِــنْ عِــندِكَ بَــيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

إذ قال ابتداءً "غير الذي" ثم عدل عن الاسم الموصول (الذي) إلى (ما) فقال: (والله يكتب ما يبيتون). وذلك "لأن أن أحد الموضعين أعرف من الآخر فالذي يقوله أعرف مما يبيتون؛ لأن الأول معلـــوم عـــند المخاطب متفق عليه، بخلاف ما يبيتون فإنه مجهول عنده، إذ هو لا يدري ماذا يبيتون، فجاء للأخص المعلوم بـــ (الذي) والآخر بـــ (ما)"[1].

ويـــرد العـــدول على العكس مما سبق فيعدل عن (الذي) إلى (ما) كما في قوله تعالى: ﴿شَــرَعَ لَكُــم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣].

فأتـــى بـــ (ما) في قوله: "ما وصى به نوحاً"، ثم عدل إلى (الذي)، فقال: "والذي أوحينا إلـــيك"، ولـــم يقل: (وما أوحينا إليك) مع أن كليهما اسم موصول، ثم عاد فقال: "وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى".

والســـبب أن (الـــذي) أخـــص وأعرف من (ما)؛ لأن (ما) مشترك يشترك فيه المذكر والمـــؤنث، والمفـــرد والجمع، والعاقل وغير العاقل، فجاء بـــ (الذي) في الأعرف؛ لأنا نعرف شريعتنا، وعرفنا حدودها ودقائقها، فجاء بالأعرف، بينما لا نعرف على وجه التحديد والتفصيل ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى لا سيما أن كتبهم قد حُرِّفت[2].

---

[1] معاني النحو، ١/١٣٩.

[2] من حديث للدكتور فاضل السامرائي في حلقة تلفزيونية من الشارقة.

المبحث الثالث

العدول عن الاسم إلى الفعل والعكس

نجـد فـي التعبير القرآني كثرة مجيء العدول عن الاسم إلى الفعل والعكس، ويقتضي حسـن المشـاكلة والمطابقة في السياق اللغوي أن يعطف الفعل على الفعل والاسم على الاسم، والعدول عن ذلك بالمخالفة بين الاسم والفعل لـه بعد دلالي يدرك من معرفة الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، وقد تقرر عند علماء اللغة والبلاغة أن "الفعل يدل على التجدد والحدوث، والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر"[١].

وسـبب ذلـك أن الفعل مقيد بالزمن، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقـيد بزمن الحال أو الاستقبال في الغالب، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة، فهو أشمل وأعم وأثبت[٢].

وهـذا مـا قـرره شـيخ البلاغة العربية عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) بقوله[٣]: "فموضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعـل فموضـوعه علـى أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا قلت: "زيد منطلق"، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلاً له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: "زيد طويل"، و"عمرو قصير"، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطـول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تعترض في قولك: "زيد منطلق" لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٦٦/٤.

(٢) انظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي، ٩.

(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق شاكر، ١٧٤.

ذلــك، فإذا قلت: "زيد ها هو ذا ينطلق"، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً، وجعلته يزاوله ويُزَجِّيه، وإن شئت أن تُحِسَّ الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمل هذا البيت:

لا يَأْلَفُ الدِّرهَمُ المضروبُ خِرقَتَنَا لكن يَمُرُّ عَلَيهَا وهو مُنْطَلِقٌ

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: لكن يمر عليها وهو ينطلق، لم يحسن".

وقد استشهد الجرجاني على هذه القاعدة بقول الشاعر النضر بن جُؤيَّة[1]:

قَالَــتْ طَـريفَةُ مـــا تَــبقى دَرَاهِمُـــنا وَمَـــا بـــنا سَـــرَفٌ فِـــيهَا ولا خَـــرَقُ
إنَّـــا إذَا اجتَمَعَـــتْ يَومَـــاً دَرَاهِمُـــنا ظَلَّـــتْ إلـــى طُـــرقِ الخَـــيْرَاتِ تَسْـــتَبقُ
لا يَـــأْلفُ الدِّرْهَـــمُ المضـــرُوبُ خِرقَتَنا[2] لكـــن يَمُـــرُّ عَلَـــيَها وَهْـــوَ مُـــنْطَلِقُ

لقــد مــدح الشاعر قومه بالكرم والعطاء وأن صُرتهم لا تألف الدرهم، فلا يستقر فيها، وإنما يمر عليها منطلقاً في وجوه الخير والإنفاق، وهذا المقام يلائمه مجيء الاسم "منطلق"؛ لأنه يفـيد أن "انطلاق الدراهم من الصُرَّة أمر ثابت دائم لا يتجدَّد، وأن الدراهم ليس لها استقرار ما في الصُرَّة"[3].

"ولــو أتــى به فعلاً فقال: "وهو ينطلق" لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمناً ما"[4]. فكان مجيء الاسم أبلغ في الدلالة على المدح والثناء.

وهذا الفرق الدلالي بين الاسم والفعل، يهدينا إلى معرفة سر العدول عن الاسم إلى الفعل أو العكــس فــي الســياق القرآني، فهو عدول يقتضيه سياق الحال ويكشف عن دلالات بلاغية

---

[1] انظر: معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، ٣٠/٢.

[2] هكــذا "خرقتــنا" فــي دلائل الإعجاز، تحقيق شاكر، ١٧٤، والمذكور في معاهد التنصيص، ٢٠٧/١، وفي شروح التلخيص، "صُرتنا"، انظر: شروح التلخيص، ٣٠/٢.

[3] حاشية الدسوقي، ضمن شروح التلخيص، ٣٠/٢.

[4] علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية، ١٦٦/١.

مقصـــودة، لا كمـــا ذهب إليه بعض النحاة من تأويل الفعل بمعنى الاسم أو العكس؛ حتى يصح عطف أحدهما على الآخر.

يقــول الرضـــي (ت ٦٨٦هـــ) في شرح الكافية: "ومنها أنه يُعطَف الفعل على الاسم والعكــس، إذا كــان في الاسم معنى الفعل، قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ [الأنعام: ٩٦].

علـــى قراءة عاصم، أي: فلق الإصباح، وكذا قوله تعالى: ﴿صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]. أي: يصففن ويقبضن.

قال الشاعر[١]:

"بَاتَ يُعَشِّيها بِعَضْب بَاتِرِ   يَقْصِدُ في أَسْوُقِهَا وَجَائِرِ

أي: ويجور"[٢].

وتأويل الاسم بمعنى الفعل ليصح العطف بينهما تكلف واضح دعى إليه الاهتمام بالشكل على حساب المضمون والدلالة، ولو كان الأمر كما ذكر لما كان للمخالفة بين الاسم والفعل في هذا السياق معنى يذكر.

وفحـــوى هذا القول أنه يسوي في الدلالة بين ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: "صافات ويقبضن" وما هو مفترض وقوعه وهو "يصففن ويقبضن".

فالحكـــيم لا يغاير في كلامه وأسلوبه إلا لدلالة مقصودة، فهو قول لا يقف على أسرار البيان ودقائق المعاني في التعبير لمعرفة الفروق بينها.

---

[١] الشاهد: رجز مجهول القائل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد الثلاثمائة في الخزانة، واستشهد به على أن: "جائر" معطوف على "يقصد" لكونه بمعنى الفعل، أي: يقصد ويجور، انظر: خزانة الأدب، ١٣٩/٥.

[٢] شرح الكافية، الرضي، ٨٦/٣-٨٧، ت: عبدالعال مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠١.

وقد أشرنا إلى أن الفرق الدلالي بين الاسم والفعل يرجع إلى ما ذكره البلاغيون من دلالة الاسم على الثبوت، والفعل على التجدد والحدوث، غير أن هذه الدلالة تظل دلالة عامة تتوالد منها دلالات فرعية خاصة، يحددها السياق الخاص الواردة فيه، فيكشف العدول لنا في الحالة هذه عن دلالات تبرز مظهراً من مظاهر الإعجاز القرآني، ويرد بكثرة في السياقات القرآنية في صور عدة على النحو الآتي:

أولاً: العدول عن اسم الفاعل إلى الفعل والعكس

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ **صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ** مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

الأصل السياقي في هذه الآية هو اسم الفاعل "صافات"، وكان مقتضى السياق بموجب المشاكلة في التعبير أن يماثل بينهما فيكون "صافات وقابضات"، لكن السياق خرج عن المتوقع لدى المتلقي، فعدل عن الاسم إلى الفعل؛ ليولد دلالة جديدة لا يفي بها الاسم لو استمر السياق على نسقه العام دون مخالفة التعبير، فقال: "صافات ويقبضن".

وهنا يوظف التعبير القرآني الفرق الدلالي بين الاسم والفعل أحسن توظيف؛ ليوافق به المقال مقتضى الحال، فيُفَصِّل التركيب المقالي في دلالته الأسلوبية وفق واقع الطير الملموس والمشاهد في الحياة، وذلك أن: "الأصل في الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنها صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح"[1].

---

(1) الكشاف، ٤/١٣٨.

فمـا هـو أصـل ثابت -وهو صف أجنحتها في الهواء- عبر عنه بالاسم للدلالة على الثـبوت والاسـتمرار[١]، وما هو حادث طارئ غير مستمر -وهو قبضها أجنحتها- عبّر عنه بالفعل لدلالته على الحدوث والتجدد.

وهذه الدقة المحكمة في التعبير القرآني تجلي لنا قول المولى عزوجل في وصف كتابه الكريم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ومـنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

لقد جاء التعبير عن الموت بالاسم مؤكداً بلام التوكيد (لميتون)، في حين عبر عن البعث يـوم القـيامة بالفعل المضارع (تبعثون)، وكان مقتضى الظاهر أن يجيء العكس؛ لأن وقوع المـوت أمـر لا يحـتاج إلى تأكيد، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، وإنما وقع الشك لدى الكفار والمشركين في قضية البعث لا الموت، وسبب ذلك أنه "بولغ في تأكيد الموت؛ تنبيهاً للإنسان أن يكـون الموت نصب عينيه، ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه؛ فكأنه أكد جملته ثلاث مرات[٢] لهـذا المعـنى؛ لأن الإنسان في الدنيا يسعى فيها غاية السعي حتى كأنه مخلَّد، ولم تؤكد جملة البعـث إلا بـــ (إنّ)؛ لأنـه أبـرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً ..."[٣].

وفـيه دلالة أخرى وهي أن "الموت هو سكون أو جمود تلائمه صيغة الثبوت، والبعث حركة وحياة تلائمها صيغة الحدوث والتجدد"[٤].

---

[١] وحيثما ورد في القرآن ذكر الطيور ووصف بسط أجنحتها أتي به اسماً، من ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١].

[٢] أي: بـــ (إنّ) واللام، وإيراد الخبر بصيغة الاسم (ميتون) دون صيغة الفعل (تموتون).

[٣] البرهان في علوم القرآن، ٣/٨٨.

[٤] أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٨٠.

وفــي مجــيء المضـــارع في ذكر البعث "تبعثون" استحضار لمشهد البعث وكأنه ماثل للعيان، فهو أعمق أثراً في النفوس وآكد في الوقوع.

وكمــا ورد العــدول في السياقين السابقين عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فإنه يرد أيضاً إلى الفعل الماضي؛ للدلالة على المفارقة بين ما هو أصل بخلقته وما هو طارئ في الخلق والإيجاد، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ [الأنعام: ٩٦].

إذ عــبر عن فلق الإصباح باسم الفاعل فقال: (فالقُ الإصباح) في حين عدل عن الاسم إلى الفعل في التعبير عن الليل فقال: "وَجَعَلَ الليلَ سَكَنَاً".

ومجــيء الاسم هنا يوحي بالقدرة العجيبة على فلق الإصباح، وإخراجه من بين ظلمات الكــون الحالكة، في حين دل العدول إلى الفعل في (وجَعل الليل سكنا) على أن الليل أصل في الخلقــة والإيجــاد قبل فلق الإصباح، وذلك لدلالة الفعل الماضي على حصول ذلك وتحققه في الزمــن الماضــي البعيد، والتقدير: وجعل الليل سكناً من قبل فلق الإصباح، "فالإصباح طارئ، وأمــا اللــيل فهو سكن دائم تنغمر فيه الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع جوانبها كأنه لباس للأرض"[1]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ [النبأ: ١٠].

وهــذا مــا كشف عنه العلم الحديث الآن، فقد "أفاد جميع رواد الفضاء منذ عام ١٩٦١، أنهــم عندما اخترقوا الغلاف الجوي للأرض وجدوا أن القشرة الجوية الكروية المنيرة من هذا الخلاف والتي تواجه الشمس أثناء النهار لا يتعدى سمكها ٢٠٠ كيلو متراً فوق سطح الأرض، وبعــد هــذا الارتفاع تظلم السماء تماماً رغم وجود الشمس التي لا يتشتت ضوءها في الفضاء الكونــي؛ لعدم وجود الذرات والجسيمات الكافية اللازمة لحدوث التشتت، كما تظهر النجوم مع قــرص الشــمس فــي الســماء الحالكة الظلام، "وتبدو الأرض قرصاً منيراً يسبح وسط ظلام

---

[1] الكون والإعجاز العلمي للقرآن، منصور محمد حسب النبي، ٢٠٣.

حالك"[1]. وهو ما أشار إليه القرآن أيضاً في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ أي: أن النهار ينسلخ من الليل الدائم في الفضاء كما ينسلخ جلـد الشـــاة من جسدها، ولهذا فالليل هو الأصل بينما النهار طارئ"[2]. فيكون هذا العدول قد كشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي[3] في القرآن الكريم.

وقد يرد العدول على العكس مما سبق، إذ يعدل التعبير القرآني عن الفعل المضارع إلى اسم الفاعل ليؤدي بذلك دلالات متعددة، منها الدلالة على المفارقة الحسية بين ما هو متجدد في خلقته وما هو ثابت في طبعه، من ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

"فاســتعمل الفعــل مع الحي فقال: (يخرجُ)، واستعمل الاسم مع الميت، فقال: (مخرج)؛ وذلــك لأن أبــرز صفات الحي الحركة والتجدد، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والــتجدد؛ ولأن الميــت فـــي حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات، فقال: "ومخرج الميت من الحي"[4].

وأما مجيء التعبير في سورة آل عمران بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِــنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فسياق آل عمران يتحدث عن التغير والتــبدل والتجدد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَـــاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ

(1) الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ٢٠٣.

(2) المصدر السابق، ٢٠٦.

(3) انظــر هذه الحقيقة العلمية في الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ٢٠٢-٢٠٨، وأسرار الكون في القرآن، داود سلمان السعدي، ١٣٧، والمنظار الهندسي للقرآن، خالد العبيدي، ٧٩٣

(4) التعبير القرآني، ٢٣.

فِــي اللَّيلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

إذ نلحــظ أن الســياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغير والحركة، أما السياق في سورة الأنعام فليس في التبديل والتغيير[١]، وإنما هو في الدلالة علــى قــدرة الله وتفضله على الخلق قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّــتِ وَمُخْــرِجُ الْمَيِّــتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

ويــرد هــذا العــدول أيضاً للدلالة على المفارقة بين ما هو موقوت ودائم كما في قوله تعــالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣]، "فقــد جاء في صدر الآية بالفعل: "ليعذبهم" وجاء بعده الاسم "معذبهم"، وذلك أنه جعل الاستغفار مانعــاً ثابتاً من العذاب، بخلاف بقاء الرسول ﷺ بينهم، فإنه -أي: العذاب-موقوت ببقائه بينهم، فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية"[٢].

ومــن اللافــت للــنظر أنــه عــبر عن استغفارهم بالفعل "يستغفرون" ولم يقل: (وهم مســتغفرون) ليشير بذلك إلى سعة رحمته -عزوجل- لأنه منع عنهم العذاب منعاً باتاً يقيناً بأي اســتغفار يحــدث منهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، في حين أنه لا يهلكهم إلا بتحقق حصول الظلــم وثبوته وصفاً مستقراً فيهم، فقال عزوجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]. فقال: (ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) للدلالة التي ذكرناها[٣].

---

[١] انظر: التعبير القرآني، ٢٣.

[٢] السابق، ٢٦.

[٣] انظر: السابق، ٢٦.

وقـــد يدل هذا النوع من العدول أيضاً على حقيقة علمية تبرز جانباً من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [القصص: ٦١].

إذ استعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا) ثم عدل عنه إلى الاسم مع النهار، فقال: (مبصراً)، ولم يجر السياق على نسق واحد فيكون (والنهار لتبصروا فيه).

وعلــل الزمخشـــري ذلك فقال[1]: "لأنه لو قيل: "لتبصروا فيه" فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: "ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز".

ومـــراد الزمخشـــري هنا أن العلة من العدول إلى الاسم (مبصراً) هو إضفاء نوع من الجمـــال الفني بمجيء المجاز العقلي، ولو قال: "لتبصروا فيه"، فإنَّ هذه الناحية الجمالية تذهب لتصـــبح دالـــة على الحقيقة، وأن مجيء الفعل مع وصف الليل (لتسكنوا فيه) هو على الحقيقة، فـــيكون قد جمع بين الحقيقة والمجاز في تعبير واحد، ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية[2].

ولـــيس الأمـــر كذلك، فالمزية الفنية ليست مقصورة على المجاز فحسب، بل قد تكون الحقيقة أحياناً أبلغ من المجاز، والسياق هو الذي يحدد ذلك، والذي يظهر أن المولى -عزوجل- قـــال: "لتســـكنوا فـــيه" ولم يقل مثلاً: "ساكناً"؛ لأنه يريد أن يمتن على عباده بنعمته وفضله بأن جعلهم هم الساكنون فيه، لا أن الليل نفسه ساكناً، لذلك جاء بقوله (لكم) في قوله: "الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه". ثم قال: "والنهار مبصراً" فأسند الإبصار للنهار؛ لملمحين دلالين هما:

---

(١) الكشاف، ٣/٤٣٤.

(٢) انظر: التعبير القرآني، ٢٧.

الأول: ملمح معنوي، يراد به بيان أن النهار نفسه مبصر، يبصر أعمالنا، ويكون شاهداً علينا بالخير والشر، وخص النهار بالإشهاد على الأعمال؛ لكونه محلاً لحركة المكلفين، لذلك يقول المولى عزوجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

والثاني: ملمح حسي مادي يكشف عن جانب من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، إذ كان المعتقد قديماً لدى علماء الإبصار "أن الإبصار يحدث نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على الجسم فتتم رؤيته"[١]. وقد ثبت علمياً خطأ هذا الاعتقاد بعد تقدم الدراسات التشريحية للعين، وأثبتت هذه الدراسات أن حدوث الإبصار يكون "نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على الجسم، ثم ينعكس ليسقط على العين مرة أخرى، وعملية الانعكاس تتم للون واحد "طول موجي واحد" من ألوان الطيف السبعة المكونة لشعاع الشمس المرئي، ومن ثم فوجود شعاع الشمس أساسي لحدوث عملية الإبصار، فلا يمكن حدوث الإبصار في الظلام لعدم وجود الأطوال الموجية للأشعة المرئية، والتي يمكن للأجسام امتصاص بعضها وعكس الآخر؛ لترى به عند سقوطه على شبكية العين"[٢].

لذا" فالتعبير بكون النهار مبصراً في قوله تعالى: "والنهار مبصراً" إنما المراد به الأشعة المرئية المضيئة للنهار، والتعبير باسم الفاعل "مبصر" يفيد بأن النهار هو مصدر تلك الأشعة"[٣].

ثانياً: العدول عن الفعل إلى اسم المفعول

منه قوله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨-١٩].

---

[١] موسوعة الإشارات العلمية في القرآن والسنة، عبد الباسط الجمل، ٨٦.

[٢] المصدر السابق، ٨٦.

[٣] المصدر السابق، ٨٧.

لقـــد عبر المولى عزوجل عن حال الجبال في التسبيح بالفعل المضارع "يسبحن"، وعدل عـــن ذلك إلى الاسم في ذكر الطير، فقال: "والطير محشورة"، ولم يجر السياق على نسق واحد فيكون (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ... والطير يحشرن)، فيسوي بينهما في الفعلية.

يرى الزمخشري أنه اختير الفعل (يسبحن) على (مسبحات) للدلالة على "حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح"[1]، ثم عدل في وصف الطير إلى الاسم، فقال: "والطير محشورة" وذلك أنه لما "لم يكن في الحشر ما كـــان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به اسماً لا فعلاً، ولو قيل: "وســـخرنا الطير يحشرن، على أن الطير يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله – عزوجل– لكان خلفاً؛ لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة"[2].

فيكون هذا العدول دالاً على المغايرة بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه "فالتسبيح يقع من المخلوقـــات شـــيئاً فشـــيئاً، أما الحشر فيقع من الله جملة واحدة بأمر واحد، إذ يقول للشيء كن فيكون، وكذلك يدل على اجتماع الطير لداود عليه السلام في وقت واحد ساعة تسبيحه، لا أنها تحضر في أوان التسبيح شيئاً فشيئاً، بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه[3]، ولـــو قـــال: "والطير يحشرن"، لدل ذلك على حدوث الحشر شيئاً بعد شيء واستغراقه فترة من الزمن.

ويضفي هذا العدول أيضاً دلالة أخرى إذ يبرز خصوصية النعمة التي أنعم الله بها على داود علـــيه السلام، إذ جعل الجبال تسبح معه والطير محشورة لـــه، ومن شأن الجبال التسبيح

---

(1) الكشاف، ٣/٣٦٤.

(2) المصدر السابق، ٣/٣٦٥.

(3) الإعجاز الصرفي، ١٧٥.

الدائم لكونها تندرج ضمن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

لكن المولى -عزوجل- أراد أن يبرز نعمته على داود بتسبيح الجبال معه على وجه الخصوص، فأتى بالفعل المضارع (يسبحن) مع الجبال للدلالة على "أن التسبيح المقصود من الجبال ليس ذلك التسبيح الدائم، بل هو تسبيح خاص بنبي الله داود يتجدد بتجدد تسبيحه"(١).

ويؤيد ذلك دلالة المعية في الظرف (معه) المقدم على الفعل في قوله (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن)، كذلك "من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل ومن ثم فإن التعبير بصيغة الاسم (محشورة) يفيد أن الطير حين تحشر إلى داود لتتجاوب مع تسبيحه، تفارق طباعها وتثبت في مكانها خاشعة لا تكاد تريم"(٢).

ثالثاً: العدول عن المصدر إلى الفعل

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فقد جاء بالحال مصدراً في قوله "بطراً ورئاء الناس" ثم عدل عن المصدر إلى الفعل فقال: "ويصدون عن سبيل الله"، ولم يقل: "وصادين عن سبيل الله"، فيأتي بالأحوال كلها على نسق واحد من الأسماء، وإنما خالف بينها لدلالة مقصودة، وذلك أن هذه الآية نزلت في جيش قريش الذين خرجوا بزعامة أبي جهل لمقاتلة الرسول ﷺ في بدر، فأشار هذا السياق إلى "أن أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على البطر والرياء، فذكر بلفظ الاسم تنبيهاً على أصالتهما فيهما،

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٠٨.
(٢) المصدر السابق، ١٠٨.

وأمـــا الصـــد فإنمـــا حصـــل في زمان ظهور الرسول ﷺ بالنبوة فذكر بلفظ الفعل الدال على التجدد"[1].

ويـــرد في سياق آخر لدلالة شرعية، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِـــنَاتُ مُهَاجِـــرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

فـــنجد فـــي هذا السياق أنه أتى بالمصدر عند ذكر المؤمنات، فقال: "لا هنّ حِلٌ لهم" ثم عدل عنه إلى الفعل عند ذكر أزواجهن من الكفار فقال: "ولا هم يحلون لهن".

ويـــرى الباحث أن سر استعمال المصدر للإخبار عن المؤمنات بقوله: "لا هنّ حِلٌ لهم" هـــو الدلالـــة علـــى أن المؤمـــنات منذ مفارقتهن لحالة الكفر، ودخولهن في الإسلام، أصبحن محرمات حرمة تأبيد على أزواجهن الكفار الذين ما زالوا على كفرهم؛ لذا ناسب المجيء بالاسم "حـــلٌ" الـــدال علـــى الثبوت والاستمرار، إشارة إلى ثبوت الحرمة واستمرارها، وأما في حق أزواجهـــن فقـــد عدل إلى الفعل، فقال: "ولا هم يحلون لهم" لدلالة الفعل المضارع على الحال والاستقبال، إشارة إلى أنهم لا يحلون لهن حالة كفرهم، فهو تحريم موقوت يزول بزوال كفرهم ودخولهم في الإسلام.

وفـــيه دلالة على أن المسلم لا يرجى رجوعه أو ارتداده عن دينه، وأما الكافر فرجوعه عن كفره ودخوله في الإسلام أمر يرجى حصوله منه في الغالب؛ لأن ما هو عليه باطل، فكان حالـــه فـــي تغير وتجدد، فناسب ذلك مجيء الفعل الدال على التجدد والحدوث والتغير في حق أزواجهنّ الكفار.

---

[1] غرائب القرآن، ٣/٤٠٥.

الفصل الثاني

العدول في حروف المعاني

الفصل الثاني

العدول في حروف المعاني

لحـــروف المعاني دور هام في إبراز مقاصد الكلام وأغراضه إذ "تتوقف دلالات الـــنظم وأســـراره علـــى إدراك مرامـــي الحـــروف"(١)، يقول الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـــ) كاشـــفاً عن أهمية الحروف(٢): "فإنه لما كانت مقاصد كلام العرب على اخـــتلاف صنوفه مبنياً أكثرها على معاني حروفه، صُرفت الهِمَم إلى تحصيلها، ومعرفة جملـــتها وتفصـــيلها، وهـــي مع قلتها، وتيسر الوقوف على جملتها فقد كثر دورها، وبعد غورها، فعزّت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعان إلا لمن يعانيها"

ولهـــا دور هـــام في الكشف عن دقائق المعاني في التركيب وتعالق الكلام بعضه ببعض، وتتوالد الدلالات المختلفة باختلاف الحرف الداخل في تراكيب الكلام، فمثلاً: الفعل (رغب) يتعدى بـــ (إلى) و(في) و(عن) و(الباء) "ومع كل حرف يتعدّى به تتجدد له دلالة غير دلالته مع الحرف الآخر"(٣).

"فـــإذا قـــيل: رغـــب فـــيه وإليه، يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ راغـــبون﴾ وإذا قيل رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٠](٤).

وفي قولـــه تعالى: ﴿وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، يفسر بعض المفسرين الرغبة هنا بما يفيد الظن والبخل.

---

(١) من أسرار حروف الجر، محمد الأمين الخضري، ٧.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، ١٩.

(٣) من أسرار حروف الجر، ٧.

(٤) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ١٩٨.

يقــول ابــن عاشور[1]: "والباء للملابسة، نزّل الظن بالأنفس والحذر من هلاكها منزلة التلبس بها، في شدّة التمكّن".

ومــثله الفعل (سمع) تختلف دلالات التراكيب الواقع فيه هذا الفعل بتعدد واختلاف الحرف المتعلق به، يقول الخطابي[2]: "فإذا قلت: سمعت منه كلاماً، أردت سماعه من فيه، وإذا قلــت: ســمعت عــنه علمــاً، كان ذلك عن بلاغ"، وإذا تعدى بــ (إلى) أفاد حسن الإصغاء، يقول الزمخشري[3]: "فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث، وسمعت إليه يــتحدث وسمعتُ حديثَه وإلى حديثه؟ ثم يقول: المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدّى بــ (إلى) يفيد الإصغاء مع الإدراك".

وممــا سبق ذكره ندرك أن لكل حرف دلالته الخاصة التي يضفيها على التركيب الداخل فيه، فتتغير الدلالة بتغير الحرف، وهذا يدعونا إلى تتبع الفروق الدلالية الدقيقة بين معانــي الحــروف، ورفــض القول بتناوبها لا سيما في كتاب الله عزوجل؛ لأن القرآن الكريم قد استعمل كل حرف لدلالة مقصودة وبدقة تكشف عن روعة الإعجاز والبيان فيه.

وقد انتقد الزمخشري الذين أهملوا النظر في تتبع هذه الفروق في الكتاب العزيز، فقــال[4]: "فــإن قلــت: يجــري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى، أهو من تعاقب الحــرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأن قولك يجري إلى

---

(1) التحرير والتنوير، ١١/٥٦، (بتصرف)، وانظر: القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ٦٣.

(2) بيان إعجاز القرآن، ٣٢.

(3) الكشاف، ٣/٣٣٦.

(4) السابق، ٣/٢٣٧.

أجـــل مسمى، معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى، تريد: يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى".

وقـــد نـــبه الـــزجاج (٣١١هـــ) أيضاً فيما نقله الألوسي عنه إلى خطأ القول بأن حروف المعاني ينوب بعضها عن بعض، فقال[١]: "لا يجوز أن يقال: إن بعض الحروف مـــن حـــروف المعاني بمعنى الآخر، لكن الحرفين قد يتقاربان في الفائدة، فيظن ضعيف العلم باللغة أن معناهما واحد، وليس بذلك".

وذكر ابن الأنباري[٢] أن "الأصل في كل حرف أن لا يدل إلا على ما وضع لـــه، ولا يدل على معنى حرف آخر".

وما يعنينا في بحثنا هذا هو الوقوف على بعض مظاهر هذه الدقائق في المعاني[٣] التي تضفيها الحروف على التراكيب من خلال المخالفة بينها في السياق نفسه.

وهو ما سنعرض له في المبحثين الآتيين:

---

(١) روح المعاني، ١٧٥/٣.

(٢) الإنصاف في مسائل الخلاف، ٤٧٨/٢.

(٣) انظـــر: في حروف المعاني ودلالاتها المختلفة كلاً من الكتب التالية: القرآن الكريم وتفاعل المعاني، دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى، محمد داود، ولطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، فضـــل عـــباس. وتناوب حروف الجر في القرآن، محمد عواد، ومن أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، محمـــد الأمين الخضري، وحروف القرآن، عبدالفتاح لاشين، وزيادة الحروف بين التأييد والمنع، هيفاء فدا، وحـــروف المعانـــي وعلاقتها بالحكم الشرعي، دياب عطا، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، محمود سعد.

المبحث الأول

العدول عن حرف إلى آخر

اللافت للنظر في التعبير القرآني دقته في تناول حروف المعاني والمغايرة بينها، إذ نجده يستعمل الحرف لدلالة مقصودة في السياق ثم يعدل عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه، مما يدعو ذلك إلى التدبر وإعمال الفهم لإدراك ما وراء هذا العدول من مقاصد ودلالات.

ويصعب في هذا المبحث تناول كل مواطن هذا العدول لكثرته وسعته، وتكفي الإشارة إلى بعض صوره ونماذجه وفق التقسيم الآتي:

أولاً: العدول في حروف الجر:

يبرز هذا العدول من خلال المغايرة في حروف الجر في السياق القرآني وذلك بمجيء بعض الأفعال متعدياً بحرف ثم العدول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه، وكذلك المغايرة لهذه الحروف في تعالقها بالأسماء في السياق نفسه.

وهذه المخالفة في تعالق الأسماء والأفعال بالحروف في السياق توحي بدلالات تهمس بها هذه الحروف حيناً وتفصح عنها حيناً آخر، وهي من الدقائق الداعية لإعمال الفكر والفهم العميق في تتبعها ومعرفة سر العدول فيها.

فمن تلك المواطن لهذا النوع من العدول:

١. العدول عن (على) إلى (في):

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فقد ذكر مع الهدى حرف الجر (على)، فقال: (لعلى هدى). ثم عدل عنه إلى (في) مع الضلال فقال: (أو في ضلال)، ولو جرى السياق على نسق واحد لكان (لعلى هدى أو على ضلال مبين).

وقد وقف الزمخشري على سر هذا العدول، فقال[1]: "لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه".

يقول ابن القيم[2] في سياق تفسيره قوله تعالى: ﴿أُولَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]: "في أداة "على" سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: "أولئك على هدى من ربهم"، وقال لرسول الله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩]، والله عزوجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو الحق والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع، فإن قلت: فما الفائدة في ذكر "على" في ذلك أيضاً، وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟ قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة "على" ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة "في" الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[هود: ١١٠]، وتأمل قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي

---

(١) الكشاف، ٣/٢٨٩.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم، جمعة محمد أويس الندوي، ت: محمد حامد الفقي، ١٥-١٦.

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين".

ويضـــاف إلى هذا دلالة السياق وما يفيده من العلو في (لعلى هدى)، فعلو المكانة والمقـــام يستوجب علو الإرادة، ونفاذها واستعلائها على نوازع التسفل والسقوط، بإقبالهم علـــى الهـــدى بمحض اختيارهم، ويفيد انفساح الرؤية أمام أبصارهم فيدركون ما حولهم بوضـــوح دون حجب أو حواجز، وذلك على النقيض من دلالة التسفل والظرفية في قوله: "أو في ضلال مبين"، إذ يستتبع ذلك دلالات سلب الإرادة، وتقييد الحركة، وانعدام وضوح الرؤية، وفقدان حرية الفكر، وذلك يؤدي إلى تمزق النفس وتخبطها.

٢. العدول عن (في) إلى (على):

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٤٥-٤٧].

ونجـــد فـــي هـــذا السياق القرآني تعدّي الفعل "أخذ" أولاً بحرف الجر (في)، في قـــولـــه: "أو يأخـــذهم في تقلبهم"، ثم العدول عنه إلى حرف الجر (على) في قوله: "أو يأخذهم على تخوف".

"لأن إيثار حرف الظرفية مع التقلب قصد به الإدلال على كمال القدرة الإلهية في الوصـــول بالانـــتقام إلى من يريد، مهما بدا للمأخوذ أنه في كمال القدرة والقوة، ذلك أن الـــتقلب يعنـــي حركة الحياة التي أقبل عليها مقترفوا السيئات مما يدل على أنهم في كامل

صـــحتّهم وقوتهم، وكمال سلطانهم وجبروتهم، وهم في هذه الحال لا يستطيعون أن يفوتوا الله ويعجزوه هرباً لذلك تناسب مجيء الفاصلة القرآنية بعدها قوله: "فما هم بمعجزين"[١].

وأما العدول إلى (على) في قوله: "أو يأخذهم على تخوف" "فإن الاستعلاء فيها يدل علـــى أن الله زادهم عذاباً فوق عذاب الخوف وآلامه، وهو بلاء كان قد وقع بهم من قبل وأصـــابهم بأمـــراض الذعـــر والقلق وافتقاد الأمن والطمأنينة، ثم جاء عقابه وأخذهم بما اقترفوه بلاء فوق البلاء، وعذاباً على عذاب"[٢].

فـــيكون معنى الظرفية في حرف الجر (في) قد دل على كمال قدرة الله في الأخذ والبطش، وأفاد معنى الاستعلاء في (على) الزيادة في التنكيل والعذاب، فكل حرف قد جاء في موضعه المناسب له، ولا يمكن أن يحل محله غيره.

وبهـــذا نـــدرك أن دلالـــة حروف الجر ليس في نفسها كما هو الحال في الأسماء والأفعـــال، وإنمـــا تكتســـب دلالتها من خلال تعالقها بنظم الكلام في السياق، ويظهر أثر السياق في تخصيص دلالة الحرف وتحديده.

فمعنـــى الاستعلاء في حرف الجر (على) قد يفيد في سياق الخير العلو والتفضيل والتشـــريف كمـــا هو الحال في قوله تعالى: "وإنّا أو إيّاكم لعلى هدى"، وفي سياق الأخذ والعـــذاب كمـــا هـــو الحال في قوله: "أو يأخذهم على تخوف" أفاد شدّة العذاب وزيادته، وكـــذلك حرف الظرفية (في) في قوله: "أو في ضلال مبين". أفاد معنى التسفل والسقوط؛ لأن السياق سياق ذم وتوبيخ لحالهم، وقد دلّ على العكس من ذلك في قوله "أو يأخذهم في تقلبهم" إذ دلّ على كمال القدرة في الأخذ والتعذيب؛ لأن السياق سياق إبراز قدرة وقوة.

---

[١] من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٦٩.

[٢] من أسرار حروف الجر، ٦٩.

٣. العدول عن (في) إلى (الباء):

من ذلك قوله تعالى على لسان الملأ من قوم نوح في خطاب نبيهم: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦١].

فقد جاء حرف الجر (في) في كلام قوم نوح لنبيهم بقولهم: "إنا لنراك في ضلال مبين"، وهذا الحرف يفيد الظرفية، فكأن الضلال أصبح ظرفاً له، وهو مظروف فيه، يحيط به من كل مكان. فردَّ عليهم بقوله: "ليس بي ضلالة"، فعدل في جوابه لهم إلى (الباء)، فلم يوافق جوابه قولهم فيكون (لست في ضلال).

وفي هذا السياق نجد أن جواب نوح عليه السلام، قد تضمن عدولين، عدولاً نحوياً متمثلاً في العدول عن حرف الجر (في) إلى (الباء)، وعدولاً صرفياً متمثلاً في العدول عن المصدر "ضلال" إلى اسم المرة "ضلالة"، وذلك أن اقتران جوابه بالباء فيه إمعان في نفي لصوق أدنى ضلالة به، فضلاً عن انغماسه في الضلال أصلاً، وهذا يؤكده مجيء اسم المرة "ضلالة".

لذا ناسب مجيء جوابه لهم بالباء عدولاً عن حرف الوعاء "مبالغة في نفي اقترابه من الضلال وتلبسه به"[1]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

وهو ما يرد بكثرة في سياق خطاب الأنبياء لأقوامهم من ذلك قول قوم هود لنبيهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وجاء ردُّه عليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧].

---

[1] من أسرار حروف الجر، ٦٩.

٤. العدول عن (في) إلى (من):

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ... وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ [النساء: ٥-٨].

فقال: ابتداء "وارزقوهم فيها" فأتى بحرف الجر (في) ثم عدل عنه إلى حرف الجر (منه)، فقال: "فارزقوهم منه".

وسر هذا أن الآية الأولى هي خطاب للأولياء في أموال اليتامى بدليل قوله: "وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ..."، ففي قوله: "فارزقوهم فيها" دعوة إلى استثمار أموال اليتامى وأن ينفق عليهم من أرباح المال لا من أصله، وهو ما أشار إليه الزمخشري بقوله[1]: "وارزقوهم فيها" واجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى يكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال، فلا يأكلها الإنفاق".

وهذا المعنى ناشئ من تركيب الفعل (فارزقوهم) مع حرف الظرفية (في)، فجعل الأموال ظرفاً للرزق ومكاناً له، في حين عدل عن (في) إلى (من) بعد ذلك في قوله:﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]؛ لأن المدفوع لذوي القربى واليتامى والمساكين حال حضورهم القسمة هو من أصل مال التركة، فجاءت (من) التبعيضية للدلالة على إعطائهم من بعض الميراث على سبيل المواساة والإحسان.

---

[1] الكشاف، ١/٥٠٠.

٥. العدول عن (من) إلى (في):

من ذلك قوله تعالى: "وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ... وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٤-٨٩]. فعدّى فعل (البعث) بـ (من) في قوله: "يوم نبعث من كل أمة"، ثم عدل عنه إلى (في) بقوله: "يوم نبعث في كل أمة" وهنا ينشأ السؤال الآتي: لماذا لم يطرد السياق فيكون: "يوم نبعث من كل أمة شهيداً، ... ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم ..."؟

أشار السيوطي[١] إلى أن (في) هنا بمعنى (من) فقوله: "في كل أمة"، أي: (من كل أمة)، ويكون قوله حينئذ: (من أنفسهم) "تكراراً له، ويرى الباحث أن القول بتناوب الحروف خروج عن تذوق البيان، ومعرفة إعجاز القرآن.

والذي يظهر -والله أعلم- أن هذا السياق القرآني يقرر الشهادة على مرحلتين: الأولى: مرحلة بعث الشهداء من أممهم، فمن كل أمة يخرج الله شهيداً منها، وهذه مرحلة بعث وإخراج فقط، ثم تأتي المرحلة الأخرى والأهم، وهي مرحلة إدلاء الشهادة، فيدلي كل شهيد على وجه الخصوص بشهادته على أمته، والشهداء هم الرسل والأنبياء، لذا كانت هذه المرحلة أشد من سابقتها على الشهداء والمشهود عليهم؛ لأنها إدلاء بالشهادة وتقرير بحكم، لذلك ناسب فيها التأكيد والإطناب في تفصيل جنس هؤلاء الشهداء فهم (في كل أمة)، فأفاد حرف الجر (في) الظرفية والمخالطة والانغماس، فكل شهيد من هؤلاء قد خبر قومه وعرفهم وخالطهم فهو منهم، وفيهم قد عاش ودرج، فكانت (في) أدل على هذا المعنى من غيرها.

---

[١] انظر: الإتقان في علوم القرآن، ١/١٦٧.

وأمعن السياق القرآني في تأكيد الشهادة وأنها شهادة إدلاء بقوله أيضاً: "شهيداً عليهم"، وقوله أيضاً: "من أنفسهم"، في حين لم يذكر ذلك في الآية السابقة، إذ اكتفى بالقول: "ويوم نبعث من كل أمة شهيداً" فحسب.

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وكان يقتضي السياق أن يطرد على نسق واحد فيقول: "ومنه تسميون" لكنه عدل عن (من) إلى (في) لدلالة أوضحها ابن عاشور بقوله[1]: "والشّجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة، ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليباً، وروعي هذا التغليب هنا؛ لأنه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز؛ لقلة الكلأ في أرضهم، فهم يرعون الشعاري والغابات، وفي حديث "ضَالَّةُ الإبلِ تَشْرَبُ الماءَ وترعى الشَّجَرَ حتى يأتيَها ربُّها"[2]، ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف (في) الظرفية، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب".

وقد فهم ابن عاشور هذا المعنى الدقيق لحرف الجر (في) من معرفته بحياة بادية الحجاز التي تنزل فيها القرآن، فجاء المقال موافقاً تمام الموافقة لمقتضى الحال.

٦. العدول عن (من) إلى (عن):

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

---

[1] التحرير والتنوير، ١١٤/١٤.

[2] رواه البخاري، ٢٠٢٧/٥، برقم (٤٩٨٦).

فـنجد في هذا السياق القرآني -وهو يذكر مقولة إبليس- أنه قد خالف في التعبير بـين حرفي الجر (من) و(في)، فقال ابتداء: "لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم"، ثم عدل عـن (من) إلى (عن) عند ذكر الأيمان والشمائل فقال: "وعن أيمانهم وعن شمائلهم" ولم يقـل: "ومن أيمانهم ومن شمائلهم"، ولكي ندرك سر هذا العدول ينبغي معرفة دلالة (عن) ومـا يوحـي به السياق الواردة فيه، وقد ذكر سيبويه أن قولهم: جلس عن يمينه تعني[1]: "جعله متراخياً عن بدنه وجعله في المكان الذي بحيال يمينه".

ولمـا كانت (من) تفيد معنى الابتداء و(عن) تفيد التجاوز، كان المعنى في قولهم: "أتاه من يمينه" "أن مبدأ الإتيان كان من هذه الجهة، وإذا قلت: أتاه عن يمينه، كأن معناه: أتاه منحرفاً عنها أو متجاوزاً لها"[2]. وكل هذه المعاني ورادة من خلال ما يضفيه الحرف من دلالة ضمن السياق الوارد فيه.

ومـن التتـبع لنصوص القرآن الكريم نجد أن لفظتي الأيمان والشمائل قد جاءتا مقتـرنتين بحرف التجاوز (عن)، من ذلك قوله تعالى على لسان الضالين لمن أضلوهم: ﴿قَالُـوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]. أي: "كنتم تأتوننا من جهة اليمين -الدالة على الخير- فتصدُّوننا عن الحق والخير"[3].

فأفادت (عن) هنا معنى التجاوز عن الحق والصد عنه؛ "أي: عن الناحية التي كان منها الحق، فتصرفوننا عنها"[4].

---

(١) الكتاب، ٢٢٧/٤.

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٣٢٢.

(٣) انظر: الكشاف ٣٣٩/٣.

(٤) المفردات، ٣٤٩.

وكــذلك قــولــه تعالـــى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

دلّـــت (عن) على المجاوزة -أيضاً-، "لأن حركة الظلال في تفيؤها تنحرف عن الأيمان والشمائل بحكم اتجاهات الرياح"[١].

وفـــي آيـــة الأعراف التي نحن بصددها، نجد أن دلالة (عن) تفيد معنى المجاوزة والانحـــراف، يقـــول الزمخشـــري في ذلك[٢] "فإن قلت: كيف قيل: (من بين أيديهم ومن خلفهم) بحرف الابتداء، و(عن أيمانهم وعن شمائلهم) بحرف المجاوزة؟ قلت: المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت فـــي هـــذا وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون عن يمينه وعلى يمينه، وعن شماله وعلى شماله؟

قلـــنا: معنـــى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره".

ولـــم يقـــف الزمخشري على سر العدول في التعبير وإنما وقف عند حدود صحة التركيب، وقد تعقبه أبو حيان محاولاً الكشف عن سر هذا العدول فقال[٣]: "وهذا الكلام لا بأس به، وأقول: إنما خص بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان،

---

(١) من أسرار حروف الجر ٣٢٣.

(٢) الكشاف ٢/٧١.

(٣) البحر المحيط ٤/٢٧٦.

لأنهمـــا أغلـــب ما يجيء العدو منهما فينال فرصته، وقدم بين الأيدي على الخلف؛ لأنها الجهـــة التي تدل على إقدام العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه، والخلف من جهـــة غـــدر ومخاتلـــة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرّته وغفلته، وخص الأيمان والشـــمائل بالحـــرف الذي يدل على المجاوزة؛ لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدو، وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك".

ومـــا ذهـــب إلـــيه أبو حيان تعليل طريف، ونضيف إليه أن حركة الشيطان في وسوســـته للـــناس تخـــتلف باختلاف يقظتهم وإيمانهم، فاختلف بموجب ذلك جهات إقدامه عليهم، فالغافل المفرط في الغفلة يواجهه من أمامه فيستحوذ على منافذ تفكيره ووعيه، ثم يلـــيه مـــن كان دون ذلك في الغفلة فيتدسس له من خلفه، وأما المؤمن المتيقظ فحسبه أن يـــتجاوزه عـــن يمينه وشماله متجافياً عنه على وجل غير ملتصق به، فضلاً عن وجود ملكين عن اليمين والشمال يقتضي ذلك تجاوزهما.

فـــتكون المجاوزة بـــ (عن) في هذا السياق ذات دلالة حسية واضحة، ويحتمل أن يـــراد بهـــا المجـــاوزة المعنوية أيضاً، فيكون المراد تصوير محاولات الشيطان في إلقاء الوسوسة والإغواء، فمن تلك المحاولات ما هو ظاهر بَيِّنٌ يواجه به ضعاف النفوس الذين قد استسلموا للانقياد له، ومنها ما يحاول تلبيسه في صور خفية من الوسوسة متجاوزاً فيها الظهور إلى الخفاء، يتسلل بها على من تأبوا عليه، ورفضوا الانقياد له.

٧. العدول عن (من) إلى (الباء)

كمـــا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [الإنسان: ٥-٦].

فالفعل (يشرب) تعدّى بـــ (من) في قوله: (يشربون من كأس) ثم عدل السياق إلى (الــباء) فقال: "عيناً يشرب بها" ولم يقل: "عيناً يشرب منها"، وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن الباء بمعنى (من)[1].

أي: عيــناً يشـــرب مـــنها، وأن ذلك من قبيل تناوب الحروف عند من قالوا به، وبعضهم ذهب إلى القول: بتضمين الفعل (يشرب) معنى الفعل (يروي).

يقـول الزركشـــي[2]: "وأما الأفعال فأن تضمن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون فيه معنـــى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدّى بحرف فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعديه به ...، مثله قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. فضمن (يشرب) معنى (يروي)؛ لأنه لا يــتعدّى بالــباء فلذلك دخلت الباء، وإلا فيشرب يتعدّى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والرّيّ معاً، فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد".

وإلى هذا ذهب الفرّاء فقال[3]: "وقوله عزوجل: (يشرب بها) و(يشربها) سواء في المعنى، وكأن يشرب بها: يروى بها".

ويـــرفض ابن القيم القول بتناوب الحروف ويستحسن القول بتضمين الفعل معنى فعـــل آخر، فيقول[4] "وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنىً مع غيره، فينظـــرون إلـــى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه، هذه

---

(١) انظر: المغني، ١٤٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٣/٣٣٨.

(٣) معاني القرآن ٣/٢١٥.

(٤) بدائع الفوائد ٢/٢١.

طريقة إمام الصناعة -سيبويه- رحمه الله تعالى، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنـــى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، وهذا نحو قوله تعالى: "عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ" فإنهم يضمنون "يشــرب" معنـــى "يـــروي" فيعدُّونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل على الفعلين، أحــدهما بالتصـــريح به، والثاني بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصـــار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها، ومنه قوله في السحاب: "شربن بماء البحـــر حتى، روين ثم ترفعن وصعدن"[1]، وهذا أحسن من أن يقال: "يشرب منها" فإنه لا دلالـــة فـــيه علـــى الرِّي، وأن يقال: "يروي بها"؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللـــزوم، فـــإذا قال: "يشرب بها" دل على الشرب بصريحه وعلى الرِّي، بخلاف الباء، فتأمله".

ولا يســـلم لابن القيم قوله: "إن عبارة (يشرب منها) "لا دلالة فيها على الري، لأن المولى -عزوجل- قد وصف الأبرار بقوله: (إن الأبرار يشربون من كأس)"، فعدّى فعل (يشرب) بـــ (من) وأيضاً أن الشرب في الجنان لا يكون بغرض الارتواء، فلا ظمأ فيها، فالمولى عزوجل يقرر ذلك بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨-١١٩]. وإنما الشرب فيها ضرب من النعيم المقيم.

والحقـــيقة أنـــه لا بـــد أن يكون لهذا العدول مغزىً يتناسب مع سياقه الوارد فيه، والســـياق هـــو سياق نعيم، فلا بد أن ننعم الفكر في النعيم والمنعمين، ولعل ما ذهب إليه

---

[1] هكذا في الأصل، ولعل هذا القول هو بيت محرّف لأبي ذؤيب الهذلي وصوابه هكذا:

شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ ترفعت   متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

(ديوان الهذليين: ١/٥١). وللبيت رواية أخرى: (شرح أشعار الهذليين، ١/١٢٩):

شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تصعدت   متى لُجَجٍ سُودٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

فاضل السامرائي هو أقرب إلى دلالة السياق، إذ يرى أن المخالفة في التعبير القرآني في هـذا السـياق راجعة إلى المفارقة بين الجزاءين، فجزاء الأبرار دون جزاء عباد الله، إذ الآية تتحدث عن صنفين من أهل الجنة، الصنف الأول الأبرار "والصنف الآخر هم الذين سـماهم (عباد الله) وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم ... ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلمـا كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده، وتطلق هذه الصفة أعنـي صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

مـن هذا يتبين أن مرتبة الذين سماهم (عباد الله) أعلى من الأبرار، وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين فقد وصف نعيم الأبرار بأنهم يشربون من كأس، وأن هذه الكـأس ليست خالصة بل ممتزجة (كان مزاجها كافورا)، وأما الصنف الآخر وهم (عباد الله) فهـم لا يشربون من كأس يؤتى بها، بل يشربون خالصة من العين (عيناً يشرب بها عباد الله) وهي مرتبة أعلى[(١)].

ونضـيف إلـى توجيه السامرائي أن (الباء) في قوله: "عيناً يشرب بها" هي على أصلها من إفادتها معنى الإلصاق، وفي ذلك مزيد مبالغة في وصف النعيم الذي هم حالون فيه، فهم يشربون من عين يكاد أن يلاصق أفواههم ماؤُها دون بذل أي عناء في الشرب، إذ لا يحـتاجون أن يشربوا منها وإنما بها، وفي ذلك إمعان في نفي وجود أدنى عناء في التمـتع بالنعـيم في الجنة، على خلاف المعهود في متع الدنيا، لذا عندما وصف المولى

---

(١) التعبير القرآني، ٢١١، (بتصرف).

-عـز وجل- سـرر الجـنة قـال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ولم يقل: على سرر متجاورين، وذلك لينفي عنهم وجود أي عناء في أن يلتفت الأخ إلى أخيه ليراه.

وتفـيد (الـباء) أيضاً القرب من المكان والنزول به، نحو قولنا: نزلت بالعين[1]، وأفـادت أيضاً أن الشرب من العين ليس هو الغاية في النعيم، وإنما (العين) وسيلة وأداة موصـلة للنعيم، وإن شئت فقدر محذوفاً، فقل: يشربون بها إسعادة والنعيم الذي لا نظير له، فلذائذ الدنيا ومتعها غاية لذاتها، فالشرب فيها لذات الشرب حتى يحصل الارتواء بعد ظمـأ قـد حـل، والشرب في الجنة ليس مقصوداً لذات الارتواء والسلامة من عطب أو هلاك، وإنما هو نعيم يتوصل به إلى نعيم أكبر.

وكذلك أفادت (الباء) هنا التمييز بين نعيمين وصنفين من أهل النعيم كما أشار إليه السـامرائي، فصـنف يشرب خمر الجنة من كأس ممزوج بها الكافور الذي هو عين في الجـنة، وتعرب (عيناً) في الحالة هذه بدلاً من (كافوراً)، وصنف فوق أولئك هم نازلون بالعين نفسها يشربون بها السعادة والخلود، والنعيم الذي لا يزول ولا يبيد، وهي ملاصقة لأفـواههم فضلاً عن أبدانهم ملاصقة النعيم لصاحبه لا ينفك عنه بحال، ولا ينقص منها شيء بل هي في تفجير وتكاثر وازدياد.

ونحن في مألوف الاستعمال اللغوي نقول: شربت بالكأس من العين، فتكون الكأس هي الأداة المشروب بها، فتدخل (الباء) على الآلة والأداة، فالأبرار يشربون (من كأس)، وعباد الله (يشربون بالعين)، فكانت الكأس بمثابة العين للأبرار، والعين بمثابة الكأس لعباد

---

[1] انظر: البرهان في علوم القرآن، ٣/٣٣٩.

الله، يشربون بها ما هو أكبر من العين وهو السعادة والسرور، والتلذذ بما لا يحيط به الوصف من النعيم. ويمكن تمثيل ذلك في الشكل الآتي:

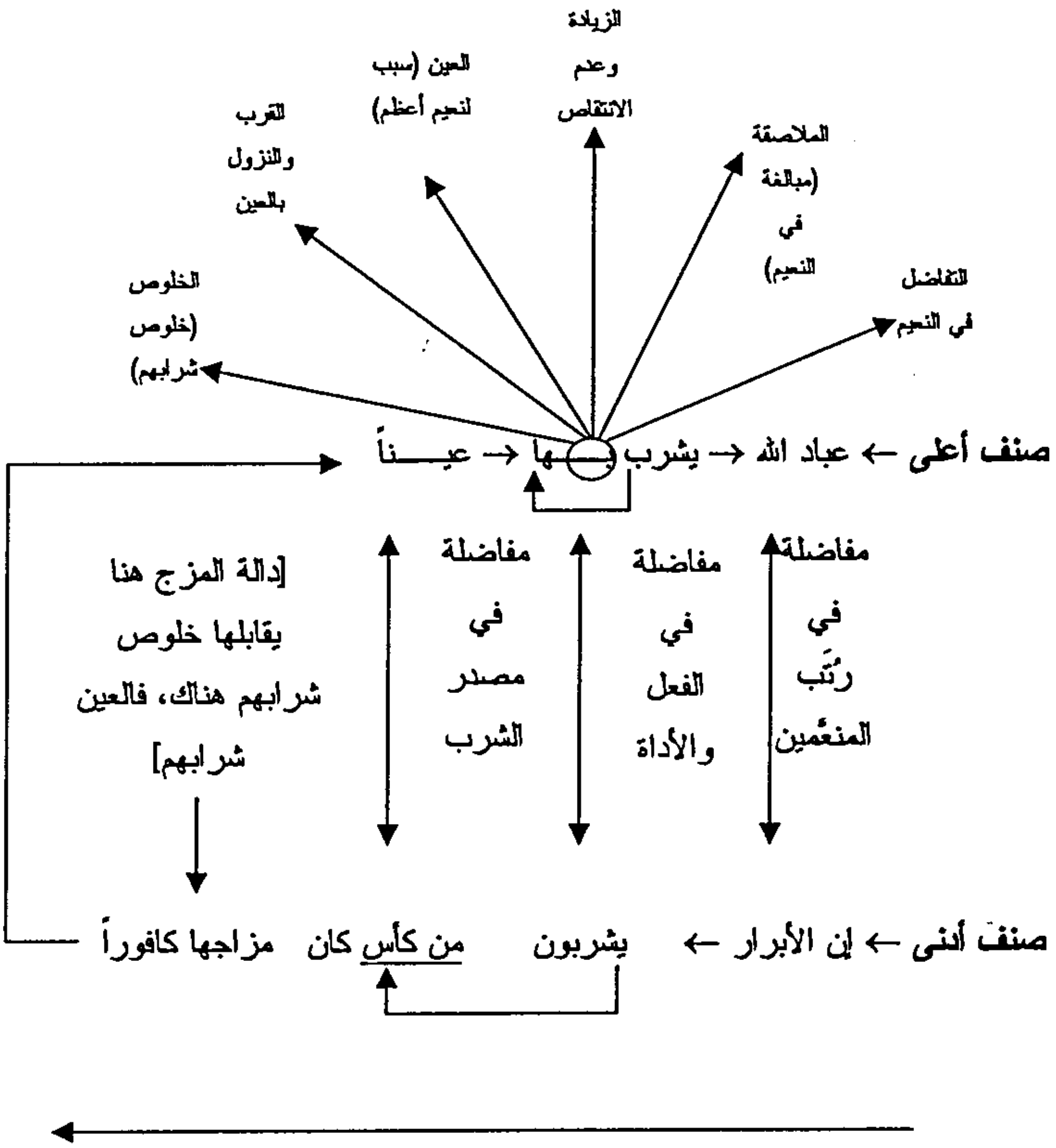

(حركة بنية التعبير عن النعيم)

[فانتهت بنية التعبير في وصف نعيم (الأبرار) بمحدودية المزج

(كان مزاجها كافوراً)

في حين انتهت بنية التعبير في وصف نعيم (عباد الله) بالكثرة والعطاء غير المتناهي

(يفجرونها تفجيراً)]

٨. العدول عن (اللام) إلى (في)

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

تتحدث هذه الآية عن الأصناف الثمانية الذين تعطى لهم الزكاة، ولكن السياق خص الأصناف الأربعة الأول بـ (اللام) فقال: "للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم" ثم عدل عن (اللام) إلى حرف الجر (في) الدال على الظرفية، فقال: "وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل". "للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن (في) للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصبًا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير (في) في قوله: "وفي سبيل الله"، فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين"[(١)].

ويرى أحمد بن المنيّر[(٢)]: "أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، وأن ما يأخذونه ملكاً، فكان دخول اللام لائقاً بهم، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم. فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم

---

(١) الكشاف، ١٩٨/٢.

(٢) انظر: حاشية الكشاف ١٩٨/٢.

حتـــى يعبــر عن ذلك (باللام) المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم، وإنما هم مَحالٌ لهذا الصــرف والمصــلحة المتعلقة به، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لالهم، وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله، وإنما أفرد بالذكر تشبيهاً على خصوصيته".

وكلا المعنيين اللذين ذهب إليهما الزمخشري وابن المنير يتسع لهما النص القرآني فيكون العدول إلى حرف (في) قد دل على دلالتين بارزتين هما:

أولاً: الدلالــة على أن الأصناف الأربعة الأخيرة أهم من الأصناف الأربعة الأول، وأولى بأن توضع فيهما الصدقة والزكاة، وذلك بدلالة حرف الجر (في) الدال على الظرفية والــوعاء، وكأن هذه الأصناف الأربعة هيَ وعاء لهذه الزكوات وظرف لها ينبغي وضعها فيه.

وثانياً: دل حرف الجر (في) على أن الأصناف الأربعة الأول يأخذون تلك الزكوات على ســبيل التملــيك بدلالــة حــرف الجر (اللام)، بينما الأصناف الأخيرة تصرف في مصــالحهم الزكوات ولا يملكونها – كما علل ذلك ابن المنير – بدلالة حرف الوعاء والظرفية (في)، وكأن التعبير القرآني يشير إلى أن تصرف فيهم وفي شؤونهم وما هو في مصلحتهم.

وألمــح دلالــة ثالــثة يشــي بها السياق ويحتملها النص القرآني من خلال حرف الظــرفية (في) وما يوحي به من الدلالة على التقصي والبحث عن الأحوج والأنسب في الأصــناف الأربعة الأخيرة، لتوضع فيهم الزكاة، وذلك لاتساع دائرتها، وتفاوت أصنافها أهمية واحتياجاً، على خلاف الأولِ فأصنافهم معلومة بينة.

٩. العدول عن (اللام) إلى (على)

منه قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

غاير التعبير القرآني بين الحرفين (اللام) و(على) في السياقين السابقين، وقد استدل المفسرون من ذلك على أن (اللام) تأتي مع النفع و(على) تأتي مع ذكر الضرّ، وذلك إنطلاقاً من دلالة (اللام) على الاختصاص والملك والاستحقاق، ومن معنى العلو في (على) الدال على القهر والاستيلاء.

لذلك اقترنت الأعمال الصالحة والحسنات في سياق ذكرها في القرآن با (للام) واقترن بالمقابل لذلك حرف (على) بالسيئات والإثم؛ لأن لفظة (على) – كما يرى أبو حيان– فيها الدلالة على استعلاء الإثم على صاحبه، واستيلائه وقهره له[١].

ويقول: ابن عطية[٢]: "وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه، ويسرُّ بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ (عليها) من حيث هي أوزار، وأثقال ومتحملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال وعلي دين".

١٠. العدول عن (إلى) إلى (على)

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

---

(١) انظر: البحر المحيط ٣٤٦/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٣/١.

فـــنجد الفعـــل (راغ) قد اقترن بحرف الغاية (إلى) ابتداء ثم عدل عنه إلى حرف الاســتعلاء (علـــى)، ويظهر لنا سبب هذا العدول من خلال فهم دلالة الفعل (راغ) الذي يقصد به الميل إلى الشيء في تسلل وخفاء، وأفاد الحرف (إلى) انتهاء الغاية، أي أن غاية ذهاب إبراهيم عليه السلام وتخفيه هو الوصول إلى أصنامهم.

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى نكتة العدول إلى (على) فقال[1]: "راغ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال، قال فراغ إلى أهله- فراغ عليهم ضرباً باليمين – أي: مال، وحقيقته طلب بضرب من الروغان، ونبَّه بقوله: (على) على معنى الاستيلاء" فكأنـــه استولى على تلك الأصنام وقهرها وغلبها وهي عاجزة ضعيفة أمامه". يقول محمد الخضري "فلما كان قوله: "فراغ إلى آلهتهم" يعبر عن قصد إبراهيم إلى أصنامهم، والسعي إليها خفية جيء بـــ (إلى) معبرة عن انتهائه إليها، ومشيرة إلى جعل وصوله إليها غاية لا يلـــوي معهـــا على شيء حتى يحقق ما عزم عليه، ثم حين أراد القرآن تصوير ما فعله إبـــراهيم بآلهتهم، وإغارته عليها جيء بـــ (على)؛ لتدل بمعنى الاستعلاء فيها على تمكنه منها وقهره لها، وما لحقها من آثار التحطيم والتدمير".

فكان العدول إلى (على) في هذا السياق للدلالة على الاستيلاء والقهر والغلبة على تلك الأصنام في مقابلة العجز والضعف والاستسلام منها.

١١. العدول عن (إلى) إلى (اللام)

كمـــا فـــي قولـــه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥].

---

[1] المفردات ٢٠٨.

اللافت للنظر في هذا السياق تعدي فعل الهداية بحرف الجر (إلى) مع الشركاء، فقال: (هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) ثم عدل عنه إلى التعدي بـ (اللام) في نسبته إلى الله -عزوجل- فقال: "قل الله يهدي للحق"، ولم يقل: (قل الله يهدي إلى الحق) ليطرد السياق على نسق واحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذا من قبيل تداخل الحروف وتناوبها، يقول: البطليوسي (ت ٥٢١هـ) "معلقاً على هذه الآية"[١]: "جاز وقوع (اللام) موقع (إلى)، ووقوع (إلى) موقع (اللام)، لما بين معنييهما من التداخل والتضارع، ألا ترى أن (اللام) لا تخلو من أن تكون بمعنى الملك أو الاستحقاق أو التخصيص، أو العلة والسبب، و(إلى) للانتهاء والغاية، وكل مملوك فغايته أن يلحق بمالكه، وكل مستحق فغايته أن يلحق بمستحقه، وكل مختص فغايته أن يلحق بمختصه، وكل معلول فغايته أن يلحق بعلته، فكلها يوجد فيها معنى (إلى) وموضوعها الذي وضعت له" وإلى هذا ذهب ابن منظور فقال[٢]: "يقال: هَدَيْتُ للحق وهَدَيْتُ إلى الحق بمعنىً واحد".

ومع أن الزمخشري له حس بلاغي في تتبع الفروق الدلالية للحروف إلا أنه في هذا الموضع سوّى بينهما في الدلالة إذ عدّهما تنوّعاً في اللغات فقال[٣]: "هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين".

والحقيقة أن الفعل إذا عُدّي بحرف ثم عُدّي بحرف آخر، فلا بد أن يكون له مع كل حرف دلالة خاصة تختلف عن الأخرى.

---

[١] الاقتضاب ٢/٢٨٧.

[٢] لسان العرب مادة (هـ.د.ي).

[٣] الكشاف ٢/٢٣٦.

يقول ابن القيم[1]: "إن الفعل المعدّى بالحروف المتعدّدة، لا بد أن يكون له مع كل حـرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو رغبت عنه، ورغبت فيه، وعدلت إليه، وعدلت عـنه، وملت إليه وملت عنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق، نحو: قصدت إليه وقصدت له، وهديته إلى كذا وهديته لكذا، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحـرفين بمعنـى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره".

وبـناء على ذلك فالهداية تختلف في دلالتها باختلاف الحرف الداخل على فعلها، والقرآن قد ذكر نوعين من الهداية، الأولى هداية الإرشاد والبيان، ويتمثل ذلك في توضيح المـنهج الحق والإرشاد إليه، وهذه هداية عامة. والهداية الأخرى هداية التوفيق والإلهام وهـي أخـص من الأولى وتترتب عليها، والمقصود بها إلهام الله النفوس وتوفيقه لها في سلوك طريق الهداية والاستقامة عليه. وهذا النوع من الهداية يختص به – الله عزوجل – لأنه هو وحده الذي يملك القلوب ويوجهها.

لذلك ففعل الهداية إذا عُدّي بـ (إلى) "دلّ على الإرشاد وإيصال المهدي إلى الغاية المنشودة، وحين يعدى بـ (اللام) يدل على التوفيق وتهيئة القلب والنفس للسعي من أجل هذه الغاية، انبثاقاً من معنى الاختصاص في اللام"[2].

ولهـذا الفعل نظائر في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿وَقَالُـواْ الْحَمْـدُ لِلّـهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢١.

(٢) من أسرار حروف الجر ٢٢٣، وانظر: بدائع الفوائد، ٢/٢١.

وقولــه تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢].

ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) -وهو يتحدث عن فعل الهداية وتعديه[1]" وقد تعدّى بـ (إلى)، كقولــه تعالى: ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، و:﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وذلك بمعنى الإرشاد والدّلالة، وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقد تعدّى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]؛ أي: وفقنا لهذا وجعلنا أهلاً".

ومــن هنا ندرك سر العدول في آية يونس التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] ففي ذلك آية مــن آيات الإعجاز والتحدي لهذه الآلهة المزعومة ولأصحابها، إذ تحدّاهم أن يوجد منها مــن يملــك هداية البيان والإرشاد؛ للدلالة على طريق الحق، فضلاً أن يوجد منها هداية التوفــيق والإلهــام، فهذه هداية لا يملكها إلا -الله عزوجل- الذي لا يملك توجيه القلوب وتوفيقها إلا هو؛ لذا عدّى فعل الهداية مع الشركاء بـ (إلى)، ومع المولى -عزوجل- بـ (الــلام) للدلالــة علــى أنه المختص وحده بهذه الهداية، فيكون نفيه عن الشركاء هداية الإرشــاد قــد تضــمن نفــي هداية التوفيق عنهم قطعاً، ويكون إثباتها لله - عزوجل - واختصاصه بها، يتضمن إثبات هداية الإرشاد له من باب أولى.

---

[1] تفسير القرآن العظيم ١/١٦٠.

١٢. العدول عن (الباء) إلى (اللام)

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

ففي هذا السياق تعدّى فعل الإيمان بحرف الجر (الباء) فقال: (يؤمن بالله) ثم عدل إلى تعديته باللام، فقال: (ويؤمن للمؤمنين)، وقد توقف كثير من المفسرين عند تعدي فعل الإيمـــان بــــ (الباء) وتعديه بـــ (اللام)، فذهب بعضهم إلى أن التركيب (آمن بـــ) يحمل المعنـــى نفسه في (آمن لـــ). يقول أبو حيان[1]: "وقيل آمنت به، وآمنت له واحد". وذهب بعضهم إلى تضمين فعل الإيمان المعدّى باللام معنى الانقياد أو الاستجابة والإقرار، يقول ابن عاشور عند تفسير قولـــه تعالى[2]. أفتطمعون أن يؤمنوا لكم" (واللام في قوله: (لكم) لتضمين "يؤمنوا" معنى يُقّروا، وكأن فيه تلميحاً إلى أن إيمانهم بصدق الرسول ﷺ حاصل ولكنهم يكابرون ويجحدون".

ويذهب رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: "يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين[3]" أن نكتة تعديـــة الإيمـــان بالباء في الله تعالى، وبالباء في المؤمنين أن الأول على الأصل آمن به، ضـــد كفـــر بـــه، وصدق به ضد كذب به، وأما الثاني فقد ضمن معنى الميل، والائتمان والجنوح للمؤمنين".

---

[1] البحر المحيط ٤/٣٦٥.

[2] التحرير والتنوير ١/٥٦٧.

[3] تفسير المنار ١٠/٥١٩.

وقـد كـان الزمخشـري أقـرب المفسرين إلى إدراك الفرق الدقيق بين الحرفين والوقـوف على سبب هذا العدول إذ يقول[1]: "فإن قلت: لِمَ عُدِّي فعل الإيمان بـ (الباء) إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين بـ (اللام)؟".

قلـت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به فَعُدِّي بـ (الباء)، وقصد السـماع مـن المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فَعُدِّي بـ (اللام)، ألا تـرى إلى قوله – وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، ما أنباه عن الباء– ونحـوه– ﴿فَمَـا آمَـنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]، و: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، و: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

ويعلـل محمد الأمين الخضري هذا الرأي بقوله[2]: "فـ (الباء) بما تدل عليه من الملابسـة والمصاحبة والإلصاق تخلع على فعل الإيمان وجود الأمن في ظلال من يؤمن بـه ويلـتمس الحماية في صحبته، والطمأنينة في ملابسته، فيكون حريصاً على رضاه، عـاملاً بما يأمره به، ولذلك فإن الإيمان لا يتعدى بـ (الباء) إلا في الإيمان بالله ورسله وكتبه، لِما أن الإيمان بالرسول هو امتداد للإيمان بالله، وكذلك الإيمان بالكتب، لأن الكتب كـلام الله، أمـا (الـلام) فإن الفعل يكتسب معها معنى الاستجابة للمصدق فيما دعا إليه، والانحيـاز له في رأيه أو ما جاء به، انطلاقاً من طبيعة اللام الدالة على اختصاصه بهذه المزية".

وبـناء علـى مـا سبق تظهر حكمة تعدي فعل الإيمان بـ (الباء) في سياق ذكر الإيمـان بـالله والتصديق برسله وكتبه، ويتعدّى بـ (اللام) في سياق ذكر تصديق البشر واستجابتهم لبعضهم.

---

[1] الكشاف ١٩٩/٢.

[2] من أسرار حروف الجر، ٢١١.

وأمـــا مـــا ورد فـــي القرآن من مواطن ذكر فيها فعل الإيمان متعدياً بـــ (الباء) وموضـــوع الإيمـــان فـــيها لـــيس فيه تصديق ويقين نحو قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]. وقوله تعالى ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. "فهو في سياق التقريع لهم وتسفيه اعتقادهم وإظهار زيفه"[1].

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:١٢٠-١٢٣].

وقـــوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه٧٠:-٧١].

وقـــوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٩].

فمجـــيء الفعل (آمن) متعدياً بـــ (الباء) في قوله (آمنتم به) لا يناقض ما تقرر من مجـــيء هذا التركيب (آمن بـــ) في سياق الإيمان بالله، لأن الضمير الهاء في (آمنتم به) يعود على (رب العالمين) بينما يعود في (آمنتم له) على موسى (عليه السلام).

وهو ما ذكره الخطيب الإسكافي ورجحه[2].

---

[1] القرآن الكريم وتفاعل المعاني ٢/٢١٧.

[2] انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ١٧٦-١٧٧.

ثانياً: العدول في حروف العطف

لحــروف العطف أهمية كبيرة في أداء وظيفة الربط في الجملة العربية، وتضفي هذه الحروف دلالات خاصة يكشف عنها السياق الواردة فيه، وقد قرر علماء اللغة أن لكل حرف دلالة عامة تختص به.

فقــرروا أن حــرف (الــواو) يرد لمطلق الجمع. يقول سيبويه[1]: "قولك: مررتُ بعمرٍو وزيد. وإنما جئت بالواو لتضم الآخر إلى الأول وتجمعهما، وليس فيه دليل على أنّ أحدهما قبل الآخر".

يقول الرضي في شرح الكافية[2]: "فقوله: (فالواو للجمع مطلقاً): معنى المطلق أنه يحــتمل أن يكون حصل من كليهما في زمان واحد، وأن يكون حصل من زيد أولاً، وأن يكــون حصــل من عمرو أولاً، فهذه ثلاثة احتمالات عقلية، لا دليل في الواو على شيء منها، هذا مذهب جميع البصريين والكوفيين".

وذكــروا أيضــاً أن (الفــاء) تفيد الترتيب والتعقيب يقول سيبويه[3] -في معرض التمييــز بين (الواو) و(الفاء): "و(الفاء) وهي تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت (الواو) غيــر أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه في إثر بعض، وذلك قولك: مررتُ بعمرٍو فزيدٍ فخالدٍ، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقرو[4] أحدهما بعد الآخر".

---

(1) الكتاب، ٢١٦/٤.

(2) شرح الكافية، ١٤٥/٦.

(3) الكتاب، ٢١٧/٤.

(4) يقرو: يتبع.

وأمـــا (ثَمَّ) فقد ذكروا أنها تفيد الترتيب مع التراخي، يقول المرادي[1]: "ثم حرف عطــف يشـــرك في الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة؛ فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة".

وقــد علل السهيلي دلالة التراخي في (ثم) من دلالة اشتقاقها فقال[2]: "لا غرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن في الكلام، فهذه (ثم) حرف عطف، ولفظها كلفظ (الثُّم)، والثُّمُ هو رمُّ الشيء بعضه إلى بعض ... وأصله من ثمَمْتُ البيتَ: إذا كانت فيه فُرَج فَسُدَّ بالثُّمَام[3].

وقال الشاعر:

وَأَمَّا الرِّيَاحُ فقد غَادَرَتْ ... رَواكدَ واستَمْتَعتْ بالثُّمام

والمعنـــى الذي في (ثُمَّ) العاطفة قريب من هذا، لأنه ضمّ الشيء إلى شيء بينهما مهلة، كما أن ثَمَّ البيت: "ضَمٌ بين شيئين بينهما فرجة".

فامتازت (ثم) عن (الواو) بالترتيب والمهلة، وعن (الفاء) بالتراخي في الزمن.

يقــول سيبويه -مفرقاً بين هذه الأحرف الثلاثة[4]: "فإذا قلت: مررتُ برجل راكب وذاهــب، اســتحقهما؛ لا لأن الــركوب قبل الذهاب، ومنه: مررتُ برجل راكب فذاهب اســتِحقهما، إلا أنـــه بيَّنَ أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلاً به، ومنه: مررتُ برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّنَ أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فصيَّره على حِدَة".

---

(1) الجنى الداني، ٤٢٦.

(2) نتائج الفكر، ١٢٤.

(3) الثُّمام هو عشب، المعجم الوسيط، ١٠١/١.

(4) الكتاب، ٤٢٩/١.

والذي يهمنا في هذا الموضع هو المخالفة والمغايرة الحاصلة بين حروف العطف فـــي الســـياق القرآني، والدلالات التي تنتج عن هذا العدول، وسيكون تناولنا للعدول في حـــروف العطـــف مقتصراً على أهمها وأكثرها وروداً في التعبير القرآني وهي (الواو) و(الفاء) و(ثم). وذلك لكثرة ورود العدول بين هذه الحروف، مما يدعو ذلك إلى التأمل في أسراره وما يحققه من دلالات تكشف عن جوانب الإعجاز في هذا القرآن.

ويتمثل العدول في هذه الحروف على النحو الآتي:

١- العدول عن (الواو) إلى (الفاء) والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ [النازعات: ١-٥].

فلقـــد عـــدل هذا السياق عن (الواو) في قوله: "والسابحات سبحا" إلى (الفاء) في قـــولـــه: "فالســـابقات ســـبقا، فالمدبرات أمرا". ولو اطرد السياق على نمط واحد لكانت "والسابقات سبقاً والمدبرات أمرا".

ويمكننا فهم سر هذا العدول من تعليق الزمخشري على ذلك بقوله[1]: "أقسم سبحانه وتعالـــى بطوائف من الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي: تخـــرجها مـــن نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمراً من أمور العباد".

فالـــذي نفهمـــه مـــن كلام الزمخشري أن الملائكة في اختصاصها ووظائفها على طوائـــف، فمنها طوائف تنزع الأرواح من الأجساد، وطوائف تخرجها، وأخرى تسبح في مضـــيها لتنفـــيذ ما أمرت به، وهذه الأخيرة وقف عندها القرآن بالوصف، فوصفها بأنها

---

(١) الكشاف، ١١٢/٤.

تسبح فتسبق فتدبِّر، فهي طائفة توصف بثلاث صفات متتابعة وهي السبح والسبق والتدبير، لذلك عطف بين صفاتها هذه بـ (الفاء)، وعطف بين ذوات هذه الطوائف المختلفة بـ (الواو).

فكانت (الواو) -في هذا السياق- لعطف الذوات و(الفاء) لعطف الصفات. فدل العدول عن (الواو) إلى (الفاء)، أن هذه الطائفة من الملائكة هي طائفة واحدة تتصف بصفات متعدّدة لا طوائف مختلفة، وإنما دلت (الفاء) هنا على تعاقب هذه الصفات وتتابعها.

وهو ما يرد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ [المرسلات: ١-٥].

إذ جاء العدول عن (الفاء) في قوله تعالى: "فالعاصفات عصفا" إلى (الواو) في قوله: "والناشرات نشر"؛ ليفرق بين طائفتين من الملائكة، فما قبل (الواو) يمثل طائفة مستقلة في الملائكة مهمتها الإرسال والعصف. وطائفة أخرى جاء ذكرها بعد (الواو) مهمتها النشر والفرق وإلقاء الذكر.

وهو ما أوضحه الزمخشري[(١)] بقوله: "أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء".

---

(١) الكشاف: ٢٠٢/٤.

ويـــزيد الألوسي الأمر إفصاحاً فيقول[1]: "وعطف الناشرات على ما قبل (الواو) ظاهر للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد (الفاء) لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات".

فدل هذا على أن الصفات المعطوفة بـــ (الفاء) تكون لموصوف واحد[2].

٢- العدول عن (الواو) إلى (ثم) والعكس

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُــلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

فقــد جاء السياق على نحو: "وأزلفنا ... وأنجينا ... ثم أغرقنا"، فعدل عن (الواو) إلى (ثم).

فمـــا دلالة (ثم) هنا، وهل هناك تراخٍ زمني بين إنجاء المولى -عزوجل- موسى ومن معه، وبين إغراق فرعون وقومه، ولماذا لم يقل: "وأغرقنا الآخرين"، كما هو الحال فـــي قـــولـــه تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. فأتى بـــ (الواو) في قوله تعالى: "وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ"؟

ويـــرى الباحث أن سياق المقام هو الذي يقتضي حرف عطف معين لدلالة معينة، فالســـياق فـــي سورة الشعراء سياق تدرج في النعم، فالنعمة الحاصلة من إغراق فرعون وجنده أعظم من سابقتها وهي إنجاء الفئة المؤمنة، فأفادت (ثم) التراخي الرتبي لا الزمني، وذلك أن سياق سورة الشعراء يذكر تكبر فرعون وإعراضه وظلمه، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي

---

[1] روح المعاني، ١٦٩/٢٩.

[2] انظر: من أسرار حروف العطف، ٤٠.

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٨].

فالسياق مركز على فرعون وجنده، فكانت الإشارة بـ (ثم) في الإغراق للدلالة على عظم هذه النعمة، وإبراز عظم القدرة في أخذ فرعون وجنده، بينما كان السياق في سورة البقرة، سياق تعديد نعم فحسب، فقال: "فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون"، كما أنه ليس لفرعون وجنده ظهور على مسرح الأحداث هناك كما هو الحال في سورة الشعراء، فأدى الاختلاف في المقال إلى اختلاف نظم الكلام تبعاً له.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى -مخاطباً المؤمنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

فقد عدل السياق عن (الواو) إلى (ثم) فقال: "ثم وليتم مدبرين"، ولم يقل: "وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ووليتم مدبرين"؛ ليصور الحالة النفسية التي انتابت المسلمين في حنين عند هزيمتهم، إذ صورت "ثم" شدة وطأة الزمن، واستطالته في ذلك الموقف العصيب الذي أصابتهم فيه الدهشة والحيرة والاضطراب "ثم وليتم مدبرين" ولو أتى (بالواو) لما أفاد تلك الدلالة[1].

ومنه أيضاً في قوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

ونلحظ في هذا السياق القرآني نبرة التحدي ظاهرة بارزة على لسان نبي الله نوح عليه السلام، في مخاطبة قومه الذين أعرضوا عن دعوة الله -عزوجل- فدعاهم إلى أن

---

[1] انظر: من أسرار حروف العطف، ١٦٤، والتحرير والتنوير، ١٠/١٥٧.

يــتَّحدوا هــم وشركاؤهم ضدَّه للفتك به، وأمهلهم بأن يتدبَّروا أمرهم علانية على الملأ لا غمــة فيه، ثم أمهلهم أخرى في إعداد عُددهم وعدَّتهم للفتك به والقضاء عليه. فإذا تسنى لهم ذلك فليقضوا عليه دون أي إنظار منهم له أو إمهال، فدل العدول إلى (الواو) على نفي وجــود أدنـــى زمن للمهلة والإنظار، وفي ذلك إمعان في التحدي لهم وعدم المبالاة بهم، وعظم ثقته بالله -عزوجل- ولو اطرد السياق بـــ (ثم) لما كان فيه من الدلالة على ذلك ما ذكر.

٣- العدول عن (الفاء) إلى (ثم) والعكس:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَــا نَحْــنُ لَــكَ بِمُؤْمِنِــينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْــهَدُواْ أَنِّــي بَــرِيءٌ مِّمَّــا تُشْــرِكُونَ مِــن دُونِــهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣-٥٥].

فعطف طلب الكيد بـــ (الفاء) وعدم الإنظار بـــ (ثم). وجاء على العكس من ذلك فـــي تحدي الرسول ﷺ للمشركين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُــونَ بِهَــا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥]. فعطف طلب الكيد بـــ (ثم) وعدم الإنظار بـــ (الفاء).

والـــذي يبدو -والله اعلم- أن سياق سورة الأعراف فيه تسفيه لهذه الأصنام التي اتخذوها أنداداً من دون الله -عزوجل-، ثم ارتفعت نبرة التحدي في الخطاب، فوجه الله -عزوجل- الأمر لنبيه ﷺ أن يتحدَّى المشركين بأن يدعو هؤلاء الشركاء ويتضامنوا معهم فـــي الكــيد له "وأمهلهم من الزمن ما يتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد لـــه، فعطف

الأمـــر بالكـــيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة؛ إمعاناً في الاستهانة بالشركاء، وعـــدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بـــ (الفاء) إغراقاً في التحدي والاستهانة حـــين لا يطلـــب لنفســـه نفس المهلة للرد على كيدهم"[1]. فطلب معاجلتهم بالقضاء عليه، والإيقاع به، وفي ذلك من الاحتقار لهم والتهكم بهم ما فيه.

أمـــا فـــي سورة هود فقد ادعى قوم هود أن آلهتهم المزعومة قد مست هود بسوء وأنهـــا تضـــر وتـــنفع، فعندئذ باشرهم بالتحدي السريع دون مهلة "لأنهم ما داموا يثبتون لآلهتهم هذه القدرة على إنزال الضُرِّبه فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهالهم لحشـــد قـــواهم، فهـــم قد بدأو حربه بالفعل، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل (الفاء) على الأمر بالكيد لتدل على طلب المبادرة به"[2].

ثـــم عدل بعد ذلك إلى (ثم) ليعطي لهم ولآلهتهم المزعومة مهلة طويلة من الزمن حتى يبلغوا في الكيد غايته. وقد أثبتت الياء في (فيكيدوني) "لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بـــ (ثم)، فيتسق طول النطق في التعبير مع طول الزمن في الإمهال"[3].

وثم إنهم ذكروا أن آلهتهم اعترته بسوء، فكانت نبرة التحدي لديه أشد وآكد فتحدى الجمـــيع بقولـــه: "فكيدوني جميعاً"، ثم أظهر نفسه في التحدي وذلك بإثبات الياء زيادة في التحدي لهم والظهور"[4].

---

(1) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، محمد الأمين الخضري، ٢٨٦-٢٨٧.

(2) المصدر السابق، ٢٨٧.

(3) نفسه، ٢٨٧.

(4) انظر: التعبير القرآني، ٨١.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[المدثر: ١٨-٢٥].

فنجد هذا السياق القرآني العجيب قد مضى في اطراد في تكرار (ثم)، فقال: "ثم قتل ..ثم نظر .. ثم عبس.. ثم أدبر .. فقال"، ثم عدل عن (ثم) إلى (الفاء) فجأة في قوله بعد ذلك: (فقال) إن هذا إلا سحر يؤثر"، ولم يطرد السياق فيكون: "ثم قال إن هذا إلا سحر يؤثر).

وعندما نمعن النظر في هذا السياق نجد أن حرف التراخي (ثم) قد صور لنا أبلغ تصوير حالة الصراع النفسي الذي عاشه الوليد بن المغيرة الذي نزلت في شأنه هذه الآيات، وكيف أنه أجال التفكير في شأن القرآن وأعوزته الحيلة بعد مهلة من الزمن وتريث فلم يجد ما يعيب به القرآن، ثم بعد ذلك كله سارع إلى إلقاء كلمة مفتراة في وصف هذا القرآن العظيم بقوله: "إن هذا إلا سحر يؤثر". فدلت (الفاء) في قوله: "فقال إن هذا .." على أن هذا القول قد صدر منه دون إعمال نظر أو فكر في المقول، فلم يقل ما قاله عن قناعة ويقين، وكأنها كلمة ألقاها على عجل وولى هارباً مدبراً من شدّة الهزيمة النفسية التي حلت به[1].

ولو اطرد هذا السياق القرآني فكان "ثم قال إن هذا إلا سحر يؤثر". لدل على أن هذا القول قد قاله بعد إعمال فكر وتريث، ونظر واعتقاد ويقين، وليس الأمر كذلك.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٢٠].

---

[1] انظر: من أسرار حروف العطف، ١٦١، والتعبير القرآني والدلالة النفسية، ٢٥٦.

فقــد جــاء التعبير -في هذا السياق- عن تولي فرعون وجمعه الجموع والحشود والأعــوان، وكل ما يستطيعه من كيد بحرف العطف الفاء، فقال: "فتولى .. فجمع.."، ثم عدل في التعبير عن إتيان فرعون ومواجهته موسى عليه السلام إلى حرف التراخي (ثم)، حــيث قال: "ثم أتى". وكان مقتضى السياق أن يكون "فتولى فرعون فجمع كيده فأتى"، لا سيما أن جمع الناس وحشدهم والإعداد للمواجهة يحتاج إلى مهلة من الزمن، في حين أن الإتــيان بعد ذلك هو أيسر وأسهل، وكان التعبير في هذا السياق يقتضي العكس بأن يقول (ثــم جمــع كيده فأتى)، فمثل التعبير في هذا السياق خروجاً عن مقتضى الظاهر، وذلك لدلالة نفسية عميقة يوحي بها هذا السياق.

مفادهــا أن الجمع كان أهون على فرعون من مواجهة موسى عليه السلام، فدلت (الفاء) في قوله: "فجمع" إلى سرعة تحقق الجمع له وحشد الناس؛ لكونه ملكاً جباراً يخشى سطوته الجميع، فأمره بالجمع نافذ وسريع. وهو مع هذا كله يعيش هزيمة نفسية كبيرة في داخله من مواجهة موسى عليه السلام، فهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ لذا عبر القرآن عن هــذه الهــزيمة النفسية بحرف التراخي (ثم) بقوله: "ثم أتى". وإلى هذه النكتة في العدول أشــار أبو السعود بقوله[1]: "وفي كلمة التراخي إيحاء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد لأي وتلعثم".

وهو ما سرى في نفوس قوم فرعون وأعوانه أيضاً في قولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، "وكأني بهم وهم يطيلون زمن النطق بـــ (ثم) قبل الدعوة إلى لقائه يستهلكون الوقت، ويتهربون من المواجهة ويتمنون ألا تكون"[2].

---

[1] تفسير أبي السعود، ٦/٢٤.

[2] من أسرار حروف العطف، ١٦٣.

وفـــي ســـياق آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢].

جـــاء حـــرف العطف (الفاء) مع الفعل (أمليتُ) ثم عدل عنه إلى (ثم) مع الأخذ، فقـــال: "ثم أخذتهم". وكان مقتضى السياق أن يطرد على نسق واحد فيكون "فأمليت للذين كفـــروا فأخـــذتهم". لا سيما أن الأخذ بالعذاب فيه مباغتة وسرعة تقتضي حرف التعقيب (الفاء)، كما هو الحال في نظائره من القرآن نحو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]، و: ﴿فَكَذَّبُـــوهُ فَأَخَـــذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، و: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧]، و: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل: ١١٣].

إلا أن الســـياق أتـــى على هذا النحو، فأفادت (الفاء) العطف والترتيب بين حدث الإمـــلاء والاستهزاء أي: أن الإملاء ترتب حدوثه وحصوله على الاستهزاء، وأتى عقبه (استهزيء ← فأمليتُ)، وهذا من إمهال الله -تعالى- للكافرين من خلقه، ثم عدل إلى (ثم) مع ذكر العذاب، فأفادت المهلة وتراخي الزمن وامتداده بين الأخذ والإملاء، وفي هذا قطع لمعاذير الكافرين أمام الله -عزوجل- حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وكما أفادت (ثم) -هنا- التراخي في الزمن الحسي، فإنها تحتمل أيضاً الدلالة على تراخي الزمن النفسي في وقع الأخذ والعذاب على نفوس متلقيه، فعلى الرغم من أن لحظة العذاب والإهلاك كانت مباغتة وسريعة إلا أنّ في (ثم) تصوير لطول الزمن النفسي الذي أحس به القوم في لحظات العذاب التي مروا بها(١).

ونختم حديثنا عن العدول في حروف العطف بالوقوف على آية من آيات الإعجاز يـــتحدث فيها المولى عزوجل عن أطوار خلق الإنسان، فيكشف فيها الأداء البياني الدقيق

---

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية، ص ٢٥٩.

عــن ملمح علمي عميق، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْــنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامــاً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهــذه الآيــات القرآنية تتحدث عن أطوار خلق الإنسان، لكنها عبَّرت ابتداء عن بعــض هــذه الأطوار بــ (ثم)، ثم عدلت عند الحديث عن طور المضغة، وما بعده إلى حرف عطف (الفاء)، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (ثم) في هذا السياق قد أفادت معنى الاســتبعاد، أي: أنهــا توحــي بدلالة التفاوت والتباين بين هذه الأطوار. فبعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بــ (ثم)، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والــبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة"[1].

ويقول فضل عباس -من العلماء المعاصرين-[2]: "نحن نرى أن هناك أطواراً لم يستعمل القرآن فيها إلا حرف التراخي "ثم"، وهذه الأطوار طور التحول من سلالة الطين إلــى نطفــة، وطور التحول من النطفة إلى العلقة، وأمر (ثم) ظاهر في هذين الطورين؛ لأنهما مختلفان من حيث الطبيعة والخاصية والعنصر، فشتان ما بين التراب (السلالة من طــين)، وبين النطفة (الحيوان)، أما النطفة والعلقة فربما يظن أنهما شيء واحد أو قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما بوناً وفرقاً، إذ النطفة من خصائص أحد المتزاوجين وهو الذكر. وأما العلقة فلن تكون كذلك إلا إذا اشتركا فيها جميعاً".

---

[1] حاشية الشهاب، ٦/٣٢٣، وانظر: روح المعاني، ١٨/١٥.

[2] المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، م١١، ع٤، ١٩٨٤، ص ١٢٢.

وأمـــا الـــتحول مـــن علقـــة إلى مضغة، فالعلقة فيه أصل للمضغة تحولت عنها وتطورت، وليس بينهما تباين أو اختلاف كبير في الخصائص والتركيب كما هو الحال في الأطوار السابقة؛ لذا حسن مجيء (الفاء) هنا. فقال: "فخلقنا العلقة مضغة".

ولكـــن يســـتوقفنا في هذا المقام سياق سورة الحج في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنــتُمْ فِـــي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

فقد عطف بين هذين الطورين بـــ (ثم) فقال: "ثم من علقة ثم من مضغة"، وقد علل فضـــل عباس ذلك فقال[١]: "وأما استعمال الفاء فلأن الطورين ليس بينهما فرق من حيث العنصـــر والخصـــائص، وأما استعمال (ثم) في آية الحج؛ فلأنها جاءت في سياق البعث الذي هو أدل على القدرة الإلهية، فالمقام مقام تفصيل".

ومع هذه اللفتة البيانية التربوية نلمح اللفتة العلمية المدهشة: "لمن يسأل، لماذا قال الله -تعالى- في الآية الكريمة: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]. ثم في هذه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: ٥]؟

فالجواب بأن الله تعالى هنا بين أدوار النشأة بتسلسل متبوع من تراب، ثم من نطفة ثـــم مـــن علقة ثم من مضغة، ليبين الأطوار التي يمر بها الإنسان، فالنطفة تمر بأطوار، والعلقة لا تبلغ المضغة إلا بعد أن تتقسم في أدوار، أما في الآية الكريمة السابقة فقد أرانا الله نصـــيب كـــل دور، ووقـــت كـــل طور فجاء بالعطف بـــ (الفاء) ليبين قصر الدور، وبالعطف بـــ (ثم) ليبين التعقيب مع التراخي؛ أي: طول هذا الطور"[٢].

---

[١] المفردات القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز، ١٢٢.

[٢] بين الطب والإسلام، حامد الغوابي، ٢٦.

فالعطف بـــ (الفاء) في قوله تعالى: "فخلقنا العلقة مضغة" جاء لتوضيح قصر فترة هـــذا الطور مقارنة بغيره من الأطوار المذكورة سابقاً، وفي سياق ذكر (ثم) كان التركيز علـــى طـــول هذا الطور في نفسه هو، فهو يمر بأدوار ومراحل في نفسه، لكنه مع ذلك قصير بالنسبة للأطوار السابقة له.

واختصت سورة الحج بورود العطف فيها بـــ (ثم) خلافاً لسورة (المؤمنون)، ولم يرد العكس لأن المخاطب في آية الحج منكر فيها للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فاستدعى مقام الإنكار تعديد الأطوار ، وإبراز مراحل الطور الواحد في صورة أطوار متعددة، باعد بينها حرف التراخي؛ ليظهر عظيم قدرة الله في أن يخلق الشيء من أبعد ما يكون عنه مادة وجِنساً"[1].

ثالثاً: العدول في حروف النفي

نجـــد أن التعبير القرآني قد خالف في الاستعمال بين أداتي النفي بـــ (ما) و(إنْ)، فعدل في الأسلوب عن (ما) إلى (إنْ) كثيراً.

وقـــد ذكر النحاة أنَّ (إنْ)[2]: حرف نفي يدخل على الجملة الفعلية والاسمية، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]. أي: مـــا أردنـــا إلا الحســـنى. وقـــال مجاهد (ت ١٠٣هـــ): "كل شيء في القرآن (إنْ) فهو إنكار"[3].

---

(1) من أسرار حروف العطف، ٢٧٦.

(2) انظر: مغني اللبيب، ٣٣-٣٤، وحاشية الدسوقي، ٢٤/١، ومعاني القرآن، الفراء، ٢١٤/٢، ٣٧٠، والكشاف، ٣٧٤/١.

(3) الإتقان في علوم القرآن، ١٥٥/١.

وقــال الراغب (ت ٥٠٢هــ) في (إنْ) هذه[١]: "وأكثر ما يجيء يتعقبه (إلا) نحو: ﴿إِن نَّظُــنُّ إِلَّــا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]. و: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]. و: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ﴾ [هود: ٥٤]".

وكذلك الحال مع حرف النفي (ما) فهو يدخل على الجملة الفعلية والاسمية. ويذكر النحاة أن (إنْ) بمنزلة (ما) في نفي الحال[٢].

ويقــول برجشتراسر[٣]: "و(إنْ) تكاد تطابق (ما) في وظيفتها، وأكثر وقوعها قبل (إلا) للجناس بينهما نحو ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[يوسف: ٤٠]".

ويذكــر أحمد ماهر البقري في أساليب النفي في القرآن أنه[٤]: "لا نكاد نجد فرقاً بين (إنْ) و(ما) إذ هما لنفي ما في الحال غالباً".

والحقيقة أن التعبير القرآني قد فرق بينهما في الاستعمال من خلال ما نلحظه من المخالفة بينهما، والعدول عن حرف إلى آخر منهما.

وقــد تتبع فاضل السامرائي المخالفة بين الأداتين في الاستعمال القرآني فوجد أن النفــي بــ (إن) آكد من (ما)[٥]: "يدل على ذلك اقترانها الكثير بــ (إلا)، وهذا ما يعطيها قــوة وتأكــيداً، فــإن فــي القصر قوة"، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

[١] مفردات القرآن، ٢٧.

[٢] انظر: المفصل، الزمخشري، ٣٠٧، والهمع، ٢/١١٦.

[٣] التطور النحوي: ١٧٤.

[٤] أساليب النفي في القرآن، ٩٣.

[٥] معاني النحو، ٤/٢٠٠.

ونضـيف إلى ما قاله السامرائي أن (ما) قد تأتي مقترنة بـ (إلا)، ولكن هذا ليس هـو الغالب في استعمالها، في حين أن (إن) النافية غالب في استعمالها اقترانها بـ (إلا)، والقصر بـ (إلا) يرد للتأكيد، وذلك يوحي بقوتها في التأكيد أكثر من (ما).

ومـن خلال السياقات القرآنية التي وردت فيها (إن) النافية، نجد أن النفي بها آكد وأقوى، وهذا يفسر لنا دلالة المخالفة في السياقات القرآنية التي ورد فيها العدول عن (ما) إلـى (إن)، نحو قوله تعالى على لسان النسوة: ﴿مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف،٣١].

فقد جاء النفي ابتداء بـ (ما) فقال: "ما هذا بشراً" ثم عدل عنه إلى النفي بـ (إن) فقـال: "إن هذا إلا ملك كريم"، ولم يطرد السياق على نمط واحد من النفي فيكون "ما هذا بشراً ما هذا إلا ملك كريم"؛ وذلك لأن نفي البشرية عنه أهون من إثبات وصف الملائكية له، فأتى بـ (إن) فيما هو آكد، إمعاناً في تأكيد صفة الملائكية له في الحسن والهيئة ونفي ما سواها عنه.

إذ القصر بـ (إلا) يفيد دلالتي النفي والإثبات معاً[1]، فقد أثبت له صفة الملائكية، ونفى عنه ما دونها.

و مـنه قولـه تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

فأتـى بحـرف النفي (ما) ابتداء فقال: "ما أنتم إلا بشر .. وما أنزل الرحمن"، ثم عدل بعد ذلك إلى (إن) فقال: "إن أنتم إلا تكذبون" ولو جرى السياق على نسق واحد لكان "وما أنتم إلا تكذبون".

---

[1] انظر: معاني التراكيب، عبدالفتاح لاشين، ٢/٨-٩.

ويــرجع هذا إلى أن "نفي الثاني أقوى فجاء به بـــ (إنْ) فإن الأول إثبات البشرية، والثاني الكذب، وهم بشر لا شك في ذلك فجاء به بما، والثّاني إثبات الكذب للرسل -عليهم السلام- وإنكار أن يكونوا صادقين وهو يحتاج إلى توكيد أكثر فجاء به بـــ (إنْ)"[1].

وهــذا الأمــر يطرد في التعبير القرآني، فحيثما وجد النفي بـــ (إن) فهو آكد من النفي بـــ (ما).

ومــنه ذلــك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فقد اطرد النفي بـــ (ما) في السياق كله إلا قوله: "إن هم إلا يظنون"، فقال: "ما هي إلا .. وما يهلكنا .. وما لهم بذلك .. وإن هم"، وسبب هذا العدول إلى (إن) النافية هنا، أن هــذا التعقيب هو رد من المولى -عزوجل- على كلامهم السابق، فناسب ذلك الإمعان في التأكــيد علــى مــرحلتين: الأولى: بالنفي بـــ (ما) في قوله: "ما لهم بذلك من علم" بدليل مجــيء (مــن) للتأكيد في قوله: "من علم"، فأفادت نفي وجود أي شيء لهم من العلم، ثم ارتقى التأكيد بالنفي -في المرحلة الثانية- إلى مستوى أعلى من سابقه، فقال: "إن هم إلا يظنون" فكانت (إن) هنا أنسب في التأكيد من (ما).

وهو ما يظهر لنا جلياً أيضاً في خطاب نبي الله شعيب عليه السلام لقومه، بقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

فعــدل فـــي النفي عن (ما) إلى (إن) فقال: "إن أريد إلا الإصلاح"، ولم يقل: "وما أريد إلا الإصلاح" فيطرد النفي بـــ (ما)؛ لأن نبرة التأكيد قد ارتفعت لدى نبي الله شعيب

---

[1] معاني النحو، ١/٢٥٨.

عليه السلام فأمعن في التأكيد لقومه المكذبين له بقوله: "إن أريد إلا الإصلاح"، مؤكداً بذلك هدفه من رسالته ودعوته.

ويستوقفنا في هذا المقام قول المولى -عزوجل- مخاطباً نبيه -ﷺ- بقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢-٢٣].

فلم يطرد النفي بـ (ما) فيكون "وما أنت إلا نذير" كما قال "وما أنت بمسمع من في القبور"؛ وذلك لأن النفي في الأولى "وما أنت بمسمع من في القبور"، أمر مسلم به فلا يحتاج إلى مزيد تأكيد، فإسماع الموتى أمر مستحيل تصوره وحصوله، سواء أكانوا موتى القلوب أم موتى الأجساد، لكنه عدل بعد ذلك إلى (إن)، فقال: "إن أنت إلا نذير"؛ لأن المولى -عزوجل- أراد في هذا السياق الإمعان في التأكيد لنبيه -ﷺ- أنه نذير فحسب، ولا يملك القدرة على هداية قلوب الخلق، وإنما وظيفته الإنذار.

والرسول -ﷺ- يعلم أنه نذير، فما دلالة التأكيد بالقصر في هذا السياق؟

والجواب: "أنهُ نزلَ الرسول -ﷺ- منزلة من يعتقد أنه يملك مع صفة الإنذار القدرة على هداية الناس؛ لأنه لما كان جاهداً في دعوة القوم، شديد الحرص على هدايتهم، صار في حكم من يظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفة الهداية، فجرى الأسلوب كما يجري في خطاب الشك فقيل: "إن أنت إلا نذير"[1].

وبناء على ذلك فيمكننا تعليل العدول عن (ما) إلى (إن) في مشتبه النظم القرآني في السياقات المختلفة، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿ مَا هَـذَا إِلَّـا أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ص ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

---

[1] عبدالفتاح لاشين، ٢/٢٧، وانظر: دلائل الإعجاز، ٣٣٤.

فكـل السياقات التي ورد فيها النفي بـ (لن)، النفي فيها آكد من السياقات الأخرى التي ورد فيها النفي بـ (ما). وسياق المقام هو الذي يقتضي ذلك ويحدده[1].

وقـد يـرد العـدول في النفي متمثلاً في المخالفة بين (لم) و(ما)، وعلماء النحو يذكـرون أن (لـم) تـدخل على المضارع فتقلب زمانه إلى الماضي، و(ما) تنفي الفعل الماضي، فتقول: (لم أذهب) و(ما ذهبت) فيفيدان الدلالة على المضي.

ولكـن هـل النفي بـ (لم) و(ما) يتماثلان، فيكون النفي في (لم أذهب) هو معنى النفي (ما ذهبت)؟ وأن جملة (لم أذهب) هي في المعنى (ما ذهبت) لتحول الفعل المضارع إلى الماضي مع (لم)، أم أن هناك فرقاً دلالياً بينهما؟

ويرى الباحث أن (لم) و(ما) ليستا متماثلتين تماماً في النفي، بل بينهما فرق دقيق، "فليس من حكمة العربية أن تجعل أداتين مختلفتين متشابهتين تماماً في المعنى، ولا بد أن يكون لكل واحد منهما خصوصية ليست في الأخرى"[2].

"والعربية تميل إلى التفريق والتخصيص"[3].

وقـد ذهـب بعـض علمـاء اللغة المعاصرين إلى التفريق بينهما؛ فيرى إبراهيم أنـيس[4]: "أن (لم) منحوتة من (لا) و"ما"، ويترتب على ذلك التأصيل أنها آكد من النفي بأداة بسيطة مثل (ما)، أو على الأقل "لا يمكن أن يصبح النفي بـ (لم) أضعف من النفي بـ (ما)"".

وكذلك قال براجشتراسر عن "لم"[5]: "إنها ربما ركبت من "لا" و"ما" الزائدة".

---

(1) انظر في ذلك: معاني النحو، ١/٢٥٨، ٤/٢٠٢-٢٠٤، والتعبير القرآني، فاضل السامرائي، ١٥١.

(2) معاني النحو، ١/٢٥٢.

(3) التطور النحوي، ٩٠.

(4) من أسرار اللغة، ١١٥، وانظر: البرهان، ٢/٣٧٩.

(5) التطور النحوي، ١٧٣.

ويـــرى شـــيخنا الدكـــتور سمير استيتية[1]: "أن النفي بـــ (لم) الداخلة على الفعل المضـــارع تفيد استغراق النفي لكل جزيئات الزمن الماضي، في حين أن النفي بـــ (ما) يفيد نفي الماضي بعمومه؛ لذلك كان نفيها آكد من (ما).

وهـــو مـــا نجده واضحاً في الاستعمال القرآني من ذلك قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

"فجـــاء بـــ (لم) وذلك لأن تغير الشراب والطعام يحصل تدريجياً ويستمر، وليس دفعـــة واحدة، فجاء بـــ (لم) للدلالة على أنه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء بـــ (ما) وقال (ما تسنه) لأفاد نفي التسنّه وهو التغير بصورته النهائية التامة"[2].

ونجد هذا المعنى في تأكيد النفي بـــ (لم) واضحاً أيضاً في قول العذراء: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

فهـــو إمعـــان فـــي النفي من أن تكون قد تلبست بهذا الوصف في أي مرحلة من مراحل حياتها؛ فضلاً من أن يكون هذا وصفاً معروفاً لها.

فـــي حين كان خطاب قومها لها: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. فجاء النفي مـــنهم بـــــ (ما)، فلم يقولوا: (ولم تك أمك بغياً)؛ لأنه ليس بمقدورهم الإطلاع على كل أزمـــنة حياة أمها حتى يصدر النفي منهم بصيغة التجدد والحدوث، وإنما جاء النفي منهم بصيغة العموم ، فقالوا: (وما كانت أمك بغياً)، فهذا هو المعروف والمشهور للناس من

---

(١) سماعاً منه.

(٢) معاني النحو، ٤/١٩٦.

حال أمها بصفة العموم؛ لذا كان النفي منها أبلغ وأدق وأنفى للتهمة؛ لكونها أدرى بكل لحظات حياتها وتصرفاتها(١).

ومما سبق يتضح أن النفي بـ (لم) للفعل المضارع يفيد نفي أدنى درجات حدوث الفعل في زمنه الماضي، فالفعل في حدوثه يمر بمراحل متفاوتة في التحقق والحصول، ونفيه بـ (لم) يقع على أولى فترات تشكله وحدوثه، كما أنه يفيد استغراق النفي للزمن الماضي بكل جزئياته، في حين أن النفي بـ (ما) يفيد نفي الحدث في الماضي بصورته النهائية وبعمومه(٢).

ومن هذا التفريق الدقيق في دلالة النفي بـ (لم)، والنفي بـ (ما) يمكننا معرفة سر العدول في التعبير القرآني عن (لم) إلى (ما)، في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

فالنفي بـ (لم) في: "لم يك من المشركين"، أفاد الإمعان في نفي تلبسه -عليه السلام- بأي شكل من أشكال الشرك، وفي أي زمان من أزمنة حياته، وهو ما أوضحه ابن عاشور بقوله(٣): "فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط". وزاد في تأكيد ذلك حذف (الكاف) من الفعل (يك). وناسب مجي النفي بـ (لم) في هذا السياق؛ لأنه سياق ثناء وتفصيل في مدح إبراهيم -عليه السلام- فقد جاء بعد ذلك قوله: ﴿شَاكِراً

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٣٩٥/٢.

(٢) لا يتفق الباحث في هذا الأمر مع فاضل السامرائي فيما ذهب إليه في كتابه معاني النحو (١٩٣/٤) من أن النفي بـ (ما) آكد من النفي بـ (لم)، فما ذكرناه في هذا المقام من أقوال العلماء وما تدل عليه سياقات نصوص القرآن يدلل على ما قررناه هنا.

(٣) التحرير والتنوير، ٣١٦/١٤، وانظر: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، حواس برّي، ٢٩٤.

لأنْعُمِــهِ اجْتَــبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ • وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢١-١٢٢].

وأمـــا قـــولـــه بعد ذلك (وما كان من المشركين)، فهو نفي للشرك عنه على وجه العمـــوم؛ وذلك لأن السياق سياق خطاب للنبي ﷺ وهو يعلم ذلك، فليس المقام بحاجة إلى مزيد تأكيد.

ويمكنـــنا أيضـــاً مما سبق الوقوف على سر العدول في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـــكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـــكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

فعدل عن النفي بـــ (لم)، في قوله: "فلم تقتلوهم..."، إلى النفي بـــ (ما) في قولـــه: "ومـــا رميت"، ولم يقل: "ولم ترمهم إذ رميت"، وذلك لأن النفي بـــ (ما)، في قوله: "وما رمـــيت" نفي للفعل بصورته النهائية المكتملة لا لأصل حدوثه ابتداء، فالرمي من الرسول ﷺ حاصل، بدليل قوله: "إذ رميت"، "فقد كان منه رمي حقيقة وصورة، ولكنه ليس بالرمي الذي يقدر به إيصاله إلى جميع العيون"[1].

ولـــو قـــال: "ولم ترمهم إذ رميت" لكان الكلام خُلفاً؛ لأنه يكون قد نفى نفياً جازماً يستغرق كل جزئيات الحدث بكل صوره وأزمنته، وهو ما يتعارض مع قوله بعد ذلك (إذ رميت)، فكان مجيء (ما) في هذا السياق أدق وأنسب، ويقتضيه المعنى دون ريب.

رابعاً: العدول في الشرط:

نجد في هذا المقام أن التعبير القرآني يخالف في الاستعمال بين أدوات الشرط، إذ يعدل من أداة إلى أُخرى في السياق نفسه، وذلك لدلالة مقصودة.

---

(1) محاسن التأويل، القاسمي، ٢٩٦٧/٨.

ومن أبرز مظاهر العدول في ذلك، العدول عن (إن) إلى (إذا)، وقد تقرر عند علماء النحو والبلاغة أن (إن) تأتي في سياق ذكر المشكوك تحققه، وغير المجزوم وقوعه، في حين ترد (إذا) على النقيض من ذلك فهي تستعمل للمقطوع حدوثه والكثير حصوله.

ونجد بذور هذا التفريق الدلالي بين (إن) و(إذا) عند صاحب الكتاب، يقول سيبويه[1]: "وسألت الخليل (ت ١٧٧هـ) عن (إذا) ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في (إذا) بمنزلته في (إذ) إذا قلت: أتذكر إذ تقول، فإذا في ما تستقبل، بمنزلة إذ فيما مضى، ويبين هنا أن (إذا) تجيء وقتاً معلوماً، ألا ترى أنك لو قلت: آتيك إذا احمرَّ البُسْرُ، كان حسناً، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان قبيحاً، فـ (إن) أبداً مبهمة".

ومراد سيبويه من ذلك أن (إذا) تدخل على الأمر المتحقق حصوله وحدوثه، فاحمرار البسر أمر محقق حصوله، وزمن احمراره معروف لدى العرب، لذلك حسن دخول (إذا).

وقال المبرد (ت ٢٨٥هـ) في المقتضب[2]: "فإذا قلت: "إنْ تأتني آتك" فأنت لا تدري أيقع منه إتيان أم لا؟ وكذلك (من أتاني أتيته)، إنما معناه: إن يأتني واحد من الناس آته، فإذا قلت: إذا أتيتني، وجب أن يكون الإتيان معلوماً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، و:﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، و:﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]. إنَّ هذا واقع لا محالة؟ ولا يجوز أن يكون في موضع هذا (إن) لأن الله -عزوجل- يعلم، و(إن) إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر، وليس

---

(1) الكتاب، ٣/٦٠.

(2) المقتضب، ٢/٥٦.

هذا مثل قوله: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ لأن هذا راجـــع إليهم، وتقول: آتيك إذا احمر البسر، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر كان محالاً؛ لأنه واقع لا محالة".

ومـــا ذهب إليه النحاة والبلاغيون من التفريق الدلالي بين (إن) و(إذا) يشهد لـــه الـــذوق البلاغـــي فـــي استعمال القرآن الكريم لهما من خلال المخالفة بينهما في السياق الواحد.

فمـــن ذلك قولـــه تعالى: ﴿فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ [البقرة: ٢٣٩].

فجاء في حالة الخوف بـــ (إن) لأنها حالة طارئة ونادرة، ثم عدل عند ذكر الأمن إلى (إذا) لأن الأمن هو الأصل في حياة الناس.

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ١٠١].

فجـــاء بـــ (إذا) في الضرب في الأرض؛ وذلك لأنه كثير ومتكرر في حين عدل إلـــى (إن) عند ذكر الخوف؛ لأن الخوف حالة نادرة وقليلة بالنسبة إلى غيرها من حالات الأمن.

ومنه قولـــه تعالى -في آيات الأحكام: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجـــاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا ... وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٠-٢٣١].

فأتـــى بـــــ (إن) فـــي الطلاق ثلاثاً؛ لأن نادر الوقوع والحصول ولا يرغب فيه المشـــرع، كما أنه لو حصل فإن طلاقها من الآخر ورجوعها إلى الأول أمر مشكوك فيه

ونادر الوقوع أيضاً، في حين أتى بـــ (إذا) في قوله: "وإذا طلقتم النساء"، وهذا في الطلاق الرجعي العادي، وهو كثير الوقوع والحصول.

وأشــار علمــاء البلاغة[1]: "أنه لما كانت (إذا) تدخل على الأمر المجزوم تحققه وحصـــوله، فالغالب دخولها على الفعل الماضي؛ لدلالته على تحقق الفعل وحصوله، في حين أن الغالب مع (إن) دخولها على المضارع".

وذلـــك نحو قولـــه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

"فقــد جـــيء فيه بلفظ (إذا) في جانب الحسنة حيث أريدت الحسنة المطلقة لا نوع مـــنها، كمـــا في قوله تعالى: "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله"؛ لكون حصول الحسنة المطلقة مقطوعاً به كثرة ووقوعاً واتساعاً، ولذلك عرفت ذهاباً إلى كونها معهودة ....، وجـــيء بلفظ (إن) في جانب السيئة مع تنكير السيئة إذ لا تقع إلا في الندرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة، ولا يقع إلا شيء منها"[2].

فأفادت (إذا) في هذا السياق الدلالة على الجزم واليقين في حصول الحسنة والكثرة في الوقوع والاتساع، ودلَّ على ذلك: أيضاً مجيء فعل الشرط ماضياً للدلالة على التحقق والحصـــول، في حين دلت (إن) على الندرة والقلة في وقوع السيئة، ودلَّ على ذلك أيضاً مجيء الشرط فعلاً مضارعاً، وهو دون الماضي في التحقق والحصول.

ومـــنه أيضـــاً قولـــه تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

---

[1] انظر: البرهان، ٣٦٢/٢، والإيضاح، ١١٧/٣.

[2] مفتاح العلوم، ٢٤١.

ففـــي مجـــيء (إذا) مـــع فعـــل الدعوة إلى التوحيد، دلالة على تحقق هذه الدعوة وتكـــرارها حتى إنها لتكاد تقرع آذانهم لكثرة تكرارها، في حين دل مجيء (إن) مع فعل الشـــرك علـــى أنهـــم كانوا يستجيبون لأدنى داعٍ للشرك والكفر بالله، وفي هذا توبيخ لهم وتقريع أيّما تقريع. وساعد على هذا المعنى أيضاً مجيء فعل الكفر ماضياً "كفرتم" إشارة إلى مسارعتهم إلى الكفر وتحققه منهم[1].

وقد عمل علي فودة إحصاءً لاستعمال (إن) و(إذا) في القرآن الكريم فوجد أن (إن) الشـــرطية وردت في أربعة وخمسين وخمسمائة موضع من القرآن، في حين وردت (إذا) الشـــرطية تســـعاً وثلاثمائة مرة تقريباً[2]. وفي كل الحالات السابقة كانت (إذا) تدل على تحقـــق الحدث أو الكثرة في الوقوع، في حين وردت (إن) فيما يحتمل الوقوع وعدمه، أو في الذي يحدث قليلاً، وهو ما يؤيد ما ذهب إليه علماء البلاغة والنحو في ذلك.

وفـــي هـــذا الإحصـــاء وما سبق ذكره من أقوال العلماء في التفريق الدلالي بين الحـــرفين، وما وقفنا عليه من الآيات السابقة، فيه رد على ما ذهب إليه مهدي المخزومي في قولـــه[3]: "و(إن) و(إذا) تستعملان فيما يحتمل تحققه، وعدم تحققه، لا ترجيح لأحدهما علـــى الآخـــر". "وهـــذا الكلام فيه تجاهل لما قاله علماء النحو والبلاغة في التفرقة بين استعمال هاتين الأداتين، وتجاهل لما يشهد به الذوق في استعمال القرآن لهما في المعاني المختلفة"[4].

---

(1) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٧٦.

(2) "الشـــرط بـــــ (إن) و(إذا) فـــي القـــرآن الكريم"، علي فودة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م٤، السنة الرابعة، ١٩٧٦، ٦٠-٦١، ومعاني النحو، ٤/٧٧.

(3) في النحو العربي، قواعد وتطبيق، ٤١، وانظر كذلك: في النحو العربي نقد وتوجيه، ٢٩٦.

(4) الشرط بـــ (إن) و(إذا) في القرآن، علي فودة، ٦٢.

المبحث الثاني

العدول في حذف الحرف وذكره

هــذا النمط يرد بكثرة في التعبير القرآني، والذي يهمنا في هذا المقام هو العدول عــن ذكر الحرف نفسه إلى حذفه، أو العكس، في السياق ذاته؛ لأن هذا العدول يدعو إلى التســاؤل عن سبب عدم الإطراد في الذكر والحذف للحرف، وهو ما يمثل عدولاً بيّناً في هذا المقام، ولا يعنينا الذكر والحذف لحروف المعاني بشكل عام.

النمط الأول: العدول عن ذكر الحرف إلى حذفه

ويمكنــنا فـــي هــذا المقام، ذكر نماذج على هذا النوع من العدول نعنى بتعليلها، وتحليلها، لمعرفة سر العدول فيها، فمن هذه الأشكال:

١. العدول عن ذكر (اللام) الواقعة في جواب الشرط إلى حذفها.

كمــا ورد فــي قــولــه تعالــى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَــرَأَيْتُمُ الْمَـــاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠].

واللافــت للنظـــر في هذا السياق القرآني البديع أن الفعل (جعل) الذي هو بمعنى التحويل والتصيير، قد ذكر في السياق مرتين، مرة مع الزرع وأخرى مع الماء، وهو في الموضــعين جــواب الشرط "لو نشاء لجعلناه حطاماً"، و"لو نشاء جعلناه أجاجاً" لكنه في المــرة الأولى ذكر مقترناً باللام الواقعة في جواب الشرط، وفي المرة الثانية ذكر محذوفاً منه اللام.

ولمعـــرفة سبب ذلك يجب أن ندرك أن اللام الواقعة في الجواب تفيد مزيد تحقيق وتأكـــيد، فيزداد الفعل معها تأكيداً، وعند حذفها كان الفعل دون المرة الأولى في التأكيد،

ولعــل الســر في تأكيد الفعل (لجعلناه) مع ذكر الزرع في قوله: "لو نشاء لجعلناه حطاماً ...". وعن عدم التأكيد مع ذكر الماء راجع إلى أمور عدة[1]:-

أولاً: أن ذلك يرجع إلى قضية الجهد المبذول، فالإنسان مع الزرع يبذل مجهوداً كبيراً في الحرث والسقي مما لا يكون في نزول الماء من السماء، وهو ما يتوافق مع دلالة السياق، فقد أشارت الآية إلى ذلك: "أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" والشيء الــذي يــبذل فيه الإنسان جهداً وطاقة يكون ضياعه خسارة كبيرة وفادحة عليه- وهو ما شار إليه المولى عزوجل بقوله: ﴿فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون﴾.

وتفكهون: أي: تندمون على اجتهادكم فيه، ومغرمون: أي: مثقلون بالديون.

فلــذلك ناسب هنا مزيد التأكيد بقوله: (لو نشاء لجعلناه حطاماً)، في حين أن نزول الماء من السماء لم يبذل فيه الإنسان أي جهد، فلم يكن في ذهابه عنه من الغبن والحزن ما يكون في الأولى، لذا لم يحتج إلى مزيد تأكيد.

ثانــياً: أن ذلك راجع أيضاً إلى ما هو أهم، فالمطعوم مقدم على المشروب في حياة الناس يقول الزمخشري[2]: "إن هذه اللام" لجعلناه حطاماً" مفيدة للتوكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعــوم دون المشــروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد فأصعب، لأن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم".

ثالثاً: أن ذلك راجع أيضاً إلى التحويل والإعادة، فتحويل الماء العذب إلى ماء ملح "أسهل إمكانــاً فــي العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ....، لذا لم تــدخل لام التأكــيد المفــيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء

---

(1) انظــر في ذلك: التعبير القرآني، فاضل السامرائي ١٣٠-١٣١، وإعجاز القرآن، فضل حسن عباس ٢٠٣، وإعجاز القرآن البياني، صلاح الخالدي ١٩٦.

(2) الكشاف ٥٧/٤.

الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد، لذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره"[1].

وكذلك حال الإعادة، فالماء الملح يمكن إعادته إلى ماء عذب بواسطة وسائل تحلية متعددة على خلاف الزرع الحطام الذي يمكن إرجاعه إلى فاكهة وحب. فالحرمان فيه أشد فناسب مجيء اللام معه لزيادة التأكيد.

رابعاً: أن في ذلك تأكيداً على قدرة المولى -عزوجل-، فالسياق سياق تقرير بقدرة الخلق والإيجاد (نحن خلقناكم فلولا تصدقون،...) ولما كان للإنسان في الزرع جهد مبذول. فقد يدعــوه ذلك غروراً أن يعتقد أن ذلك الإنبات والزرع نتيجة جهده فحسب، فناسب مجيء اللام هنا للتوكيد، في حين أنه لا يدعي أحد القدرة على إنزال الماء، فلم يكن هناك حاجة إلى التأكيد[2].

٢. العدول عن ذكر (لام) التعليل إلى حذفها

مــن ذلــك قولــه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

فقــد عدل التعبير القرآني عن ذكر لام التعليل في (وليعلم) إلى حذفها في (ويتخذ) ثــم عدل إلى ذكرها فقال: ثم عدل إلى حذفها مرة أخرى فقال: (ويمحق). فيكون قد ذكر لام التعليل في الفعلين (ليعلم) و(ليمحّص) وحذفها من الفعلين (يتخذ) و(يمحق).

---

[1] روح المعاني ١٤٩/٢٧.

[2] انظــر فــي الوجوه السابقة كلاً: من البرهان للزركشي ٨٩/٣، الكشاف ٥٧/٤، تفسير أبي السعود ١٩٨/٨، وأسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل ١٧٧-١٧٨.

"وتظهـــر بلاغة هذا العدول في أن ما ذكر فيه اللام آكد مما لم يذكر فيه؛ ذلك أن العلـــة الأولـــى فـــي الآية أوسع وآكد وأهم مما يليها، فقوله: "وليعلم الله الذين آمنوا" هو غـــرض عـــام يشمل عموم الذين آمنوا في ثباتهم وتغيرهم وعموم سلوكهم علماً يتعلق به الجـــزاء، أمـــا اتخاذ الشهداء، فليس في سعة الغرض الأول، ولا شك أن الشهداء أقل من عموم المؤمنين والغرض الأول أعم"[1].

"وكذلك الأمر بالنسبة إلى قوله: "وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين"، فإن هـــذا نظير ما قبله، فإن تمحيص المؤمنين وإظهارهم على حقيقتهم، ومعرفة مقدار ثباتهم وإخلاصـــهم هـــو غـــرض عام وليس كذلك الغرض المعطوف فإنه ليس في سعة العلّة الأولـــى، فإنه سبحانه لم يمحق الكافرين على وجه العموم ولا أنه أخلى الأرض منهم بل بقي الكافرون مع المؤمنين على ظهر الأرض، ثم إن هذه الآيات نزلت بعد معركة (أحد) وقـــد محّـــص الله الذين آمنوا فيها ولم يمحق الكافرين فيها وإنما هو وعد بذلك فهو ليس بدرجـــة ما قبله من التوكيد، فإن الغرض الأول حصل وإن الثاني سيحصل، وهو إعجاز وذلـــك أنـــه أخبر بأنه يمحق الكافرين مع أنهم انتصروا وكان كما أخبر، وهذا توسع في المعنى من أكثر من وجه"[2].

ونخلـــص مـــن هـــذا الكلام إلى أن (لام) التعليل في هذا السياق أفاد ذكرها دلالة العموم والسعة والشمول، وفي حذفها خروج عن تلك الدلالة.

وعلـــى العكس من ذلك في سياق آخر أفاد ذكرها الخصوص، وهذا يدل على أن الســـياق هـــو الـــذي يحـــدد الدلالة المناسبة لذكر الحرف أو حذفه، من ذلك قوله تعالى:

---

(1) الجملة العربية والمعنى ١٩٦-١٩٧.

(2) السابق نفسه.

﴿اللَّــهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

قــال أحمد بن المنير (ت ٦٨٣هــ) [١]: "فإن قلت: هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا".

أو منها تركبون ومنها تأكلون وعليها تبلغون؟

ثم يجيب ابن المنير (ت ٦٨٣هــ) بقوله: والجواب أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هو الركوب، وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال فــي بلوغ الأوطار، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض، وأما الأكــل وبقــية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها، فهي وإن كانت حاصــلة مــنها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر، فلذلك جردت هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود".

والمقصــود بالأنعام هنا الإبل فتكون هذه اللام قد دلت على اختصاص هذا النوع مــن الأنعــام بالــركوب وبلوغ المنافع أكثر من غيرها، ودل حذفها من فعل الأكل فقال (ومــنها تأكلــون) ولــم يقل (ولتأكلوا منها) على أن هذه المنفعة وإن تحققت منها فليست مشهورة بها ومقصورة عليها، بل تحقق هذه المنفعة من غيرها حاصل ومشهور.

---

[١] حاشية الكشاف ٤٣٨/٣.

٣. العدول عن ذكر اللام الموطئة للقسم إلى حذفها

كمـــا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِـتَابِ لَـئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

فقد ذُكرت اللام الموطئة للقسم في قولهم (لئن أخرجتم لنخرُجَنَّ معكم) ثم عُدِل إلى حـذفها بعـد ذلك في قولهم (وإن قوتلتم لننصرنكم) وفي العدول إلى حذف اللام الموطئة للقسـم وهـي تفيد التوكيد دليل على أن المنافقين ليس عندهم النية أصلاً ولا القدرة على نصـر حلفـائهم، فذلك يحتاج منهم إلى التضحية بالمال والنفس، "بخلاف الخروج فهو لا يكلفهم ثمناً كبيراً، فكان التأكيد على الخروج دون النصرة، مما يشير إلى جُبْنهم من جهة، وخداعهم من جهة أخرى"[١].

٤- العدول عن ذكر لام التعريف إلى حذفها:

مـنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ **بِالْمَعْرُوفِ** ... وَالَّذِينَ يُـتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَـلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ **مِن مَّعْرُوفٍ** وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤-٢٤٠].

جاءت لفظة (المعروف) معرفة، في قوله: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف) ثم عدل عن التعريف إلى التنكير فقال: (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف)، ورافق العدولَ عن التعريف إلى التنكير عدولٌ عن حرف الجر (الباء) في

---

[١] التعبير القرآني والدلالة النفسية ٢١٧.

قوله (بالمعروف) إلى حرف الجر (من) في قوله (من معروف)، ولا شك أن لهذا العدول سراً يفصح عنه السياق القرآني.

فدلالـــة السـياق تشير إلى أن لفظ (المعروف) المذكور أولاً بالتعريف يختلف في معـــناه عن (معروف) المذكور ثانياً بالتنكير، لأن المألوف في الاستعمال اللغوي أن يأتي اللفظ أولاً نكرة ثم إذا كُرِّر يكون معرفة، فيوحي التعريف أن المقصود باللفظ هو المذكور ســابقاً وتكون (الـ) تفيد العهد الذكري، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

فــدل ذكر الرسول مُعَرَّفاً أنه الرسول السابق ذكره، ولكن الحاصل في هذا السياق القرآني قد جاء على العكس من ذلك، إذ ورد اللفظ معرفة ثم أعيد ذكره نكرة، مما يوحي أن المعنى يختلف في كليهما.

يعلــل الكرمانـــي (ت ٥٠٥هـــ) ذلك فيقول[١]: "إن هذه الآية بإجماع المفسرين مقدمـــة على تلك الآية في النزول، وإن وقعت متأخرة في التلاوة، ولهذا نظير في القرآن في موضع آخر أو موضعين، وقد سبق بيانه، وأجمعوا أيضاً على أن هذه الآية منسوخة بتلك الآية، والمنسوخ سابق على النسخ ضرورة. فصح ما ذكرت، أن قوله: "بالمعروف" هو ما ذكر، في قوله: "من معروف"، فتأمل فيه فإن هذا دليل على إعجاز القرآن".

والكرماني في ذلك يذهب إلى أن كلمة (المعروف) هي نفسها كلمة (معروف) من حيث المعنى، ويعلل مجيئها على عكس مألوف اللغة من مجيء اللفظ نكرة أولاً ثم يعرف لاحقـــاً، بـــأن هـــذه الآية الأخيرة متقدمة في النزول فهي منسوخة بالآية السابقة لها في التـــرتيب المصحفي، فيكون قوله: "فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهم من معروف"، قد

---

[١] البرهان في توجيه متشابه القرآن، ٤٢.

نـــزل ســـابقاً لقوله تعالى: "فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف" ولكن القول بالنسخ مختلف فيه [١].

وللخطـيب الإسـكافي تعلـيل دقـيق لهـذا العدول فيذهب إلى أن المقصود بـــ (المعــروف) ههنا الزواج خصوصاً، وأما غير المعروف فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزيُّن، ونحوه.

يقــول الإسـكافي[٢]: "إن الأول تعلق بقوله: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصْــنَ بأنفســهن أربعة أشهر وعشرا، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفســهن بالمعــروف ...؛ أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحــه لهــن مــن التزوج بعد انقضاء العدة فالمَعروف ههنا أمر الله المشهور وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده".

والثانــي: المــراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهــن أن يفعلــن مــن تزوج أو قعود، فالمعروف ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر".

وممـــا يؤيد ما ذهب إليه الإسكافي أمور منها: "أن الآية الأولى ذكر فيها قولـــه: "يتربَّصـــن" بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً"، فقوله: (يتربَّصن) معناه: يصبِّرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التَّزَوُّج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:

---

[١] ذهــب الجمهور إلى القول بالنسخ، وذهب الإمام مجاهد إلى عدم القول بالنسخ وأن هاتين الأيتين تنزلتا على حالتــين فــي عــدة المتوفى عنها زوجها، وهذا الأخير رجحه مصطفى زيد في رسالته للدكتوراه "النسخ في القرآن"، ٢/٧٨٠-٧٨١، وانظر: تفسير الرازي، ٦/١٥٨.

[٢] درة التنزيل، ٥٢-٥٣.

١٨٧]. وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربُّص، ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

ومـــن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحـــد معـــروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين، بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك"[١].

ومـــن ذلـــك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِمـــاً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ففـــي هـــذا السياق وردت كلمة الضر معرفة بلام التعريف (الضر) ثم عدل عن تعريفها إلى التنكير بحذف لام التعريف، في قوله: "كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ".

وجـــاء العـــدول عن التعريف إلى التنكير لكلمة (الضر) للدلالة على المفارقة بين حالـــين للإنسان، حال شدته وكربه وقد حل به الضر الكبير الذي أصبح يمثل لـــه شغله الشـــاغل، فهـــو يدعو الله على جنبه وقاعداً وقائماً، وحال رفع الضر عنه وكشفه فهو في غفلة عن نعمة الله وكأنه لم يمسسه ضر قط[٢].

فـــدل التعـــريف بـــ (اللام) على عظم هذا الضر وشدته، وعظم وقعه على نفس صـــاحبه، ودل التنكير بعد ذلك على شدة تناسي الإنسان لهذا الضر الذي رفع عنه وكأنه نكرة لم يعرفه ولم يك له عهد به في حياته.

---

[١] التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ١٩١.

[٢] انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ١٨٧.

٥. العدول عن ذكر (الفاء) الواقعة في الجواب إلى حذفها

مـن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَـى وَأَصْـلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

فقـد دخلـت (الفاء) في ذكر جزاء المؤمنين بقوله: "فلا خوف عليهم" وحذفت في جزاء الكفار بقوله: "أولئك أصحاب النار".

وهـذه الفاء الواقعة في جواب الاسم الموصول الشبيه بالشرط، فيها معنى السببية الـدال على ارتباط الخبر بالمخبر عنه ارتباط العلة بالمعلول. وهي التي ذكرها ابن هشام (ت ٧٦١هـ)[1] بقولـه: "كما تربط الفاء الجواب بشرطه، كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشـرط، وذلك في نحو (الذي يأتيني فله درهم) وبدخولها فُهِمَ ما أراده المتكلم من ترتب لزوم الدرهم على الإتيان، ولو لم تدخل احتمل ذلك وغيره".

وقـد علـل البيضـاوي (ت ٧٩١هـ) دخول (الفاء) في قوله تعالى: "فلا خوف" وسقوطها من (أولئك)، بقولـه[2]: "وإدخال (الفاء) في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد".

والمـراد بالمـبالغة هنا التوكيد، وفسر الشهاب (ت ١٠٦٩هـ) في حاشيته على البيضـاوي وجه المبالغة بقولـه[3]: "ووجه المبالغة في الوعد، لعدم تخلفه جعله سبباً عن الـتقوى والعمل الصالح المشعر بأنه لا ينفك عنه، إذ المعلول لا يتخلف عن العلة غالباً، بخلاف الوعيد، فإنه يجوز تخلفه".

---

[1] مغني اللبيب، ٢١٩.

[2] حاشية الشهاب، ١٦٦/٤.

[3] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

فأفـــادت (الفـــاء) التوكـــيد في وقوع الجزاء للمؤمنين، وحذفت من جزاء الكفار، للإشارة إلى المفارقة بين الجزاءين.

ومـــنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

جـــاءت (الفاء) في قوله: "فلهم عذاب جهنم"، وحذفت من قوله (لهم جنات) "وذلك لأن ســـياق المقـــام يقتضي توكيد الآية الأولى، وذلك أنها جاءت تعقيباً على الذين فتنوا المؤمنين عن دينهم، وجعلوهم في الأخاديد، وأضرموا عليهم النار: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٤-٦]"[1].

ومجـــيء (الفاء) السببية هنا، فيها إشارة أيضاً إلى استحقاقهم العذاب بسبب فتنتهم للمؤمنـــين، وهـــذه الآيـــة شبيهة بالآية السابقة وهي قولـــه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقـــد عُلِّـــلَ حذف (الفاء) في آية الأعراف بأنه من قبيل التسامح في الوعيد، كما عللهـــا البيضاوي، وجاء ذكرها في آية البروج؛ لأن سياق آية البروج فيه تهديد بالوعيد والعذاب أكثر من سابقه، فهؤلاء الذين فتنوا المؤمنين قد تحقق في حقهم العذاب بقوله: "ثم لم يتوبوا فلهم" أما النوع الأول من الكافرين في آية الأعراف فهو في عموم المكذبين، وقد يرجى منهم التوبة، فلم تقترن (الفاء) الدالة على استحقاق العذاب، وثبوته في حقهم، فكان التسامح من هذا القبيل.

---

[1] معاني النحو، ١٢٩/٤.

وأمـــا العدول إلى حذفها في حق المؤمنين بقوله (لهم جنات تجري)، فللدلالة على أن دخـــول الجـــنة بمحـــض التفضل من المولى عزوجل والعطاء وليست مستحقة وجوباً بعملهـــم الصالح ، كارتباط العلة بالمعلول، بدليل حديث رسول الله ﷺ القائل[1]: "لن يدخل الجـــنة أحـــداً عملـــه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة".

فحـــذف (الفاء) من ذكر أهل الجنة وذكرها مع أهل العذاب؛ للدلالة على أن عذابه لهـــم بموجب عدله، إذ استحقوا ذلك بموجب سوء الأعمال، وإدخاله -عزوجل- المؤمنين الجنة بموجب رحمته وفضله.

٦. العدول عن ذكر حرف الجر إلى حذفه

منه قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُـــمْ إِنَّ اللَّـــهَ خَبِيـــرٌ بِمَـــا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

إذ دخـــل حـــرف الجـــر (مـــن) علـــى غض البصر دون حفظ الفرج، وقد علل الزمخشـــري ذلك بقوله[2]: "من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم، والاقتصار به على ما يحل، وجوز الأخفش أن تكون مزيدة، وأباه سيبويه، فإن قلت: كيف دخلت في

(1) أخـــرجه مسلـــم من رواية عائشة، ٤/٢١٧١، برقم ٢٨١٨، ونصه كاملاً: "سدّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُـــدْخِلَ الجنةَ أحداً عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل".

(2) الكشاف، ٣/٦٠.

غـض البصـر دون حفظ الفرج، قلت: دلالة على أن أمر النظر أوسع ... وأما الفرج فمضيق".

وإذا كـان الزمخشري قد نظر في تحليل الآية من زاوية الفعل نفسه، ما كان منه واسعاً وما كان منه مضيقاً، فإن البقاعي قد نظر في تحليل الآية ومعرفة سبب العدول فيها مـن زاويـة أخـرى، وهي إرادة الفعل نفسها، وما كان منه باختيار وما ليس للمرء فيه اختـيار، فيرى "أن" من "التبعيضية مع البصر"، إشارة إلى العفو عن النظرة الأولى، وأن المأخوذ به إنما هو التمادي، ولما كان حفظ الفرج لخطر المواقعة أسهل من حفظ البصر؛ ولأنـه لا يفعـل به من غير اختيار، حذف "من" لقصد العموم، فقال: "ويحفظوا فروجهم" أي: عن كل حرام من كشف وغيره ... الخ"[1].

٧. العدول عن ذكر حرف العطف إلى حذفه

مـن ذلك قولـه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ... وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

فقـد عدل عن ذكر حرف العطف (ثم) في قوله: (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)، إلى حذفه في قوله: (إذا أنتم تخرجون).

علـل الرازي[2] ذلك فقال: "قال ههنا: "إذا أنتم تخرجون"، وقال في خلق الإنسان أولاً: (ثم إذا أنت مبشر تنتشرون)". فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدريج

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٣/٢٥٤.

(٢) تفسير الرازي، ٢٥/١١٦.

وتــراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم". وذلك أدل على قدرة البعث بعد الموت، وأن الإعادة أهون من البدء.

النمط الثاني: العدول عن حذف الحرف إلى ذكره

١. العدول عن حذف حرف العطف إلى ذكره

كما في قولـــه تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْــوَابُهَا ... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...﴾ [الزمر: ٧١-٧٣].

فقـــال في فتح أبواب جهنم (فتحت أبوابها) بدون (واو) ثم عدل عن ذلك إلى ذكر الواو مع أبواب الجنة، فقال: "وفتحت أبوابها".

وقـــد اختلف أهل العلم في تفسير هذه (الواو)، فذهب بعضهم إلى القول: "هذه واو الثمانية ودخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة، فلم تدخلها الواو، وهذا قـــول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب، ولا أئمة العربية وإنما هو استنباط بعض المتأخرين"[1].

---

[1] التفســـير القـــيم، ابـــن القيم، ٤٢٤، وقد رد ابن المنير في حاشية الكشاف على من قالوا إنها (واو) الثمانية، بقوله: "ولا كمن يقول: إنها واو الثمانية، فإن ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم، ويعدُّون من هذه الواو في قوله في الجـــنة –وفـــتحت أبـــوابها– بخلاف أبواب النار، فإنه قال فيها فتحت أبوابها، قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية وأبـــواب الـــنار سبعة، وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتـــى ينتهـــي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدّوا من ذلك –والناهون عن المنكر– وهو الثامن من قوله: "التائـــبون" وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لترابط بينها وبين الأولى التي هي (الآمرون بالمعـــروف) لمـــا بيـــنها مـــن التناسب والربط؛ ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما ومواردهما كقوله: (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وكقوله: (وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر)، وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: "ثيّبات وأبكارا" لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول ثيّبات أبكاراً لم يستدّ الكلام، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء) (حاشية الكشاف، ٢/٤٧٨-٤٧٩).

وذهــب بعضـــهم إلى القول بأنها زائدة، فذكر ابن الأنباري (ت ٥٧٧هــ)[١] أن الكوفيين ذهبوا إلى "أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـــ) وأبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هــ)، وأبو القاسم بن برهان من البصريين، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز".

ودلــيل القائلــين بالزيادة أنها حذفت من الآية الأخرى، ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

وما ذهب إليه البصريون في الحقيقة هو أقرب في الإنسجام مع السياق القرآني، إذ لـيس فــي القرآن حشو ولا زيادة: "والواو شأنها شأن جميع الحروف –وضعت لمعنى– فذكــرها دون معناها يوجب اللبس كذا لا يصح الحكم بزيادتها، وإنما يجري الكلام على أصله بتقدير محذوف يتمم الكلام"[٢].

ويــؤيد ابن جني القول بعدم الزيادة فيرى[٣]: "أن القول بزيادة الواو أمر لا يثبته البصــريون، لكنه عندنا على حذف الجواب، أي: حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها، قال لهم خزنتها كذا وكذا، صدقوا وعدهم وطابت نفوسهم، ونحو ذلك مما يقال في مثل هذا".

ومــذهب ســيبويه أن الجواب محذوف، وأن الواو ليست زائدة، يقول سيبويه[٤]: "ســألت الخلــيل عن قوله جل ذكره: "حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها"، أين جوابها؟ وعن قولــه جل وعلا: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ تَــرَىَ إِذْ وُقِفُــواْ عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]. فقال: إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة الرابعة والستون، ٤٥٦/٢.

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب، ٤١٩/١.

(٣) الخصائص، ٤٦٢/٢.

(٤) الكتاب، ١٠٣/٣.

الجـــواب فـــي كلامهـــم، لعلم المُخْبِرِ لأيِّ شيءٍ وضع هذا الكلام"، وأما استدلال القائلين بالزيادة بقياس هذه الآية على سابقتها التي حذفت منها الواو في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]. فلا يستقيم على حجة؛ لأنه لو أن كل حرف ذكر في آية ولم يذكر في أخرى عُدّ حرفاً زائداً لكان في ذلك إهمال للسياق والمعنى.

فعلـــى ســـبيل المـــثال نجد المولى -عزوجل- يقول حكاية عن قوم صالح -عليه الســـلام-: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

في حين قال حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

فأتى بالواو في مقولة قوم شعيب وحذفها من مقولة قوم صالح، فهل نعد الواو في الآية الثانية زائدة؛ لأنها لم تذكر في الأولى؟

والحقيقة أن القول بالزيادة في هذا السياق أمر مرفوض ويجانب التدبر والتأمل في كـــتاب الله، فقوم صالح قالوا لنبيهم إنما أنت من المسحَّرين وقصدوا بكلمة (المسحَّرين)، أي: صاحب رئة يأكل ويشرب، ومنه حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: "توفي النبي ﷺ في بيتي وفي نوبتي وبين سَحْرِي ونَحْرِي"[1]. فهذا وصف له بالبشرية، لهذا جاء عقبه (ما أنت إلا بشرنا مثلنا) فإن هذه الجملة جاءت تأكيداً لما قبلها"[2].

---

[1] رواه الـــبخاري، ٣/١١٢٩، بـــرقم ٢٩٣٣، وقـــال ابـــن الأثير (ت ٦٠٦هـــ) في النهاية في غريب الأثر، ٢/٣٤٦، وفي حديث عائشة مات رسول الله ﷺ بين سَحْرِي ونَحْرِي، السَّحْر: الرِّئة، أي: أنه مات وهو مستند إلى صدرها ما يحاذي سَحْرها منه، وقيل السَّحْر: ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن ...

[2] البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، فضل عباس، ٤٤٤.

فلمــا كانــت الجملــة الثانية (ما أنت إلا بشر مثلنا) تأكيداً لما قبلها حسن الفصل فحذفت الواو.

وأمــا الآية الثانية، فمعنى كلمة (مُسَحَّر) أي: مسحور؛ وهو من أصابه السِّحْر، ثم قالوا: (وما أنت إلا بشر مثلنا) فحسن العطف؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وكأنهم بذلك يصفونه بوصفين كونه مسحوراً وكونه بشراً مثلهم.

وكــذلك قولــه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَــابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨-١٩].

في حين قال -في موضع آخر-: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

فقــال فــي الآية الأولى: "ومنها تأكلون" بالواو، وفي الآية الثانية (منها تأكلون)، بدون الواو، فهل الواو هنا زائدة؛ لأنها لم تذكر في الآية الأخرى؟ هذا كلام لا يقوم على أساس علمي يدعمه البحث والدليل وإنما هو ضرب من التخمين.

فــيجب أن نفرق بين السياقين، ونفهم كل حرف من ذكر أو حذف في سياقه الذي ورد فــيه، فالآيــة الأولى هي في وصف فواكه الدنيا، ومنافعنا بها تتعدد من بيع وشراء وصــنع أدويــة، وأطعمــة متنوعة، فكان العطف بالواو إشارة إلى تعدد منافعها من هذه المنافع الأكل، فكأنه قال: منها تبتاعون وتسترون ومنها تصنعون دواءكم، ومنها تأكلون. فهناك تقدير بالحذف، وما بعد الواو معطوف عليه.

فــي حين أن الآية الثانية هي في وصف فاكهة الجنة، وهي مخصصة للأكل فقط فحذَفَ الواو، وقال: (منها تأكلون)، فكان كُلٌّ من الحذف والذكر مناسب في سياقه الوارد فيه.

وكــذلك الحـــال في شأن هذه الآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...) فذكر الواو مع فتح أبواب الجنة، وحذفه في ذكر أبواب النار، فقال هناك: "حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها"، فقد ذكرت الواو لتؤدي دلالة معينة لا يستقيم المعنى بدونها، وبذلك ينتفي القول عنها بالزيادة.

ويتقــرر بوجــود (الــواو) أن يكون معنى الآية الكريمة: "أن أهل الجنة يجيؤنها فــيجدون أبوابها مفتحة، وهذا المعنى أشارت إليه آية كريمة أخرى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، وهو ما تؤيده هذه الواو، فهي واو الحال، أما الكافرون فيجيئون جهنم، فيجدون أبوابها مقفلة"[1].

فــدل حــذف الواو في سياق الحديث عن الكافرين أن قوله: "فتحت أبواها"، هي جــواب الشــرط (إذا) فكأنهم حين جاؤها فتحت أبوابها على الفور في وجوههم بالعذاب، وفــي ذلك دلالة على أنها في أصلها موصدة، لا تفتح إلا عند قدوم المجرمين إليها، فهي كالسجن على السجين، -أعاذنا الله منها-.

بدلــيل قــولــه تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩]، ويكون بذلك قد انتهى الحديث عن أهل النار بفتح أبوابها ودخولهم فيها.

أما أصحاب الجنة فقد دل حرف (الواو) في قوله (وفتحت أبوابها) أن أبواب الجنة مفــتحة قــبل مجيء المؤمنين إليها، (فالواو) هنا (واو) الحال، أي: حتى إذا جاؤها وهي مفــتوحة الأبــواب، فدل وجود الواو على حذف جواب الشرط (إذا)، وفي حذف الجواب "دلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن"[2].

---

(١) لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، فضل عباس، ١٩٦.

(٢) الإيضاح، القزويني، ١٨٨/١.

وقد يرد العدول عن حذف الواو إلى ذكرها ليفيد الجمع بين صفتين من الصفات.

نحو قوله تعالى: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ١-٣].

ففي مجيء (الواو) في قوله تعالى: (غافر الذنب و قابل التوب) "إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها له محاءة للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول"[(١)].

وفي سياق آخر يعدل عن حذف الواو إلى ذكرها للدلالة على النقيض، مما سبق وذلك "للإشارة إلى استحالة الجمع بين الوصفين لتنافي المعنى فيهما"[(٢)].

كما في قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ [التحريم: ٥].

فقد جاء بـ (الواو) مع (ثيِّبات وأبكاراً)؛ "لأنهما صفتان متنافيتان، لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات، فلم يكن بدٌّ من الواو"[(٣)].

ويرد العدول إلى ذكر الواو بعد حذفها للدلالة على زيادة الاهتمام بالوصف[(٤)] الداخلة عليه، كقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

---

(١) الكشاف، ٤١٣/٣.

(٢) انظر: البلاغة القرآنية عند الزمخشري، محمد أبو موسى، ٣٢٩.

(٣) الكشاف، ١٢٨/٤.

(٤) انظر: معاني النحو، ٢٠٥/١.

فالصفات توالت في الآية دون ذكر عاطف فيها، ثم ذكر حرف العطف في قولـــه "والـــناهون عن المنكر"، وذلك لمزيد الاهتمام بهذه الصفة على وجه الخصوص؛ لما فيها من المشقة والصبر على ذلك، يقول الرازي[1]: "وفي إدخال الواو على هؤلاء والناهون، وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه، ولا تعلق لشيء منها بالغيـــر، أمـــا النهي عن المنكر فعبادة متعلقة بالغير، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهـــور الخصومة ... فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات، فأدخل عليها الواو تنبيهاً على ما يحصل فيها من زيادة المشقة والمحنة".

وقد يرد العدول إلى ذكر الواو بعد حذفها للدلالة على التحقيق والتقرير، ويمكن أن نسميها (واو) التحقيق، لأنها تقرر القول الداخلة عليه وتحققه.

وقـــد ذكر الزمخشري أن هذه (الواو) ترد لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف وذلك فـــي نحو قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

يقـــول الزمخشـــري[2]: -عـــن الواو في وقوله (وثامنهم كلبهم)-: "وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أنَّ اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التـــي آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما غيرهم، والدليل عليه أن الله -سبحانه- أتبع القولين الأولين قوله رجماً بالغيب، وأتبع الثالث قوله وما يعلمهم إلا قليل".

---

(١) تفسير الرازي: ١٦/٢٠٥.

(٢) الكشاف، ٢/٤٧٨-٤٧٩.

فالـــواو الداخلـــة فـــي قـــولـــه: "ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم" هي واو التحقيق والتـــرجيح[1]، لأنها أفادت أن هذا القول هو الصواب في عدة أهل الكهف، ويرى الباحث أن هذه (الواو) مشعرة بأن قوله (وثامنهم كلبهم)، هو من تعقيب الله -عزوجل- على هذا القول، فكأنهم قالوا: هم سبعة، وعقب المولى -عزوجل- بقوله بعد ذلك "وثامنهم كلبهم"، والتقدير: نعم هم كذلك وثامنهم كلبهم. وذلك كمن يقول: زيد شاعر فتجيبه بقولك: وفقيه، فقولك: وفقيه تضمن إقراراً للقول السابق وزيادة، فهي (واو) التحقيق والتقرير.

ولهـــذا نظائـــر فـــي القرآن منه قول ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَـــدُوهَا وَجَعَلُـــوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، فعقب المولى -عزوجل- على قولها بقوله: "وكذلك يفعلون"، لتقرير القول السابق وتأييده.

وعلـــى افتراض انتفاء التعقيب فيه، ففي مجيء (الواو) أيضاً دلالة على التأدب، فالقول الداخلة عليه (وثامنهم كلبهم) أفاد أن قائليه كانوا متأدبين، إذ لم يجعلوا الكلب فرداً مـــندرجاً في عدة أهل الكهف كما هو الحال في القولين السابقين (ثلاثة رابعهم) و(خمسة سادسهم) وإنما هو مغاير لهم، فهو حيوان، وهم بررة أطهار.

ويـــرد العـــدول إلـــى ذكر الواو بعد حذفها في أسئلة القرآن خاصة للدلالة على حصـــولها مجـــتمعة فـــي وقـــت واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... يَسْـــأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، ... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ...﴾ [البقرة: ٢١٥-٢٢٢].

فهذه جملة من الأسئلة وجهت إلى الرسول ﷺ وقد توخى القرآن الكريم الفصل في بعضـــها، والوصـــل فـــي بعضـــها الآخر بالواو؛ وذلك لأن " الأسئلة الثلاثة الأولى قد

---

[1] وانظـــر فـــي ذلك قول أحمد بن المنير في الرد على من قالوا: إنها واو الثمانية، وهو رد مفصل في حاشية الكشاف، ٢/٤٧٩.

طــرحت علــى الرســول ﷺ في أوقات متفرقة فكان الفصل بينها في التركيب، أما الذي جمعته واو العطف؛ فلأنه كان مطروحاً عليه في وقت واحد، فكان الفصل والوصل زمنياً دالاً على حصول الأحداث في الزمن"[1].

٢. العدول عن حذف (فاء) الجزاء إلى ذكرها

وهذه الفاء هي التي تدخل على الخبر فتربط بينه وبين المبتدأ برابط السببية، يقول سيبويه[2]: "وسألته قوله: الذي يأتيني فله درهمان، لِمَ جاز دخول الفاء ههنا، والذي يأتيني بمنزلة عبدالله، وأنت لا يجوز لك أن تقول: عبدالله فله درهمان؟

فقال: إنما يحسن في الذي؛ لأنه جعل الآخر جواباً للأول، وجعل الأول به يجب له الــدرهمان، فدخلت الفاء هاهنا، كما دخلت في الجزاء إذ قال: إن يأتني فله درهمان، ... فإذا أدخل الفاء فإنما يجعل الإتيان سبب ذلك. فهذا (جزاء) وإن لم يُجزَم؛ لأنه صلة".

وقد ورد كثيراً في التعبير القرآني العدول إلى ذكر هذه الفاء بعد حذفها، وفي هذه المغايــرة دلالة مقصودة يقتضيها سياق المقام، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٠-٩١].

فقــد عــدل عن حذف (الفاء) من قوله (لن تقبل توبتهم) إلى ذكرها في قوله (فلن يقبل من أحدهم).

---

[1] انظر قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلاوي، ٥٢٤، والكشاف، ١/٣٦٢.
[2] الكتاب، ٣/١٠٢.

وسر هذا العدول كما يقول النيسابوري[1]: "هو أنه لما قيد في الجملة الثانية أنهم قد ماتوا على الكفر زيدت فاء السببية الجزائية تأكيداً للزوم وتغليظاً في الوعيد".

وقد تساءل الزمخشري أيضاً عن سر ذلك فأجاب[2]: "فإن قلت: فلم قيل في إحدى الآيتين (لن تقبل)، بغير فاء وفي الأخرى (فلن يقبل)؟

قلـت: قد أوذن بالفاء أن الكلام بني على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب كمـا تقـول: الذي جاءني له درهم، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم".

فأدركـنا حينـئذ سر هذا العدول، في أن (الفاء) حذفت من الآية الأولى؛ لأنها في شـأن الكفار حال حياتهم تتوعدهم، لكن الكافر قد يتوب عن الكفر في حياته، فتقبل توبته، فلـم يكـن السياق بحاجة إلى مزيد تأكيد بمجيء (الفاء)، بينما سياق الآية الثانية في حق الكفـار الـذين ماتوا على الكفر، فالوعيد في حقهم آكد وأشد فناسب مجيء (الفاء) حتى يربط بين الجزاء لذا جاء فيها "فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به"، بينما قـال فـي الآية الأولى: "لن تقبل توبتهم"، وأكد العذاب أيضاً في الثانية بقوله: "أولئك لهم عـذاب الـيم وما لهم من ناصرين"، في حين لم يذكر ذلك في الآية الأولى، وإنما اكتفى بوصفهم بقوله: "وأولئك هم الضالون".

"فظهـر لنا الدور الدلالي الذي يؤديه وجود (الفاء) أو غيابها في هذين التركيبين، فميَّـز فـيهما بين تركيب إخباري خلا من (الفاء) فخلا من السببية والجزاء، وجوّز توبة الكافـر وقـبولها ما دام حيّاً، وبين تركيب شرطي اقترن جوابه بـ (الفاء) واشترط في

(١) غرائب القرآن، النيسابوري، .

(٢) الكشاف، ٤٤٣/١.

الكافـر حتـــى لا تقبل منه فدية أن يموت على كفره، وإذا بالربط (الفاء) هنا مفرق بين جنسين من أجناس التركيب خبري وشرطي، وإذا بالفاء هنا تحمل حكماً من أحكام الله في شأن الكافر وتوبته وشروط قبول التوبة منه ورفضها، فعلى قدر ضآلة هذا الحرف وضآلة ذكـره أو حذفــه، كانـــت عظمة دلالته وخطورة أحكامه، وكان في ذلك سر من أسرار الإعجاز"[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦-٥٧].

وقـــد فســـر هذا العدول البيضاوي، بقوله[2]: "فإدخال (الفاء) في حيّز الثاني، دون الأول تنبـــيه علـــى أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال: "لهم عذاب" ولم يقل: هم في عذاب".

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلـنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـــئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـــئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

فحـــذف (الفاء) من الخبر في الآية الأولى: "أولئك يلعنهم الله" إلى ذكرها في خبر التائبين، فقال: "فأولئك أتوب عليهم".

وذلك "لئلا يتوهم أنَّ لعنهم إنما هو بهذا السبب إذ له أسباب جمة"[3].

---

[1] قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي الجطلاوي، ٤٩٦.

[2] تفسير البيضاوي، ٣٠٨/٦.

[3] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦١/٢.

ومعنى هذا أن عدم مجيء (الفاء) في الجملة الأولى إشارة إلى أن لعنهم ليس بسبب كتمان البيّنات، وإنما له أسباب كثيرة، فهم موصوفون بصفات كثيرة تستوجب اللعن، منها كتمان ما أنزل الله، ولو جيء (بالفاء)؛ لأوهم ذلك أن الكتمان هو سبب اللعن فحسب، في حين ذُكرت (الفاء) في الجملة الثانية إشارة إلى أن توبتهم من الكتمان وتبيينهم وصلاحهم هو السبب في توبة الله -عزوجل- عليهم، وفي ذلك تحفيز لهم وتحضيض على التوبة، لا سيما مجيء التعبير عنها بالفعل الماضي الدال على تحقق الفعل وحصوله.

٣. العدول عن حذف حرف النفي إلى ذكره

منه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

فقد نفى المولى -عزوجل- التساوي بين كل متقابلين (الأعمى والبصير)، و(الظلمات والنور)، و(الظل والحرور) و(الأحياء والأموات)، لكنه لم يكرر حرف النفي (لا) في المتقابلين الأولين، فقال: "وما يستوي الأعمى والبصير"، ولم يقل: "وما يستوي الأعمى ولا البصير"، كما ذكر ذلك في بقية المتقابلات، فقال: "ولا الظلمات ولا النور"، و"لا الظل ولا الحرور"، "وما يستوي الأحياء ولا الأموات".

وذلك لأن تكرار "لا" النافية يفيد تأكيد نفي التساوي في كل مدخول عليه على حدة، إضافة إلى إفادتها النفي بين المتقابلين بوجه عام. "فما ذكرت فيه كلمة (لا) في الطرف المقابل، يحمل دلالة عدم التساوي النسبي بين أفراد كلٍّ من المتقابلين، إضافة إلى عدم التساوي العام بين المتقابلين"[1].

---

[1] قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله -عزوجل- عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٥٣٧، وانظر أيضاً: الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ٢٠١.

فالظلمات متفاوتة غير متساوية فيما بينها، وكذلك النور متفاوت غير متساوٍ، فهو درجـات في الإضاءة، ثم الظلمات عموماً لا تساوي النور بعمومه، أي: أنه نفى التساوي بين أفراد كل متقابل على حدة، ثم نفى التساوي بوجه عام مع المقابل لـه[1]، وكذلك الظل ومـا فـيه من برودة متفاوت بين أفراده ثم نفى التساوي بوجه عام بين الظل والحرور. وكـذلك الأحياء يختلفون فهم بين صالح وطالح، وذكي وغبي، ومؤمن وكافر، والأموات يتبايـنون ففيهم الشقي والسعيد، والمنعم والمعذّب، حسب أعمالهم في الدنيا، ثم إن الأحياء عموماً لا يستوون مع الأموات.

والسياق لم يكرر (لا) النافية مع المتقابلين الأولين (وما يستوي الأعمى والبصير) إشارة إلى أنه قصد نفي التساوي بين الأعمى والبصير بوجه عام، ولم يرد نفي التساوي النسبي بين جزئيات كل منهما.

فدل ذلك على أن نفي التساوي بين المتقابلات يكون عاماً ونسبيّاً، فما تكررت فيه (لا) أفـاد النوعين معاً، النفي العام بين المتقابلات والنفي النسبي بين أفراد كل واحد منها على حدة.

وأما النصوص التي لم يأت فيها هذا التكرار لحرف النفي (لا) "فلم تقصد فيها هذه الدلالـة، إنمـا قصد فيها مجرد نفي التساوي بين المتقابلين أي النفي العام فحسب، وليس معنياً بالنفي النسبي، وإن كان الطرفان المتقابلان فيهما أوفى بعضهما من الأمور النسبية أيضاً، لكن لم يقصد فيها الدلالة على النسب المتفاوتة في كل طرف"[2].

---

(1) انظر: قواعد التدبر الأمثل، حنبكة الميداني، ٥٣٧ (بتصرف).

(2) السابق، ٥٣٧.

وهــذا مــا نلحظه جلياً أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

يقــول الزركشي[1]: "وأما قوله (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة)، فمن قال: المراد أن الحســنة لا تســاوي السيئة، فــ (لا) عنده زائدة، ومن قال: جنس الحسنة لا يستوي أفــراده، وجــنس السيئة لا يستوي أفراده -وهو الظاهر من سياق الآية- فليست زائدة، والواو عاطفة جملة على جملة".

٤. العدول عن حذف لام التعريف إلى ذكرها

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

فقــد وردت كلمــة (رسول) نكرة ثم عرفت، وعلماء النحو يرجعون التعريف بعد التنكيــر فــي هــذا الســياق وأمثاله إلى أن التعريف قصد به العهد الذكري، فالمراد بــ (الرسول) هنا هو الرسول الذي تقدم ذكره في السياق، وما قاله النحاة صحيح، ولكن وراء هــذا التعليل تعليل دلالي آخر، وهو أن لفظة رسول ابتداء وردت نكرة لما فيها من إيحاء بغربة هذا الرسول في ما جاء به من رسالة ودعوة، وهو غريب أيضاً على قوم فرعون، فهــو ليس منهم، ومجهولة أيضاً دلائل صدقه ومعجزاته، حتى إذا عرف وعرفت رسالته وذاع صيته وظهرت معجزاته، ودلائل صدقه أصبح الرسول المعروف برسالته وصدقه،

---

[1] البرهان في علوم القرآن، ٣٥٧/٤، وانظر في القول بزيادة (لا) في هذا الموطن والرد عليه، لطائف المنان في دعوى الزيادة في القرآن، فضل عباس، ٢٤٨.

ومـــع هـــذا كلــه، ومـــع ظهـــور دلائـــل صـــدقه ورسالته كذبه فرعون فاستحق الأخذ الوبيل[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِـــن دُونِ اللَّـــهِ لَـــا يَمْلِكُـــونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فقد عدل عن تنكير (الرزق) إلى تعريفه؛ وذلك لأنه -تعالى- أراد أن يبيّن أن هـــذه الأوثـــان لا تســـتطيع أن تـــرزقهم شيئاً من الرزق -وإن قل- فجاء التنكير للتقليل والتحقير، ثم أمرهم بابتغاء الرزق كله منه، فهو الرزّاق وحده[2].

فكانت (ال) هنا تفيد استغراق الجنس، أي كل أنواع الرزق وأشكاله قل أم كثر فهو من الله وحده، ولا يطلب إلا منه.

وفي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

اقتـــرنت لفظـــة (الذكور) بلام التعريف بعد تنكير لفظة (إناثاً). وفي تنكير الإناث إشـــعار بـــتجاهل العرب وكراهيتهم لهذا الجنس، وذلك في زمن الجاهلية، إذ كان الرجل يـــتوارى من القوم إذا بشر بأنثى، فدل التنكير على أن جنس الإناث نكرة في نفوسهم لا يحـــبونه، "وفـــي تعـــريف الذكور التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مناهم"[3].

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ٢١/٢٤-٢٥.

(٢) انظر: الكشاف، ٣/٢٠١.

(٣) روح المعاني، ٢٥/٥٤.

"فكأن الآية الكريمة تقرر لهؤلاء -من خلال التعريف بعد التنكير- أن الجنس الذي تـتوارون عن القوم بسببه حيناً، وتوارونه في التراب حيناً آخر، يستوي مع الجنس الذي هـو معقد آمالكم في أن كلا منهما عطاء مالك السموات والأرض الذي يهب ما يشاء لمن يشاء"(1).

ويـرى بعـض الباحثين المعاصرين أن التعريف والتنكير في هذا السياق يوحي بدلالة اجتماعية، تشير إلى "وجوب ستر المرأة أمام الأجانب (غير المحارم)، بحيث تكون نكرة لديهم، وظهور الرجل للكسب بحيث يكون معروفاً لديهم"(2).

---

(1) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٨٩.

(2) قبس من الإعجاز، هشام الحمصي، ٧٦-٧٧.

الفصل الثالث

العدول في التركيب

الفصل الثالث

العدول في التركيب

يمتاز التعبير القرآني ببلاغة تصريف القول، فهو ينوع الأساليب، ويتصرف في التراكيب من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمخالفة في النسق الإعرابي والتنوع في الجمل، من اسمية إلى فعلية والعكس، والتنكير والتأنيث، والخروج عن الظاهر في العدد والمعدود من خلال المخالفة بين الإفراد والتثنية والجمع، والتحول في الإسناد.

كل هذه الظواهر الأسلوبية المتعددة في التعبير القرآني، يراد من مجيئها دلالات مقصودة تفصح عن بلاغة القرآن الكريم وروعة بيانه، وتنتصب شاهداً من شواهد الإعجاز فيه.

وهذه التحولات في التركيب والعدولات فيه تدعو إلى التأمل والتدبر المستمر في دلالات التركيب القرآني، لمحاولة الوصول إلى عمق الدلالة وعدم الوقوف عند سطحية النص وظاهر العبارة.

وقد حاول الباحث في الفصلين السابقين قدر المستطاع تتبع دلالات العدول في أزمنة الفعل، والأسماء، وحروف المعاني، من مغايرة بينها وذكر وحذف فيها، مقتصراً في ذلك على نماذج محدّدة.

وكذلك الحال في هذا الفصل يستلزم منا الوقوف عند ظاهرة التغير في التركيب للسياق القرآني، ومتابعة الخروج والعدول عن النسق المطرد للسياق نفسه، محاولين في ذلك تعليل تلك العدولات تعليلا يبرز لنا معاني النحو، ويسهم في تذوق النص القرآني بتوظيف تراكيب اللغة فيه وتعليل التغيرات الحاصلة فيها مقتصرين في ذلك على نماذج لكل نمط من أنماط هذا العدول، وهو ما سنعرض له في المباحث الآتية:

المبحث الأول

العدول عن الفعل المتعدي بنفسه إلى المتعدي بحرف والعكس

يرد هذا النوع من العدول في نمطين هما:

النمط الأول: أن يرد الفعل متعدياً بنفسه في السياق، ثم يرد مرة أخرى في السياق نفسه متعدياً بحرف.

والــنمط الثانــي: أن يــرد الفعل متعدياً بنفسه، ثم يعدل عنه إلى فعل آخر متعدٍّ بحـــرف، وكلا النوعين يمثلان خروجاً عن المشاكلة واطراد السياق وذلك يستدعي تعليل هذا العدول وتحليل نماذجه، وهو على النحو الآتي:

أولاً: العدول عن تعدي الفعل بنفسه إلى تعديه بحرف

مـــن ذلك قوله تعالى على لسان نبيه زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ [مريم: ٥-٦].

"ففـــي الآيـــة الثانية مخالفة تتمثل في إعمال فعلي الإرث، إذ إن الموروث قد وقع مفعولاً به لأولهما "يرثني" ومجروراً بـــ (من) بعد ثانيهما و"يرث من"، ولو جرى السياق على نمط واحد لقيل: يرثني ويرث آل يعقوب"[1].

"والمراد بالإرث هنا: إرث الشرع والعلم؛ لأن الأنبياء لا تورث المال"[2]. لحديث رسول الله ﷺ "لا نُورَثُ ما تركناه صدقة"[3].

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٩٢.

(٢) الكشاف، ٢/٥٠٣.

(٣) الحـــديث أخرجه البخاري عن أبي بكر –رضي الله عنه– برقم (٣٥٠٨) و(٣٨١٠)، ومسلم برقم (١٧٥٨)، وأخرجه البخاري أيضاً عن عائشة برقم (٦٣٤٦) ومسلم برقم (١٧٥٨)، وأخرجه أيضاً عن أبي هريرة برقم (١٧٦١).

وقــد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن الفعل (وَرِثَ) يتعدَّى بنفسه، ويتعدّى بـــ (من) وهما لغتان ودلالتهما واحدة.

يقول ابن منظور: "تقول: ورثت أبي، وورثت الشيء من أبي"[1].

ويقــول الزمخشــري[2]: "يقال ورثته، وَوَرِثْتُ مِنْهُ لغتان، وقيل: مِنْ للتبعيض لا للتعدية؛ لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء".

ويظهر أن (من) هنا للتبعيض، كما أشار الزمخشري، وأن الفعل (ورثته) يختلف فـــي دلالـــته عن (وَرِثْتُ مِنْهُ)، إذ يفيد الفعل (ورثتُ منه)، أنه ورث منه بعض التركة لا كلها. فأفادت (من) التبعيض، وكذلك الحال في هذه الآية.

فنبي الله زكريا –عليه السلام– طلب من المولى –عزوجل– أن يرزقه ابناً صالحاً يكون أهلاً لتحمل الرسالة والنبوة، فيرث أباه النبوة، ويكون امتداداً للصالحين وللأنبياء من آل يعقوب، إذ ليس كل آل يعقوب صالحين ولا أنبياء، بدليل أن نبي الله زكريا أشار إلى أنـــه قـــد خاف الموالي من ورائه، وهم كما يقول بعض المفسرين "شرار بني إسرائيل، فخـــافهم على الدين أن يغيروه ويبدلوه، وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقباً من صُلْبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين، ويرتسم مراسمه فيه"[3].

وقد استجاب الله –عزوجل– دعاء نبيه وعلم مراده، فأجابه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُــوَ قَــائِمٌ يُصَــلِّي فِــي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَــى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

---

[1] لسان العرب، مادة (ورث).
[2] الكشاف، ٥٠٣/٢.
[3] السابق، ٥٠٢/٢.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

فدل العدول عن تعدي الفعل بنفسه (مكنّاهم) إلى تعديه بالحرف (ما لم نمكن لكم) علـــى المفارقـــة بـــين التمكينـــين، فتمكـــين الله للأمم السابقة كان أقوى وأشد من تمكين المتأخـــرين، فوافق المقال مقتضى الحال، إذ عدّى فعل التمكين في الأولين بنفسه، وتعدي الفعـــل بنفسه أقوى من تعديه بحرف. في حين عدّى فعل التمكين في المتأخرين بالحرف فقال: (ما لم نمكن لكم)، ولم يقل: (ما لم نمكنكم).

فكانت المخالفة بين البنية السطحية والعميقة على النحو التالي:

البنية السطحية: مكنّاهم ←——— نمكن لكم

البنية العميقة[1]: مكنّاهم ←——— مكنّاكم

فعـــدل عـــن البنية العميقة إلى البنية السطحية ليرسخ دلالة المفارقة بين التمكينين حالاً ومقالاً كما سبق ذكره.

وقد كان في دلالة التركيب نفسه ما يدل على المفارقة في التمكينين وهو قوله: (ما لم نمكن لكم)، فأداة النفي (لم) تشير إلى تلك المفارقة، لكن السياق أمعن في ترسيخ دلالة المفارقـــة، لـــيس على مستوى التركيب فحسب بل على مستوى دلالة السياق كله، وذلك بإبـــراز المخالفة، وعدم الاطراد في السياق؛ ليشد ذهن المتلقي إلى تأمل ذلك، وفي التأمل مزيد تأكيد وترسيخ للدلالة.

ونظيـــر ذلـــك فـــي المفارقـــة بين التمكينين وتعدي الفعل بنفسه وتعديه بحرف، مـــا ورد فـــي قوله تعالى في وصف ذي القرنين:﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

[1] أي: التي يقتضيها اطراد السياق والمشاكلة.

شَــيْءٍ سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٤]. فتعدى الفعل هنا بالحرف، فلم يقل: (إنا مكناه في الأرض). لكن ذا القرنين عندما تحدَّث عن نعمة ربه عليه: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، ولم يقل: ما مكن لي فيه ربي. وذلك لأن: "الفعل (مكَّن) في الجملة الأولى ضعيف، فلــم يــتمكن من التعدية إلى المفعول به بنفسه؛ لذلك استعان بحرف الجر "اللام" ليوصله إليه، فتعدَّى إليه بواسطتها، وسبب ضعف الفعل في الجملة الأولى، أنه ورد في بداية إيراد قصـــة ذي القرنين، وتحدَّث عن بداية أمره، ومعروف أن الأمر عند بدايته يكون أضعف منه عند نهايته، ولذا احتاج إلى اللام لتعديه إلى المفعول به.

أما في الجملة الثانية: "ما مكَّنِّي فيه ربي خير"، فإن فعل (مكَّن) قوي، لذلك تعدَّى إلى المفعول به بنفسه، ونصبه مباشرة، والسياق هو الذي منحه القوة، فهو -أولاً: يتحدث عــن ذي القرنين بعدما ظهر وتمكن وسيطر وانتصر، وهو ثانياً: ورد في سياق قوة ذي القرنين في بناء السد عند أولئك القوم"[1].

ومنه قولــه تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فعـــدل إلى تعدية الفعل (ادخلي) بنفسه فقال: (وادخلي جنتي)، بعد تعديته بحرف (في)؛ وذلك ليضفي على الفعل دلالة السَّعة والشمول، وفي ذلك مزيد تكريم وتشريف لهذه النفس المطمئنة، فهي تتجول في الجنة حيث تشاء، فليست محصورة بمكان، ولا محدودة بحدود، ولو قال: (ادخلي في جنَّتي) لأفاد ذلك تحديد المكان بجزء محدود من الجنة على وجــه الخصوص؛ لأن دلالة الظرفية المكانية (في) توحي بالتحديد والخصوص، والفعل المــتعدي بنفســـه أقوى في الدلالة من تعديته بالحرف. وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى

---

[1] مع قصص السابقين في القرآن، صلاح الخالدي، ٢/٣٢٠-٣٢١.

على لسان أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

ثانياً: العدول عن فعل متعدٍّ بنفسه إلى آخر متعدٍّ بحرف والعكس

كما في قوله تعالى على لسان نبيه نوح -عليه السلام- مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢].

فـنلحظ العـدول الحاصل عن الفعل المتعدي بنفسه (أبلغكم) إلى المتعدي بحرف (وأنصح لكم) ولم يقل: وأنصحكم.

وقد علل هذا العدول فقال[1]: "يقال: نصحته ونصحت لـه، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالـة علـى إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غيـر، فـرُبَّ نصـيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله -تعالى- ورسله عليهم السلام".

ويقـول محمـد أمـين الخضري[2]: "ولم يجيء النصح في الكتاب العزيز متعدياً بنفسه، وإنما جاء متعدياً باللام؛ لأن الناصح في مواضعه كلها أخلص النصيحة للمنصوح حقـيقة كمـا جـاء على ألسنة الرسل: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَـحْتُ لَكُـمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]، و: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَـحُ لَكُـمْ...﴾ [الأعـراف: ٦٢]، ولا شـك في إخلاص المرسلين النصيحة لقومهم واختصاصهم بها".

---

(١) الكشاف، ٢/٨٦.

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ٢٥٨.

ومــنه قــولــه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [المائدة: ٦].

فقد عدّى فعل الغسل بنفسه فقال: "فاغسلوا وجوهكم" ثم عدل إلى تعدية فعل المسح بالباء فقال: (وامسحوا برؤوسكم)، ولم يقل: وامسحوا رؤوسكم، فيسوي بينهما في التعدية.

وقــد اختلف العلماء في معرفة سر دخول حرف (الباء) على فعل المسح اختلافاً كبيراً، وتعددت آراء الفقهاء تبعاً لذلك[١]، ولسنا معنيين في هذا المقام بذكر أوجه الخلاف الفقهــي فـــي ذلك، بقدر ما نحن معنيون بمعرفة سر المغايرة بين الفعلين، بدخول (الباء) علــى فعــل المســح، دون تعديته بنفسه، وقد أورد المرادي (ت ٧٤٩هــ) للباء هنا عدة معـــان[٢]: من ذلك أنها: للتبعيض، وكونها زائدة، والإلصاق، والاستعانة، ورجح المالقي أنهــا للإلصاق فقال[٣]: "والصحيح أن (الباء) في ذلك كله للإلصاق، كما تقدم في المعنى الــثالث، وإنما التبعيض الذي يمكن في التمثيل في الآية على المجاز، لا أصل للباء فيه، فهو مثل قولك: ضربت زيداً، وأنت تريد بعضه بإطلاق اللفظ مجازاً"، وهو ما رجحه ابن هشام -أيضاً- في المغني[٤].

واخـــتار الزمخشري دلالة الإلصاق للباء في هذا الموضع فقال[٥]: "المراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح-كلاهما ملصق للمسح برأسه".

---

[١] انظــر: اخــتلاف الفقهاء في هذه (الباء)، ودلالاتها الشرعية، في حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي، ديــاب عبدالجواد عطا، ١١٩-١٢١، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه، محمود سعد، ٢١١-٢١٢.

[٢] الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، ٤٣-٤٤، ت: فخر الدين قباوة.

[٣] رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي، ت: أحمد الخراط، ١٤٧.

[٤] مغني اللبيب، ت: مازن المبارك، ١٤٣.

[٥] الكشاف، ٥٩٧/١.

فدلالة الإلصاق للباء في هذا السياق بارزة واضحة، فهي على أصل دلالتها وهـو المعنى الذي لا يكاد يفارقها.

يقول ابن هشام[1]: "الباء المفردة حرف لأربعة عشر معنى، أولها الإلصاق، قيـل وهو معنى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه".

وبناءً على ذلك فيظهر لنا سر العدول إلى تعدية فعل المسح بالباء مغايراً بينه وبين تعدية فعل الغسل بنفسه، وذلك "لأن المسح لا بد فيه من إلصاق اليد بالممسوح ومباشرته، بخلاف الغسل الذي يتحقق بصب الماء على العضو، ولو لم يباشـره العـضو الغاسـل، وأوضح دليل على ذلك أن الوجه واليدين عدي إليهما فعل الغسل بنفسه فـي الوضـوء، وعدي إليهما فعل المسح بالباء في التيمم، لما كانَ مـن الممـسوحات"[2] فقـال تعـالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

ومن نماذج هذا العدول قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

فقال: (اكتالوا على الناس) فعدَّى الفعل (اكتال) بالحرف (على) ثم عدل إلى تعدية الفعل (كال) بنفسه، فقال: (وإذا كالوهم) ولم يقل: وإذا كالوا لهم.

نجد أيضاً أنه عدَّى (اكتال) بـ (على) وحقه التعدي بحرف الجر (مـن) فيقـال: اكتال منه.

---

[1] مغني اللبيب، ١٣٧، يشير ابن هشام هنا إلى قول سيبويه: "وباء الجر إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك: خرجت بزيدٍ، ودخلتُ به، وضربته بالسوط: ألزقتَ ضربك إياه بالسَّوط فما اتسع من هذا الكلام فهذا أصله" [الكتاب، ٤/٢١٧].

[2] من أسرار حروف الجر، ١٩٦.

وقـد ذهـب بعضهم إلى تناوب الحروف في هذا السياق[1]، فقالوا: إن (على) هنا بمعنى (من)، أي: اكتالوا من الناس، يقول الفراء (ت ٢٠٧هـ)[2]: "اكتالوا على الناس"، يريد: اكتالوا من الناس، وهما تعتقبان (على) و(من) في هذا الموضع".

ويـرى الـباحث أن هذا القول للفراء يقف عند حدود الدلالة المعجمية للفعل، ولا يستبطن أسرار المغايرة في استعمال الحروف مع الأفعال، والحقيقة أن كل حرف مقصود لذاتـه فلا تناوب في الحروف، فالقرآن دقيق في اختيار مفرداته التي تتم عن مظهر من مظاهر الإعجاز فيه، ولو كانت (من) مرادة في هذا السياق، لجاء السياق على نحو (وإذا اكتالوا من الناس)، دون (وإذا اكتالوا على الناس)، فورود حرف الاستعلاء (على) في هذا السـياق مقصـود لدلالة، وهو ما تنبه له الزمخشري فقال[3]: "لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك".

وهو الصحيح؛ لأن هناك فرقاً بين قولنا: (اكتال منه)، و(اكتال عليه)، ففي (اكتال مـنه)، أي: اسـتوفى كيله منه دون زيادة أو نقصان، أما قوله (اكتال عليه) ففيها معنى الـتعدي والتجاوز والتسلط، فهؤلاء المطففون (إذا اكتالوا على الناس) أخذوا حقهم وزيادة علـيه بتسلط واستعلاء، فهم يكتالون على الناس، لا أنهم يكتالون منهم، وإذا كالوا للناس غبـنوهم وانقصـوهم الكـيل والحق، فهم متجاوزون في الحالين، لذلك لم يقل: في المرة الثانـية (كالوا لهم)، وإنما عدَّى الفعل بنفسه، فقال: (كالوهم) وفي ذلك إيحاء أن المطففين لو استطاعوا أن يكيلوا الناس أنفسهم، لا أن يكيلوا لهم -من شدة تجاوز الحق- لفعلوا.

---

(1) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني، ٤٧٨.

(2) معاني القرآن، ٣/٢٤٦.

(3) الكشاف، ٤/٢٣٠.

ولـــو قال: كالوا لهم؛ لأفادت اللام الملك والاستحقاق، وهم قد هضموا الناس حقهم فلم يعطوهم إيَّاه، فحسن مجيء الفعل متعدياً بنفسه دون تعديه بلام الملك والاستحقاق[1].

وأســـهمت المغايرة في الصيغ بين (اكتالوا) و(كالوا) في الدلالة -أيضاً- على هذا المعنى فقد جاءت الصيغة (اكتالوا) مع الاستيفاء، وصيغة (كالوا) وهي أنقص من سابقتها مع الإيفاء، وفي ذلك دلالة على "أن إنقاص الحروف وتقليلها، كأنما يشي بالسرقة وإنقاص الكيل في الوفاء لهم، وأن زيادة المبنى في صيغة الاكتيال، وتعديها بحرف الاستعلاء، مما يشـــي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهراً واغتصاباً، مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغماً لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم"[2].

[1] انظر في ذلك: التعبير القرآني، ٢٠٥، ومعاني النحو، ٣/٥٢.

[2] من أسرار حروف الجر في القرآن الكريم، ٩٥.

المبحث الثاني

العدول في إسناد الفعل

ويتمـــثل هذا النوع من العدول في المخالفة في نسبة الفعل إلى الفاعل، وذلك بأن يرد الفعل مسنداً إلى فاعل ما ثم يتحول إسناد الفعل إلى فاعل آخر، كما يتمثل هذا العدول أيضاً في التحول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول أو العكس.

ويمكننا تناول ذلك على النحو الآتي:

أولاً: العدول في الإسناد

كمـــا فـــي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ [الإسراء: ٨٣].

ففـــي هذا السياق القرآني أُسند فعل النعمة إلى الله -عزوجل- فقال: (وإذا أنعمنا) لكـــنه عدل عن نسبة فعل الشر إليه -عزوجل- فلم يقل: "وإذا مسسناه بالشر" على سبيل المشاكلة في الإسناد لما سبق، وإنما قال: "وإذا مسه الشّر".

وسر ذلك كما يقول علماء التفسير والبلاغة[1] راجع إلى أن أفعال الخير تسند إلى الله -عزوجل-، ولا تنسب أفعال الشر إليه على سبيل التنزيه له -عزوجل.

وهذه ظاهرة أسلوبية واضحة ومطّردة في السياق القرآني.

مـــن ذلـــك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

---

[1] انظر: حاشية الكشاف، ٢/٤٩٦، وبدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/١٨-١٩.

فأسند فعل الرحمة إليه -عزوجل؛ لأنه من أفعال الخير، ولم يسند السيئة إليه فقال: (وإن تصبهم سيئة)، ولم يقل: وإن أصبناهم بسيئة.

ومــن ذلــك ما جاء على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * **خَلَقَنِـــي فَهُـــوَ يَهْـــدِينِ** * وَالَّـــذِي هُـــوَ **يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** * وَإِذَا مَرِضْتُ **فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٠].

فـــإن الخليل -عليه السلام- قد نسب أفعال الخلق والهداية والإطعام والإسقاء إلى الله عـــزوجل، ثـــم عدل إلى إسناد فعل المرض إليه فقال: (وإذا مرضتُ)، ولم يقل: وإذا أمرضني، في حين أنه أسند فعل الشفاء إلى الله -عزوجل- (فَهُوَ يَشْفِين)، وذلك من كمال الـــتأدب مـــع الله -عـــزوجل-، إذ أســـند إليه أفعال الخير، ولم يسند إليه أفعال الضرر والمكروه على سبيل التأدب والإجلال له.

ومـــن أبـــرز مظاهر هذا العدول في الإسناد، ما ورد في سورة الكهف في قوله تعالـــى -عـــزوجل- علـــى لسان الخضر -عليه السلام-: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَـــاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَـــانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

فكـــان تحـــول إســـناد الفعل إلى الفاعل في هذا السياق القرآني البديع على النحو الآتي:

فأردتُ أن أعيبها ← فأردنا أن يبدلهما ربهما ← فأراد ربك أن يبلغا أشدهما

[السفينة] [قتل الغلام] [إقامة الجدار]

فـــــــأردتُ ← فـــــــــــأردنا ← فـــــــأرادَ ربُّك

"فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً لـــه، فقال: (فأردتُ أن أعيبها). وأما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً؛ لأن العمل مشترك، فـــإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء، وإبدال خير منه وهو خير، فجاء بالضمير المشـــترك للعمل المشترك، ثم قال: "فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه" فأسند الإبدال إلى الله وحده.

وأما إقامة الجدار فعمل كله خير، فأسنده إلى الله سبحانه وتعالى فقال: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا"(1).

وقـــد يـــرد هذا العدول أيضاً للدلالة على ترتب الإسناد اللاحق على السابق، نحو قولـــه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

فقال: "بدأكم" ثم عدل عن إسناد الفعل إليه -عزوجل- إلى إسناده إلى المخاطبين، فقال: (تعودون)، ولم يقل: (يعيدكم) مشاكلة لسابقه.

(1) التعبيـــر القرآني، ٣١٤، وانظر: بدائع الفوائد، ٢/١٨-١٩، والتفسير القيم، ١٢-١٣، ٥٥٥-٥٥٦، وأسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ت: عبدالقادر عطا، ص ١٣٤.

ويظهر لنا سر هذا العدول في أن السياق هنا سياق رد على الكفار وتفنيد أباطيلهم، فقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٢٩].

فالمقام مقام حجاج ورد، فناسب أن يسند البدء إليه؛ لأن بدء الخلق أصعب من إعادته، فالخلق إيجاد على غير سابق نظير، والإعادة هي إيجاد وتجديد لما قد كان، فناسب بعد ذلك أن يسند فعل الإعادة إليهم، فقال: (تعودون)، دلالة على عظم قدرته حتى لكأنهم هم أنفسهم ينفعلون لإرادته هذه، فيعودون بعد الموت طائعين منقادين لأمره، في سهولة ويسر. ولم يقل: (يعيدكم)؛ لأنه ليس بحاجة إلى تأكيد قدرته على الإعادة، وإنما يريد التركيز على انفعال ذواتهم هم أنفسهم لأمر الإعادة. وكأن أمر الإعادة أمر بديهي قهري لا انفكاك لهم منه، فلا يحتاج إلى مزيد إثبات وتأكيد.

ثانياً: العدول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه للمجهول والعكس

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

فقد جرى السياق في أغلبه على ذكر الفاعل "كَذَّبَتْ من قبلهم قومُ نوح ... وقوم ... وقومُ، ... وأصحابُ..." ثم عدل إلى حذفه وبناء الفعل للمجهول فقال: "وكُذِّبَ موسى"، ولم يقل: "وكذّبَ قومُ موسى".

وقد ذهب الزمخشري إلى تعليل ذلك بقوله[1]: "فإن قلت: لم قيل (وكُذِّب موسى) ولم يقل: وقوم موسى؟

قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط، وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، وكُذِّبَ موسى أيضاً مع ووضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره".

فكأن العدول عن البناء للمعلوم إلى بناء الفعل للمجهول قد جاء للدلالة على المبالغة في التكذيب لموسى مع ظهور معجزاته، وآياته الظاهرة، فهو أكثر الرسل السابقين معجزات وآيات، ومع ذلك كُذِّبَ، وفي هذا مزيد إيناس للرسول ﷺ وتسلية له.

ومنه -أيضاً- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨].

فالعدول في هذا السياق كان على النحو الآتي:

شَقُواْ ⟵ سُعِدُواْ

مبني للمعلوم — مبني للمجهول

كان مقتضى السياق أن يكون:

شَقُواْ ⟵ سَعِدُواْ

(1) الكشاف، ٣/١٦-١٧.

للمشاكلة والمماثلة في السياق، وكان المتوقع اطراده على نسق البناء للمعلوم، إلا أن السياق عدل إلى البناء للمجهول، عند ذكر أهل الجنة، للدّلالة على أن شقاء أهل النار ناتج عن أفعالهم وأعمالهم بأنفسهم، وسعادة أهل الجنة من إسعاد الله لهم، وفي هذا إشارة إلــى أن دخول أهل النار النار بمحض عدل الله، ودخول أهل الجنّة الجنة بمحض تفضله ورحمته[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِــن فِضَّــةٍ قَــدَّرُوهَا تَقْدِيراً ... وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ [الإنسان: ١٥-١٩].

فاللافــت للانتباه مجيء الفعل (طاف) مبنَياً للمجهول ابتداء فقال: (ويطاف عليهم ...)، ثــم عــدل عــن ذلك إلى البناء للمعلوم وذكر الفاعل فقال: "ويطوف عليهم ولدان مخلدون ...). فلماذا بني الفعل للمجهول، ابتداءً ثم بني للمعلوم؟

أجاب الكرماني عن ذلك فقال[2]: "وقوله (ويطاف عليهم) وبعده (ويطوف عليهم)، إنما ذكر الأول بلفظ المجهول؛ لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون، ولهذا قال: (بآنية من فضة)، ثم ذكر الطائفين، فقال: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون)".

السـياق هو الذي اقتضى الحذف هناك والذكر هنا، فهو في الآية السابقة (وَيُطَافُ عَلَـيْهِم بِآنِـيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً) يركز على المطوف به لا على الطائفين، فالمهم في السياق هو ذكر ما يطاف به؛ فلذلك أسهب

---

(١) لمــا رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخِلَ الجنَّةَ أحداً عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ منه برحمة، واعلموا أن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإنْ قلّ، صحيح مسلم، ٤/٢١٧١، ت: محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ١٩٢.

في وصف الآنية وأنها من فضة ووصف الأكواب، وكذلك الآية التالية لها (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) فحذف الفاعل أيضاً؛ لأنه ليس هو المهم في السياق إنما المهم هو الشراب الذي يُسقَونه لا الساقي لهم، فلذلك ذكر الكأس التي يسقون بها وأنهم يسقون شراباً ممزوجاً بالزنجبيل من عين تسمى سلسبيلا، ولكنه بعد ذلك عدل عن البناء للمجهول بحذف الفاعل إلى ذكره في قوله (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً).

لأن التركيز والاهتمام في هذا السياق منصبٌّ على الفاعل نفسه وهم الولدان المخلدون، فوصفهم أنهم ولدان، وأنهم مخلدون، وأن الرائي لهم يحسبهم من حسنهم، وجمالهم وبهاء طلعتهم، كأنهم لؤلؤ منثور.

"وهكذا في كل مرة أتى فيها بالفعل مبنياً للمجهول، كان ذلك لأن الفاعل لم يكن مهماً؛ إنما كان المهم الشيء المطوف به، أما عندما أتى بالفعل مبنياً للمعلوم فقد كان الفاعل هو المهم تبعاً للسياق"[1].

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق، وهو لماذا قدم ذكر المبني للمجهول على المبني للمعلوم (ويطاف ... ويطوف)؟ والمعهود في الاستعمال اللغوي أن يرد المبني للمعلوم قبل المبني للمجهول عندما تكون مادة الفعل واحدة في المرتين والفاعل واحداً؛ لأن ذكر الفاعل في المرة الأولى يغني عن ذكره في المرة الثانية، فلماذا جرى العكس في هذا السياق القرآني؟

والذي يظهر –والله أعلم– أن السياق الأول (ويطاف عليهم بآنية) كان المقصود منه التركيز ابتداء على النعمة التي يتنعم بها أهل الجنة، وذكر وصف آوانيهم وأكوابهم

---

[1] سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، عودة الله منيع القيسي، ١٠٢.

وشرابهم (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً...) ثم بعد ذكر نعمة الله على وجه التفصيل والتفضيل ناسب ذكر الخدم والحشم ووصفهم، فذكرُ النعم سابق لذكر الخدم، وهم تــبع لهــا وليســوا أصلاً لها، ولا محل الاهتمام الأول ابتداء؛ لذا ناسب مجيء ذكر من يطــوف عليهم، فقال (ويطوف عليهم ولدان مخلدون ...)[1]. ثم في ذلك أيضاً شد للانتباه عــند بناء الفعل ابتداء للمجهول، إذ قال: (ويطاف عليهم ...) فيضل التساؤل وارداً مفاده هذا وصف المطوف به فمن الطائفون وما وصفهم؟ فيأتي ذكرهم بعد ذلك تبعاً، وهذه من لطائف الكتاب العزيز.

ومــنه -أيضــاً- قولــه تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّــوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: ٣١].

فبنـــى الفعــل للمجهــول فـــي ذكر التحلية بالذهب إشارة إلى أنهم ملوك الآخرة، والملوك يُلبَّسون الذهب من قبل الخدم والحشم، وفي هذا مزيد تكريم لهم.

بيــنما يكــون لبس الثياب من قبل صاحبها، فلا يُلبَّس ثيابه إلا من كانت فيه علَّة تحــول دون ذلك، ولم يرد ذكر تحلية أهل الجنة بالذهب إلا مبنياً للمجهول، من ذلك قوله تعالــى: ﴿إِنَّ اللَّــهَ يُــدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وقــولــه تعالـــى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان: ٢١].

---

[1] انظر: سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة، ١٠١.

ومن نماذج هذا العدول أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ١٠].

فقــد أسند فعل الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله تعالى، مع أن مقابله أسند إليه بقــولــه: (أم أراد بهم ربهم رشداً)؛ وذلك من قبيل التأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه[١].

أمـــا قـــولـــه: "أم أراد بهم ربهم رشد"، فهو من ناحية أخرى أدب مع الله وتعظيم لشأنه في إسناد الرشد إليه"[٢].

فقد حذف الفاعل في هذا السياق ونظائره تأدباً مع المولى -عزوجل- من أن تسند أفعال الشر إليه، في حين أسندت أفعال الخير إليه، وهذه ظاهرة تطرد في السياق القرآني، كما سبق ذكره في هذا المبحث.

يقــول ابــن القيم[٣]: "إن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول، أدباً في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله".

ومـــا ذهـــب إلـــيه ابن القيم لا يسلم له على إطلاقه[٤]، فقد أسندت أفعال ظاهرها العذاب والشر إليه عزوجل في سياق أخذ الظالمين وعذاب الكافرين، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ٢٣١/٢٩.

(٢) عقــد الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن باباً بعنوان: التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله، تحدث فيه عن بعض الآيات التي ذكرت هذه الظاهرة، انظر: البرهان، ٥٩/٤.

(٣) بدائع الفوائد، ١٨/٢-١٩.

(٤) انظر: معاني النحو، ٧٨/٢.

نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٤-٤٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وذلــك لأن أخــذ الله الأمم الكافرة والظالمة بظلمها هو عين العدل والرحمة منه عــزوجل بخلقــه وعباده، فاستئصال الشر وأهله هو عين الخير، وفيه أيضاً إظهار لشدة الأخذ وقوته في نسبته إليه.

المبحث الثالث

العدول عن ذكر المفعول به إلى حذفه والعكس

ومن نماذج هذا العدول قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

فقد ذكر مفعول الوعد في خطاب أهل الجنة، فقال: (ما وعدنا ربنا) وحذفه من خطاب أهل النار، فقال: (ما وعد ربكم)، ولم يقل: (ما وعدكم ربكم).

وذهب بعض المفسرين إلى أن حذف مفعول الفعل (وعد) الثاني في قوله (ما وعد ربكم)، كان "لمجرد الإيجاز، لدلالة مقابله عليه في قوله: "ما وعدنا ربكم"؛ لأن المقصود من السؤال: سؤالهم عما يخصهم فالتقدير: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم، أي: من العذاب؛ لأن الوعد يستعمل في الخير والشر"[1].

والذي يبدو أن الحذف هنا لم يكن لمجرد الإيجاز وإنما له أبعاد دلالية منها:

أولاً: أن ذلك راجع إلى المفارقة بين وعد أهل الجنة ووعد أهل النار، ففي الوعد الثاني لأهل النار فيه دلالة الإطلاق والعموم، فهو وعد يشمل البعث والحساب، والثواب والعقاب، فقد كانوا منكرين لكل ذلك. وليسو منكرين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟

بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة، فقال: "وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً"[2]. بل إن نعيم أهل الجنة وثوابهم هو داخل في عموم الخطاب

---

[1] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٩/١٣٧.

[2] الجملة العربية والمعنى، فاضل السامرائي، ١٨١.

للكفـــار (مـــا وعـــد ربكـــم) فنعيم المؤمنين يزيد في عذاب وشقاء الكافرين يومئذ، يقول الزمخشري[1]: "فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل ما وعدنا ربنا؟

قلـــت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة (وعدنا) عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل وعد الله من البعث والحساب، والثواب والعقاب، وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بـــذلك أجمـــع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك".

ثانياً: أن الذكر هناك والحذف هنا راجع أيضاً إلى المفارقة بين المقامين، كما كان فـــي الســـبب الأول للدلالـــة علـــى المفارقة بين الوعدين، ففي ذكر المفعول به في وعد المؤمنـــين دلـــيل علـــى أنهم "خوطبوا بهذا الوعد من قبل الله تعالى، وفي ذلك مزيد من التشـــريف لحالهم، أما حذفه -ثانياً- ففيه إسقاط للكفار عن رتبة التشريف، وإشعار بأنهم ليسوا أهلاً لخطابه عزوجل"[2]. فمقام المؤمنين غير مقام الكفار في الخطاب.

فـــأدى العـــدول إلى حذف المفعول به في هذا السياق القرآني إلى توسيع المعنى وانفتاح الدلالة.

ومنه أيضاً قولـــه تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام، مخاطباً قومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣].

إذ حصـــل عـــدول عـــن ذكـــر المفعول به إلى حذفه، فذكر مفعول السمع، فقال: (يسمعونكم)، وحذفه من فعل الدعاء (إذ تدعون)، وذكر مفعول النفع، فقال: (ينفعونكم) ثم عدل عن ذكره إلى حذفه من فعل الضر فقال: (أو يضرون).

---

(١) الكشاف، ٢/٨٠، ٨١.

(٢) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٩١، انظر: تفسير أبي السعود، ٣/٢٢٩.

ولـــو جرى السياق على نمط واحد من المشاكلة لقيل: (هل يسمعونكم إذ تدعونهم، أو ينفعونكم أو يضرونكم).

والسر في هذا العدول -والله أعلم- أنه ذكر مفعول السمع (يسمعونكم)؛ لأنه هو ما يهمهم، إذ يهمهم سماع دعائهم، وليس يعنيهم بالضرورة أن تسمع هذه الأصنام لغيرها، لا ســـيما أنهـــم توجهوا لها بالعبادة، وحق المعبود أن يسمع عبده، وحذف المفعول من فعل الدعاء (إذ تدعون) ليفيد الحذف دلالة العموم، أي: تدعونهم أو تدعون غيرهم، فالإله الحق يجيب من عبده ودعاه، ومن توجه بالدعاء إلى غيره عاقبه، فحاورهم إبراهيم عليه السلام بهـــذا الأسلوب ليثير فيهم حاسة التأمل والفهم، ثم ذكر مفعول النفع (أو ينفعونكم) وحذفه مـــن فعل الضرر (أو يضرون)، وليس ذلك من أجل الفاصلة القرآنية فقط، كما ذهب إليه بعضهم، وإنما اقتضاه المعنى أيضاً.

"فقـــد ذكـــر مفعـــول النفع، فقال: "ينفعونكم"، لأنهم يريدون النفع لأنفسهم، وأطلق الضرر لسببين:

الأول: أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه. **والآخر:** أن الإنسان يخشـــى من يستطيع أن يلحق به الضرر، فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص، والضر موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر، والمعنى أن هذه الآلهة -على حد زعمهم- لا تتمكن من الإضرار بعدوِكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟

ولـــو ذكـــر المفعول به، فقال: "أو يضرونكم" لما أفاد هذين المعنيين"[1]. فإطلاق الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة.

---

[1] التعبير القرآني، ٢١٩.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، فقد ذكر مفعول الفعل (أضل) فقال: (وأضل فرعون قومه) وعدل عن ذلك إلى حذفه مع فعل الهداية فقال: (وما هدى)، ولم يقل: (وما هداهم)، وذلك أنه "أخرج الفعل (هدى) مخرج العموم، أي: أن فرعون لا يتصف بصفة الهداية البتة، وذلك أنه لو قال: "وما هداهم" لكان عدم الهداية مقيداً بقومه، إذ يُحتمل أنه هدى غيرهم، لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً لا من قومه ولا من غيرهم[1].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣].

فقال: "ما ودَّعك" فذكر المفعول به وهو ضمير المخاطب، ثم عدل عن ذكره إلى الحذف، فقال: "وما قلى"، ولو جرى السياق على نسق واحد لقيل: (وما قلاك).

فما سبب ذكر المفعول به مع فعل التوديع وحذفه مع فعل الهجر والقلى؟

يذهب بعضهم إلى أن هذا سببه مراعاة الفاصلة القرآنية[2]؛ لأنها قد جاءت مختومة بالألف المقصورة (الضحى، سجى، قلى، ..) فناسب حذف المفعول به (كاف الخطاب) من الفعل (قلى) لوقوعه فاصلة قرآنية، وممن ذهب إلى ذلك الفرّاء[3] والفخر الرازي[4] والنيسابوري[5] ويرى بعضهم أن الحذف هنا ليس مقصوراً على الفاصلة القرآنية، تقول بنت الشاطئ[6]: "ونرى -والله أعلم- أن حذف الكاف من "وما قلى"

---

(١) معاني النحو، ٩٣/٢.

(٢) انظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى أبو شادي، ٦٧.

(٣) انظر: معاني القرآن، ٢٧٤/٣.

(٤) انظر: تفسير الرازي، ٢١٠/٣٢.

(٥) انظر: غرائب القرآن، ٥١٦/٦.

(٦) الإعجاز البياني للقرآن، عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، ٢٦٩.

مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى، في موقف الإيناس، بصريح القول: وما قلاك؛ لما في القِلى من حِـسٍّ الطُّـرد والإبعاد وشدة البغض، وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحِسَّ اللغـوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء".

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨].

فقد ذكر المفعول به (يجدك) و(ووجدك)، وحذف من (آوى، فهدى، فأغنى).

ويرى الفراء أن هذا الحذف قد حصل لأجل فواصل الآي، يقول الفراء[1]: "وقوله -عـزوجل-: (فأغنى)، و(فآوى)، يراد به (فأغناك)، و(فآواك)، تجري على طرح الكاف لمشاكلة رؤوس الآيات؛ ولأن المعنى معروف".

والحقـيقة أن الحذف من أجل موافقة الفواصل القرآنية أمر لا يسلم به، وإن كانت الفواصـل تضفي جرساً صوتياً معيناً، وهذا لا يُنكر أثره، لكنها ليست التعليل الوحيد لما يطـرأ على التعبير من تغيرات وعدولات سواء من حذف وذكر، أو تقديم وتأخير، وإنما يضـاف إلـى ذلك -وهو الأهم مما سبق- أن هذا التغيير اقتضاه المعنى والسياق وليس لأجـل الفاصلة فحسب؛ لذا يظهر أن العدول عن ذكر المفعول به في هذا السياق القرآني في الأفعال (آوى...فهدى...وأغنى) أريد بهذا الحذف العموم، أي: آواك وآوى بك، فآواك مـن يتم، وجعلك مأوى لليتامي، وهداك إلى دين الحق بعد أن كنت في حيرة من أمرك، وجعلك هداية للآخرين، وأغناك من فاقة وعوز وحاجة وأغنى بك، ولو أتى السياق على

---

[1] معاني القرآن، ٣/٢٧٤.

نمط واحد فذكر المفعول به فقال: (فآواك) و(فأغناك) و(هداك)؛ لأوهم المعنى أن ذلك كان خاصــاً برسول الله ﷺ ولم يتعدَّ أثره إلى غيره، فأفاد العدول عن ذكر المفعول إلى حذفه في هذا السياق توسيع الدَّلالة بالإطلاق والعموم.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ... وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣-١٧٩].

فذكــر الضــمير المفعــول بــه في: "أبصرهم" الأولى، وحذفه من الثانية، فقال: "وأبصر".

يقول الزركشي في ذلك[١]: "ومن فوائد قوله تعالى في الأوليين: (وأبصرهم) وفي هاتــين: (فأبصــر)، أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً[٢]، فلما تضمنت التشفي بهم قيل لــه: (أبصرهم). وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في استسلامهم لعينه قرة، ولقلبه مسرَّة، فقيل له: أبصر".

فدل العدول إلى حذف المفعول به في قوله (وأبصر) على العموم والإطلاق، لأنه قصــد بــه فتح مكة "وفتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب، لذا أطلق فقال: (وأبصر)؛ لأنه لــيس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر، فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل مكة وقد حل علــيهم العــذاب وحدهم، قال: (أبصرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصر)"[٣].

---

[١] البرهان في علوم القرآن، ٢٣/٣.

[٢] وقــد رجح الإمام الطبري أن هذه الآية في شأن أهل بدر، وهو ما ذهب إليه السُّدّي، انظر: تفسير الطبري، ٧٣/٢٣.

[٣] التعبير القرآني، ٩٠-٩١.

المبحث الرابع

العدول في العدد

نلحظ في التعبير القرآني كثيراً ما يقع عدول عن التعبير بصيغة الإفراد أو التثنية أو الجمع إلى التعبير بصيغة أخرى.

وهذا العدول يشد انتباه المتلقي؛ لأنه يمثل خروجاً عن المألوف اللغوي في اطراد السياق على نمط واحد من المشاكلة، نحو ما نجده في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

فقد كان مقتضى السياق في المشاكلة أن يكون (هذان خصمان اختصما).

ونحو: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

فعدل عن التثنية إلى الإفراد، ولو جرى السياق على نسقه العام لكان (فقولا إنا رسولا رب العالمين).

كما هو الحال في سورة طه: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ولا بد أن يكون لهذا النوع من العدول دلالات يقصد إليها النص القرآني، وليس ذلك من قبيل الاتساع في اللغة كما يذهب إليه بعضهم، ولا هو من قبيل الحمل على اللفظ تارة أو الحمل على المعنى تارة أخرى كما ذهب إليه آخرون(١)، ولقد كان ابن جني أعمق نظراً وفهماً للبلاغة القرآنية عندما رفض القول بالاتساع في تعليل هذا النوع من العدول، كاشفاً وجه البلاغة في العدول عن الجمع إلى الإفراد في قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

---

(١) انظر في ذلك: معترك الأقران، ٣٢٢/٣، ٥٨٢، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم، ٢٨٩/٣، ومعاني النحو، ١٣٤/١-١٣٦.

طِفْــلاً...﴾ [الحج: ٥]، ولم يقل: (أطفالاً) فقال ابن جني معللاً ذلك[1]: "وحسن لفظ الواحد هــنا؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلائق به ذكر الواحد، لقلته عن الجماعــة، ...، وهذا ممَّا إذا سئل الناس عنه قالوا: وضع الواحد موضع الجماعة اتساعاً في اللغة، وأُنسوا حفظ المعنى لتقوى دلالته عليه وتنضم بالشبه إليه".

فــابن جني لا يرضى التسليم بالقول: إن هذا ضرب من الاتساع في اللغة، بل له دلالــة مقصــودة يقتضــيها السياق، والقول بالاتساع والخفة والاختصار، هو ضرب من التعلــيل الظاهري الذي يقف عند ظاهر التركيب ولا يستبطن دلالاته ومعانيه، ولا يعنينا فــي هــذا المــبحث تناول العدول في الألفاظ إفراداً وتثنية وجمعاً، كإفراد السمع وجمع الأبصـــار فـــي نحـــو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧]. وإنما الذي يعنينا هنا ما له علاقة بالتركيب ويمثل خروجاً عن ظاهر اطراد السياق.

وقصــدنا فــي ذلــك تعليل هذا العدول والتأمل في دلالاته، وأبعاده البلاغية، لا الوقــوف عند ظاهر التركيب، والتعليل بالاتساع والاختصار والخفة، كما هو الحال عند النحاة، أو بالحمل على اللفظ تارة والحمل على المعنى تارة أخرى.

وهذا النوع من العدول يتمثل في ست صور على النحو الآتي:

---

(1) المحتســب، ت: محمــد عــبدالقادر عطا، ٢/٣١٥، وانظر أيضاً: أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حســين، ٣٤٣، والإعجــاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، محمد الأمين الخضري، ٥٨-٥٩.

الصورة الأولى: العدول عن الإفراد إلى التثنية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

فقد جاء الخطاب من فرعون وقومه أولاً إلى موسى -عليه السلام- فقالوا: (أجئتنا لتلفتنا ...)؛ لأنه هو صاحب الرسالة، وعلى يديه ظهرت المعجزات؛ لذلك كان الخطاب موجهاً إليه ابتداء؛ ثم ارتفعت نبرة الخطاب بارزة بالعداء والتكذيب للدعوة والداعين إليها، فوجهوا الخطاب إلى موسى وهارون معاً، فقالوا: (وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين)، وذلك لكونهما مشتركين في الدعوة والتبليغ، وأما ظهور المعجزات فقد كان على يد موسى فحسب.

الصورة الثانية: العدول عن الإفراد إلى الجمع

منه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

إذ خاطب المولى -عزوجل- نبيه الكريم ﷺ بخطاب الإفراد فقال: (يا أيها النبي) ثم عدل إلى مخاطبته بالجمع، فقال: (إذا طلقتم النساء). وكان مقتضى السياق أن يكون (يا أيها النبي إذا طلقت النساء)، وذلك لأن هذه الآية يفسرها السياق الخارجي من سبب النزول.

فقد روى قتادة عن أنس: قال طلق رسول الله ﷺ حفصة -رضي الله عنها- فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ"[1].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤٨/١٨.

فالخطاب موجه إلى النبي ﷺ لكن السياق عدل إلى الجمع للدلالة على أمرين:

الأول: دلالــة التعظــيم للمخاطب وهو الرسول ﷺ يقول الزمخشري[1]: "خص النبي ﷺ بالنداء، وعم بالخطاب؛ لأنَّ النبيَّ إمامُ أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يــا فــلان افعلــوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤسه، وأنه مدرة قومه، ولســانهم الذي يصدرون عن رأيه، ولا يسيرون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّاً مسدَّ جميعهم".

الثاني: دلالة العموم، وذلك بالنسبة للمتلقي العام، "فالحكم ليس مقصوراً على النبي وحده، وإنما يشمل المسلمين جميعاً"[2].

ومــن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

والــذي نلحظه في هذا السياق القرآني مجيء الضمير في جملة الصلة مفرداً في قوله (ومن يطع الله ورسوله) ثم عدل السياق إلى الجمع في قوله (خالدين فيها) وهي حال مــن الضمير في يدخله، وكان مقتضى السياق أن يكون (خالداً فيها)، تماماً كما هو الحال فــي وصف الكافر، إذ قال المولى -عزوجل- في السياق نفسه "وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ ... يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ...".

فقد جمع "خالدين" في وصف ثواب الطائعين، وأفرده في وصف عقاب العاصين، فما سر ذلك؟

---

(١) الكشاف، ١٠٧/٤.

(٢) تحولات البنية في البلاغة، ٣٣٤.

أجاب عن ذلك أبو السعود فقال[1]: "ولعل إيثار الإفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظراً إلى المعنى للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة".

الصورة الثالثة: العدول عن التثنية إلى الإفراد

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-١٧].

عـــدل السياق الكريم عن التثنية (فأتيا ... فقولا) إلى الإفراد في قوله (إنا رسول رب العالمين)، ومقتضى السياق أن يكون (فقولا إنا رسولا رب العالمين)، لا سيما أنها قد وردت بالتثنـــية في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].

وقد علل ذلك بعضهم بأن كلمة (رسول) من الألفاظ المشتركة تطلق على الرسول وعلـــى الرســـالة[2] لـــذلك فهي بمعنى الرسول في آية طه، وهي بمعنى الرسالة في آية الشعراء لذلك أفردت؛ لأن الرسالة مصدر، والمصدر يستوي فيه المثنى والجمع.

يقول الزمخشري[3]: "فإن قلت هلا ثني الرسول كما في قوله "إنا رسولا ربك"؟

قلـــت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل، فلم يكن بد من تثنيته، وجعل ها هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه، إذ وصف به بين الواحد والتثنية والجمع".

---

(1) تفسير أبي السعود، ٢/١٥٤.

(2) انظر: البرهان في متشابه القرآن، الكرماني، ١٤٠، وملاك التأويل للغرناطي، ٢/٨٢١.

(3) الكشاف، ٣/١٠٨.

ثم قال[1]: "والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهتُ عِنْدَهُم   بِسِرٍّ ولا أَرْسَلْتُهُم بِرَسُولِ

ويجوز أن يوحَّد؛ لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللأخوة، كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد".

وما ذهب إليه الزمخشري في الرأي الثاني، وهو قوله: إن السياق نزلهما لاتفاقهما في الدعوة والرسالة منزلة الرسول الواحد، قول وجيه، ولكن يرد السؤال هنا ما سر تثنية كلمة (رسول) في (طه)؟

والـذي يبدون أن السياق هو الذي اقتضى التثنية في آية طه واقتضى الإفراد في آية الشعراء.

وذلك أن سياق سورة طه يشير إلى أن الخوف قد صدر من موسى وهارون، وقد ذكـر القرآن ذلك: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٤-٤٥].

فناسب ذلك أن يخاطبهما بعدم الخوف وتبليغ الرسالة، فجاءت كلمة (رسول) مثناة، أمـا في سورة الشعراء فقد أشار السياق القرآني فيها إلى أن الخوف قد صدر من موسى وحده، فناسب ذلك إفراد كلمة الرسول تهدئة لروعه[2]، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢-١٦].

---

[1] الكشاف، ٣/١٠٨.

[2] انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ١٢٠.

فكانـــت آية الشعراء إخباراً عن نداء موسى لربه قبل أن يرسل هارون نبياً معه، فناسب الإفراد بالرسالة؛ لأنه هو المعني بها وهو المبلغ الأول لها.

وجاءت آية طه تخبر عن نداء موسى وهارون معاً، بعد أن أصبح هارون نبياً مع موسى، فناسب مجيء كلمة (رسول) حينئذ مثناة لتحملهما الرسالة والتبليغ معاً.

وكـــذلك قـــولـــه تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

ففـــي هـــذا السياق القرآني الكريم، نجد أن الخطاب قد وجه لآدم وزوجه بصيغة التثنـــية (فلا يخرجنكما) ثم عدل إلى الإفراد فقال: (فتشقى)، ولو جرى السياق على نمط واحد لكان (فتشقيا).

فكـــان العـــدول متمـــثلاً في إسناد فعل الشقاء إلى الضمير المستتر العائد إلى آدم وحده، فَحُذِّرَ من الشقاء دون زوجه، ولا بد أن يكون لذلك دلالة.

فـــذهب بعضـــهم إلـــى القول بأن شقاء الرجل يتضمن شقاء أهله معه[١]، وذهب آخرون إلى أن الشقاء هنا مخصوص بآدم نفسه؛ لأنه المسؤول عن البحث والكد في طلب القوت لأهله[٢]، فالمراد بالشقاء هنا شقاء البحث عن المعيشة.

يقـــول الزمخشـــري[٣]: "وإنمـــا أســـندا إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما في الخروج؛ لأن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن فـــي ضـــمن ســـعادته ســـعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها، مع المحافظة على

---

(١) انظر: الكشاف، ٥٥٦/٢، وتفسير الرازي، ١٢٥/٢٢.

(٢) انظر: البحر المحيط، ٢٨٤/٦، وتفسير أبي السعود، ٤٥/٦.

(٣) الكشاف، ٥٥٦/٢.

الفاصلة، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل، وهو راجع إليه".

الصورة الرابعة: العدول عن التثنية إلى الجمع

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

فقد حصل عدول في إسناد الفعل إلى المثنى (تبوّءا) إلى إسناده للجمع (واجعلوا، وأقيموا) ثم عدول عن الجمع إلى الإفراد (وبشّر المؤمنين).

قال النيسابوري في تعليل ذلك[1]: "وإنما ثنى الخطاب أوّلاً ثم جمع؛ لأن اختيار المكان للعبادة مما يفوّض إلى الأنبياء فخوطب [هو]وهارون بذلك، ثم جعل الخطاب عامّاً لهما ولقومهما؛ لأن استقبال القبلة وإقامة الصلاة واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالتبشير في قوله: (وبشر المؤمنين)؛ لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات هو هذه البشارة، فلم تكن لائقة إلا بحال موسى الذي هو الأصل في الرسالة".

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات: ٩].

فقد عدل عن التثنية في قوله: (طائفتان) إلى الجمع في قوله: (اقتتلوا) ثم عدل مرة أخرى عن الجمع إلى التثنية، فقال: (فأصلحوا بينهما).

وقد علل الزمخشري هذا العدول أنه من قبيل الحمل على المعنى دون اللفظ، يقول[2]: "فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: (اقتتلوا) والقياس (اقتتلتا) ... ؟ قلت: هو حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس".

---

(1) غرائب القرآن، ٣/٦٠٦.

(2) الكشاف، ٣/٥٦٣، وانظر: البحر المحيط، ٨/١١٢.

ولكن الزمخشري لم يعلل لماذا كان الحمل على المعنى دون اللفظ في هذا السياق على وجه الخصوص؟ والذي يبدو أن سر العدول عن التثنية إلى الجمع في هذا الموضع يكمن في أن الطائفتين عند اقتتالهما واشتباكهما تمثلان حينئذ جمعاً من المقتتلين لا تمايز بيـــنهم، وفـــي هـــذا إمعان في تصوير شدة الاقتتال، فإذا ما انتهى الاقتتال بينهم، وسعت مساعي الصلح، تمايزوا إلى فريقين وطائفتين مستقلتين.

وهو ما أوضحه الرازي بقوله(١): "عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه يكـــون فاعلاً فعلاً، فقال: اقتتلوا ... وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة وإلا لم يكن يتحقق الصلح، فقال: بينهما لكون الطائفتين حينئذ كنفسين".

ومنه قوله تعالى مخاطباً آدم وحواء: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

فقد أسند المولى -عزوجل- فعل الهبوط ابتداء إلى ضمير التثنية فقال: (اهبطا) ثم عـــدل إلى إسناد فعل الإتيان إلى الجمع في قوله: (فإمّا يأتينكم منى هدى)، وكان مقتضى السياق أن يرد على نحو (فإمّا يأتينكما مني هدى).

والـــذي يظهر -والله أعلم- أن المولى عزوجل قد خص آدم وحواء بالعقوبة على ما بدر منهما من خطيئة فخاطبهما بصيغة التثنية فقال: (اهبطا منها ...) "ليخصهما بذلك وحدهما دون الامتداد لأحد غيرهما، تحقيقاً لمبدأ العدل الإلهي"(٢).

---

(١) تفسير الرازي، ١٢٧/٢٨-١٢٨.

(٢) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٣٨.

فـيكون تغيـيب الذرية من الخطاب تغيبياً لهم من العقوبة، ثم عدل بعد ذلك إلى الجمـع في خطاب الهداية "لتدخل الذرية في خطاب الهدى والعصمة من الضلال بعد أن خرجت من خطاب العقوبة (اهبطا)"[1].

فـيكون هذا العدول قد أدى دلالة المفارقة في التغييب والاستحضار، ففي السياق تغيـيب لذرية آدم وحواء من خطاب العقوبة (اهبطا)، ثم استحضرهم في خطاب الهداية "فإما يأتينكم مني هدى".

الصورة الخامسة: العدول عن الجمع إلى الإفراد

كمـا ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَـوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

فجمـع أولاً، فقال: (ترونها)، ثم عدل عن ذلك إلى الإفراد فقال: (وترى الناس). وذلـك: "لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها، وهي معلقة أخيراً بكون الناس حال السكر، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم"[2].

ومـنه قولـه تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِـندَكَ الْكِبَـرَ أَحَـدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ [الإسراء: ٢٣].

إذ عـدل السـياق عن خطاب الجمع (تعبدوا) إلى إفراد ضمير الخطاب في قوله: (عـندك ... فـلا تقـل ... ولا تنهرهما ... وقل لهما ...)، وذلك لأن المقصود هو نهي

---

(1) تحولات البنية في البلاغة العربية، ٣٣٨.

(2) الكشاف، ٣/٥.

كــل واحــد عــن تأفيف والديه ونهرهما، ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية، لم يحصل هذا"[1].

وكــذلك قولـــه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢-٤٣].

فقــد جاء ضمير الصلة جمعاً في قوله (من يستمعون) ثم عدل إلى الضمير المفرد في قوله: (ومنهم من ينظر إليك) وذلك في سياق واحد، وقد ذهب بعض علماء اللغة إلى تعليل ذلك بأنه من قبيل الحمل على المعنى تارة، والحمل على اللفظ تارة أخرى.

يقــول المبرد[2]: "(ومن) تكون جمعاً على لفظ الواحد، وكذلك الاثنان، قال الله – عــزوجل– (ومنهم من يستمع إليك)، وقال: (ومنهم من يستمعون إليك)، فحمل مرة على اللفظ، ومرة على المعنى...".

ويــرى الــباحث أن التعلــيل بالحمل على المعنى تارة، وبالحمل على اللفظ تارة أخرى، هو تعليل من أجل الصحة النحوية، لكنه لا يقف على أسرار البيان في التركيب، وإنما ينبغي تعليل سبب الحمل على اللفظ في هذا الموضع، والعدول عنه إلى الحمل على المعنى في موضع آخر.

ومــن التعلــيلات الطريفة لذلك ما ذهب إليه الكرماني بقوله[3]: "لأن المستمع إلى القــرآن كالمســتمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر، فكأن في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى، ووحّد (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثروا كثرتهم".

---

(1) تفسير أبي السعود، ١٦٦/٥.

(2) المقتضب، ٢٩٥/٢، وانظر: ٢٥٣/٣.

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، ٩٤.

ويرى السامرائي أنه[1]: "ربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر، فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوحّدَ النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائين، وجمع الاستماع لأنه يختلف أثره من شخص لآخر، فالكلام تختلف مواقعه من مستمع لآخر؛ ولذلك وحَّد الرائين؛ لأنهم يرونه شيئاً واحداً وجمع المستمعين؛ لأن أثر ذلك مختلف عندهم".

الصورة السادسة: العدول عن الجمع إلى التثنية

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥-١٦].

فقد عدل السياق الكريم ابتداء عن خطاب التثنية (فاذهبا) إلى خطاب الجمع (معكم) ثم عدل إلى خطاب التثنية مرة أخرى (فأتيا فرعون فقولا).

فأصبح خطاب الجمع (معكم) يمثل عدولاً لأصل سياقيٍّ سابق، وهو في الوقت نفسه يمثل أصلاً سياقياً لعدول لاحق.

والذي نلحظه في هذا السياق أن التعبير بالجمع (إنا معكم مستمعون) فيه مزيد تأكيد اقتضاه السياق، فالآيات السابقة لهذه الآية فيها نداء كليم الله موسى ومناجاته ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ [الشعراء: ١٢-١٥].

فكليم الله موسى خائف من فرعون وقومه، ولا يخاف التكذيب فحسب، بل يخاف القتل من قبلهم، فالسياق كله خوف وتضرع ومناجاة، فكان المناسب لذلك من قبيل التناسب المعنوي في السياق أن يرد الخطاب بالجمع بقوله (إنا معكم مستمعون). وتحدث عن نفسه

---

[1] التعبير القرآني، ٤٨.

أيضـــاً بضمير الجمع (مستمعون) لما فيه من مزيد تأكيد وزيادة طمأنينة بالجمع في مقام شدة الخوف، وفيه مزيد تعظيم وتكريم لموسى وهارون أن نزلهما منزلة الجمع؛ إمعاناً في بـــث الثقة والطمأنينة الكاملة في حين ورد السياق في سورة طه على نحو ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَـــافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

فنبرة الخوف في سياق طه أخف من سابقه في الشعراء، بدليل أن الخوف هنا كان من فرعون وحده، بينما في سياق الشعراء كان الخوف من فرعون وقومه، ثم إن الخوف فـــي آيـــة طه أيضاً لم يصل إلى درجة الخوف من القتل كما هو الحال في سياق سورة الشـــعراء (وأخاف أن يقتلون)، لذلك كان التوكيد في هذا السياق أخف من سابقه، فجاءت التثنية على أصلها فقال (إنني معكما أسمع وأرى). وأفرد نفسه في الحديث (أسمع وأرى)، فقابـــل الإفـــراد بالإفـــراد، والجمع بالجمع[١]، وهذا من قبيل التناسب المعنوي البياني في القرآن الكريم[٢].

---

(١) انظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن) محمد الأمين الخضري، ١٠١.

(٢) انظر في ذلك: المناسبة في وحدة النسق واختيار المفردات، في كتاب (التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي)، أحمد أبو زيد، ١٧٣-١٨٨.

المبحث الخامس

العدول في التقديم والتأخير

من ذلك ما نجده من العدول عن تقديم المفعول به إلى تأخيره في السياق القرآني، نحو قوله تعالى ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ [الأحزاب: ٢٦].

ففي هذا السياق نجد أن كلمة (فريقاً) وردت ابتداءً مفعولاً به مقدماً للفعل (تقتلون) فقال (فريقاً تقتلون) ثم عدل عن ذلك إلى تأخيرها بعد الفعل (تأسرون) فقال (وتأسرون فريقاً) ولو جرى السياق على نمط واحد من المشاكلة لكان (فريقاً تقتلون وفريقاً تأسرون).

ولكي ندرك سر ذلك ينبغي لنا معرفة سبب نزول هذه الآية، فقد نزلت في يهود بني قريظة، وقد صدر فيهم حكم سعد بن معاذ – رضي الله عنه– أن تقتل المقاتلة وتسبى النساء والذراري، وأن تكون ديارهم للمهاجرين، فأمضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ما حكم به سعد، كما هو مفصل في السيرة[1].

ويوضح ابن عاشور سبب هذا العدول مستنبطاً ذلك من أسباب نزول هذه الآية فيقول[2]: "فريقاً تقتلون، للاهتمام بذكره، لأن ذلك الفريق هم رجال القبيلة الذين بقتلهم يتم الاستيلاء على الأرض والأموال والأسرى، ولذلك لم يقدم مفعول تأسرون" إذ لا داعي إلى تقديمه فهو على أصله".

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١١/٢١.

(٢) المصدر السابق، ٣١٣/٢١.

ونضيف إلى ما قاله ابن عاشور أن الأسر دون القتل في إشفاء غليل المؤمنين من هــؤلاء، فأخــره في الذكر بأن أتى به على الأصل، أما قتل الأعداء فهو موضع الاهتمام فقدمه لذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

فالسياق الكريم قال ابتداء (آمنا به) فقدم الفعل على متعلقه كما هو الأصل، ثم عدل عن ذلك إلى تقديم متعلق الفعل عليه، فقال: (وعليه توكلنا) ولو مضى السياق على إطراده لكان (وتوكلنا عليه).

ويعلــل الزمخشــري ذلــك فيقول[1]: "فإن قلت: لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلــنا"؟ قلــت: لوقوع آمنا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقب ذكرهم كأنه قيل: آمنا ولم نكفــر كمــا كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم".

ومن ذلك أيضاً ما يرد من تقديم وتأخير في المتعاطفين نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْــنَا الْإِنسَــانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ... يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٨-٤٩].

فقــدم ذكــر الإناث على الذكور حيث قال (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) ثم عدل إلى تقديم الذكور على الإناث فقال: (أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً).

ويــرى الزمخشــري[2] أن تقديم الإناث في هذا السياق على الذكور ليناسب ذكر البلاء، أي: يناسب ما كان يراه العرب في الجاهلية بلاء، لا سيما أن الله- عزوجل- ذكر

---

(١) الكشاف، ١٤٠/٤.

(٢) انظر: السابق، ٤٧٥/٣.

الإنـــاث بعد قوله: (وإن تصبهم سيئة بما قدمت..) فكأنه -عزوجل- أراد القول إن البلاء منه كما أن النعمة منه). وهذا التعليل غير مقنع.

وخير منه ما ذكره عبد العظيم المطعني[1] من أن تقديم الإناث على الذكور "سببه تقــديم الأضـــعف علـــى الأقوى؛ لأن الأنثى أقل شأناً من الذكر في معرض الهبة، وكان العــرب يرون هبتها عاراً، فقدمت الإناث على الذكور؛ تنبيهاً لهم علىَ خطأ تلك النظرة؛ لإفادة أن الأنثى والذكر سواء، كلاهما هبة من الله تعالى". وفي تقديم ذكرهن على الذكور -أيضاً- جبر لخاطر الإناث وليُحبَّبَ الوالدين فيهن[2].

ومـــن مـــواطن هذا العدول أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِــرَةٌ مِّـــنَ اللّـــهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

فقد قدم القتل على الموت أولاً فقال: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم) ثم عدل عن ذلك إلى تقديم الموت على القتل.

ولعـــل الســـر في هذا العدول أن الآية الأولى تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، لا ســـيما أنَّ الآيـــة نـــزلت في غزوة أحد، وقد أصاب المسلمين فيها ما أصابهم من المشقة والاستشهاد في سبيل الله، فحسن تقديم القتل على الموت "لأن الأغلب من حال المجاهدين الذين يفارقون الدنيا هو القتل"[3].

---

[1] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم المطعني، ١٣٧/٢.
[2] انظر: قبس من الإعجاز، هشام الحمصي، ٧٦.
[3] غرائب القرآن، النيسابوري، ٢٩١/٢.

وأما العدول عن ذلك إلى العكس من تقديم ذكر الموت على القتل، فلأن هذه الآية التالـية "سـيقت لبـيان أن حشر الخلائق كلهم إليه بأي وجه يفارقون الدنيا، ولا شك أن الغالب على أحوال الخلق كلهم الموت"[1].

ومـن هـذا العـدول أيضاً العدول عن تقديم شبه الجملة المتعلق بالمفعول به إلى تأخيـره علـى الأصل. نحو قوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

فقـدم السـياق الكـريم شبه الجملة ابتداء فقال: (إليَّ يدك) ثم عدل عن ذلك إلى التأخيـر فقال (يديَ إليك)، ولو جاء على مقتضى المطابقة لكان (ما أنا بباسط إليك يدي) ولعل سر هذا العدول يرجع إلى أن بسط اليد من قبل قابيل لقتل أخيه هابيل كان قاصداً به أخـاه دون غيره، متوجهاً به نحوه "فجل همه قتل أخيه لا مطلق القتل"[2]، ومع علم أخيه هابـيل بقصـد أخيه وتوجهه نحوه بالقتل، خاطبه بخطاب الورع والتقوى، فقال: (ما أنا بباسـط يـدي إليك) فأكد نفي البسط من قبله للقتل بكل المؤكدات، من ذلك مجيء الجملة اسـمية، مقترناً خبرها بالباء المؤكدة (بباسط)، وفي ذلك إمعان في نفي صدور أدنى بسط للـيد منه بالقتل، وأنه ليست من عادته أصلاً بسط يده بالقتل لا لأخيه ولا لغيره، لذا جاء شبه الجملة بعد المفعول به (يدي إليك) على أصله، فلم يحتج إلى تقديمه كما هو الحال في الأولى، "وإنما ذكر إليك" بعده لبيان الواقع[3]".

ومـن ذلـك أيضاً العدول عن تأخير المتعلق بالخبر إلى تقديمه، نحو قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

---

[1] غرائب القرآن، النيسابوري، ٢/٢٩١.

[2] المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين،١٧١.

[3] المصدر السابق: الصفحة نفسها.

يَهْـدِي مَـن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

نجـد أن المولى -عزوجل- قال أولاً: "لتكونوا شهداء على الناس" فأخر المتعلق شبه الجملة (على الناس) بعد الخبر (شهداء) فجاء به على الأصل، ثم عدل عن ذلك فقدمه على الخبر في شهادة الرسول ﷺ فقال: (ويكون الرسول عليكم شهيداً).

وكـان مقتضـى السياق أن يجري على نمط واحد فيكون (ويكون الرسول شهيداً علـيكم). والذي نلحظه من هذا السياق أنه قد جاء لتقرير عدالة الأمة وكونها شاهدة على الأمم السابقة، وأن شهادة الرسول عليها هي شهادة تزكية لها.

يـرى النسفي: أن المراد بشهادة الرسول ﷺ -هنا- على الأمة شهادته لها بالعدالة والتزكية. فلما كان مقام هذه الأمة مقام الشاهد على جميع الأمم السابقة، قدم ذكر الشهادة على متعلقها، فقال: (لتكونوا شهداء على الناس)، ولما كانت شهادة الرسول ﷺ على أمته شـهادة تـزكية لها، قدم المتعلق فقال: (ويكون الرسول عليكم شهيداً)، ففي تقديم (عليكم) مزيد اختصاص وتشريف لهذه الأمة[1].

وأمـا مـا جاء في سورة الحج من قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فالمـراد بشهادة الرسول هنا هي شهادة التبليغ بالرسالة، بأنه بلغهم الرسالة وأقام عليهم الحجة، لذا قدم الشهادة لأنها هي موضع العناية والاهتمام.

---

[1] انظر: تفسير النسفي، ١٣٨/١.

المبحث السادس

العدول عن مطابقة الجواب للسؤال

واللافت في هذا المقام أننا كثيراً ما نجد أسئلة ترد في السياق القرآني بصيغة معينة ويرد الجواب عنها بأسلوب مغاير لما يقتضيه السؤال وذلك يدعو للبحث عن معرفة دلالة ذلك[١].

من ذلك مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً﴾ [النحل: ٣٠].

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو لماذا عدل عن نصب (أساطير) في الآية الأولى إلى الرفع (أساطير الأولين)، ولم يطابق الجواب السؤال في مجيئه منصوباً، لكون الأصل في مثل هذا مشاكلة الجواب للسؤال، فإذا ورد السؤال جملة فعلية شاكله الجواب في ذلك، وإذا كان جملة اسمية فكذلك الجواب.

يقول الزركشي[٢]: "الأصل في الجواب أن يكون مشاكلاً للسؤال، فإن كان جملة اسمية فينبغي أن يكون الجواب كذلك، ويجيء ذلك في الجواب المقدَّر أيضاً".

وبما أن السؤال كان جملة فعلية (ماذا أنزل ربكم) كان مقتضى الجواب أن يكون (أساطيرَ الأولين) بنصب أساطير، أي: أنزل أساطير الأولين كما هو الحال في المطابقة بينهما في الآية الثانية (ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً)، أي: أنزل خيراً.

---

(١) ليس مقصودنا بهذا المبحث ما عرف عند البلاغيين بـ (أسلوب الحكيم)، "إذ غاية أسلوب الحكيم تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره" (تحولات البنية، ٣٩٩). وإنما مقصودنا هنا مجيء الجواب في صورة تركيب نحوي على خلاف ما يقتضيه الظاهر من موافقته السؤال في التركيب. وإن كان في مضمونه قد تضمن الجواب على السؤال.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٤/٤٧-٤٩.

وقــد علــل الزمخشري سبب هذا العدول فقال:[1] : "فإن قلت لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلــت: فصــلاً بــين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعــثموا، وأطــبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيراً، أي: أنــزل خيــراً. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطيرُ الأولين، وليس من الإنزال في شيء".

وقــريباً مــن هذا التعليل ذهب الزركشي فقال[2]: "لو طابقوا –أي: قالوا: أساطيرَ الأولين– لكانوا مُقرِّين بالإنزال، وهم من الإذعان به على تفاوت".

ومــا ذهــب إليه الزمخشري والزركشي في تعليل هذا العدول أمر مقبول ويرى الــباحث –إضافة إلى ما سبق ذكره– أن الرفع في جواب الكافرين فيه إشارة إلى حكاية القــرآن لقــولهم بلفظه ونصه، وأن النصب في قول المؤمنين (قالوا خيراً) فيه إشارة إلى حكاية قولهم بالمعنى.

وهو ما تقرر لدى بعض علماء اللغة من أن المقول بعد القول إذا جاء مرفوعاً أفاد الحكاية باللفظ، وإذا جاء منصوباً أفاد الحكاية بالمعنى[3].

فــدل جواب المؤمنين (قالوا خيراً) على العموم والشمول، أي: قالوا قولاً فيه خير وثناء على المُنَزِّل والمُنزَّل دون التنصيص على مقولتهم بلفظها.

ونــص على قول الكافرين بلفظه ليقررهم بمقولتهم الكاذبة، لذا جاء بعدها الإيعاد بالعذاب، فقال: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

---

(١) الكشاف، ٢/٤٠٧.

(٢) البرهان، ٤/٤٩.

(٣) انظر في ذلك: نتائج الفكر للسهيلي ت: عادل عبد الموجود، ٣١٩.

وقد يعدل المتكلم عن الجواب لإدعاء أن الأمر في ثبوته وتقريره واضح لا شبهة فيه، ولا حاجة للسؤال عنه، فيعدل منه إلى ما هو أولى في الجواب عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

فقد كان مقتضى الجواب أن يكون (نعم نعلم أنه مرسل من ربه) لكن الجواب أتى على خلاف المتوقع فكان (إنا بما أرسل به مؤمنون).

وعلل الزمخشري ذلك فقال[1]: "فإن قلت: كيف صح قولهم: إنا بما أرسل به مؤمنون جواباً عنه؟ قلتُ: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه، ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون".

وقد يكون الجواب ناظراً إلى ما في الاستفهام من معنى فرعي غير معناه الأصلي. كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩-٣٠].

فقد كان سؤالهم عن موعد البعث والحساب، ولكن الجواب جاء مخالفاً لظاهر السؤال في هذا السياق.

وقد أوضح ذلك الزمخشري بقوله[2]: "فإن قلت: كيف انطبق هذا جواباً عن سؤالهم؟

---

(١) الكشاف، ٩١/٢.

(٢) السابق، ٢٩٠/٣.

قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتاً لا استرشاداً فجاء الجواب عن طريق التهديد مطابقاً لمجيء السؤال على سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مُرصدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه".

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

لقد جاء السؤال في هذا السياق القرآني الكريم بقوله: (أهكذا عرشك؟) وكان مقتضى الجواب أن يكون (هكذا هو)، لكنها عدلت عن ذلك إلى قولها: (كأنه هو).

وقد علل ابن المنيّر سبب هذا العدول فقال[1]: "وفي قولها (كأنه هو) عدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول: (هكذا هو)، نكتة حسنة، ولعل قائلاً يقول: كلا العبارتين تشبيه، إذ كان التشبيه فيهما جميعاً، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة، وفي الأخرى داخلة على المضمر، وكلاهما: أعني اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى، ويفضل قوله: هكذا هو، بمطابقته للسؤال، فلا بد من اختيار (كأنه هو) من حكمة، فنقول: حكمته -والله أعلم- أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين، فكاد يقول: هو هو، وتلك حال بلقيس، وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها".

---

[1] حاشية الكشاف، ٣/١٤٩-١٥٠.

المبحث السابع

العدول في الجمل

ذهب البلاغيون والنحاة إلى وجود فرق دلالي بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فقرروا أن التعبير بالاسمية يدل على الثبات والاستقرار، والتعبير بالجملة الفعلية يدل على التجدد والحدوث والاستمرار، يستوي في ذلك المظهر، والمضمر تقديراً[1].

يقــول الجرجاني[2]: "موضوع الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيئ".

ويقــول أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)[3]: "والجملة الاسمية موضوعه للإخبار بثــبوت المســند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار، وإذا كان خبرها اسماً، فقد يقصـــد به الدوام والاستمرار الثبوتي بمعونة القرائن، وإذا كان خبرها مضارعاً فقد يفيد استمراراً تجدُّدِيًّا إذا لم يوجد داعٍ إلى الدوام فليس كل جملة اسمية مفيدة للدوام، فإن (زيد قائم) يفيد تجدد القيام لا دوامه ... والجملة الفعلية موضوعة لإحداث الحدث في الماضي أو الحـــال، فتدل على تجدد سابق أو حاضر، وقد يستعمل للاستمرار بلا ملاحظة التجدد في مقام خطابي".

وهذا التفريق الدلالي بين الجملة الاسمية والفعلية هو المشهور عند علماء البلاغة والــنحو، وقــد ذكر الزركشي في البرهان من نسبة قول لأحمد بن المنيِّر في إنكاره هذا

---

(١) انظر: البرهان، الزركشي، ٤/٧٠.

(٢) دلائل الإعجاز، ١٧٤، ت: محمود شاكر.

(٣) الكليات، ٣٤١.

الفرق، إذ يقول[1]: "وطريقة العرب ترتيب الكلام وتلوينه، ومجيء الفعلية تارة، والاسمية تـــارة أخـــرى، مـــن غير تكلف لما ذكروه، وقد رأينا الجملة الفعلية تصدر من الأقوياء الخلــص، اعتماداً على أن المقصود الحاصل بدون التأكيد كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمــران: ٥٣]، ولا شيء بعد: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقد جاء التأكيد في كلام المنافقين، فقال: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

ولكن هذا القول الذي نسبه الزركشي لابن المنير يخالف تماماً ما ذكره ابن المنير نفســه فـــي العمل بهذه القاعدة، إذ يقول عند تحليله الفرق بين قراءة الرفع والنصب لـــ (الحمدُ لله)[2]. "والسر في الفرق بين الرفع والنصب، أن في النصب إشعاراً بالفعل، وفي صـــيغة الفعل إشعار بالتجدُّد والطَّرو، ولا كذلك الرفع فإنه إنما يستدعي اسماً، ذلك الاسم صـــفة ثابتة، ألا ترى أن المقدَّر مع النصب نحمدُ الله الحمدَ، ومع الرفع الحمدُ ثابت لله أو مستقر".

ويقول في موضع آخر[3]: "ولما كان الرفع دالاً على الثبوت مجرَّداً عن قيد التجدد والحدوث ناسب أن يقصد به الثبات والدوام بمعونة المقام، بخلاف النصف المستلزم لتقدير الفعل الدال بوضعه على الحدوث والتقصي".

وهذا يؤكد لنا تماماً عدم صحة المقولة التي نسبها إليه الزركشي، وعلى افتراض صحتها، فإنه يمكن الجواب عن ذلك "بأن العربية وإن أتاحت طبيعة تراكيبها سعة التعبير بالاسمية تارة وبالفعلية تارة أخرى، فإن مهمة الباحث في بلاغة القرآن الكريم، وفي غيره

(١) البرهان في علوم القرآن، ٧٢/٤.

(٢) حاشية الكشاف، ٤٦/١.

(٣) السابق، ٤٨/١.

مـــن النصوص لا تكتفي بالركون إلى تقرير هذا الواقع اللغوي بل تتساءل دائماً عن السر الذي جعل المبدع يؤثر في تعبيره هذا النمط أو ذاك"[١].

وهـــو مـــا يعـــرف عند علماء البلاغة المحدثين بفن الاختيار[٢] وهو ضرب من ضـــروب البلاغة الذي يستدعي الوقوف عنده، وهذه مهمة المحلل للنصوص ليكشف عن مكنوناتها الجمالية.

وبناءً على ما سبق ذكره، فيمكننا تفسير تحولات الجمل في التعبير القرآني، فكثيراً ما نجد التعبير القرآني يعدل عن الجملة الاسمية إلى الفعلية والعكس في سياقاته المختلفة مؤدياً بهذا التحول والعدول دلالات تفهم من السياق نفسه.

وقد سبق تناولنا في هذا البحث العدول بين الأسماء والأفعال، وتناولنا هناك بعض نمـــاذج العـــدول عن الاسم إلى الفعل والعكس، وفي هذا المبحث نتناول تحولات الجمل نفسها، والعدولات الحاصلة فيها في سياقات القرآن المختلفة، محاولين تحليل بعض نماذج على هذه العدولات، وما وراءها من أسرار دلالية يوحي بها السياق.

ويرد هذا العدول في السياقات القرآنية على نمطين هما:

النمط الأول: العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية

من ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

---

[١] التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، ٩٩.

[٢] انظـــر في فن الاختيار: كتاب (فن الاختيار والبلاغة العربية، د. محمد بركات أبو علي، والإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، عبدالحميد هنداوي، ٨٧.

يحـــتمل الوقف -في هذه الآية الكريمة- على القلوب، وتكون الغشاوة على السمع والأبصـــار[1]، ويحـــتمل عطـــف السمع على القلوب، فيكون الختم على القلوب والسمع، وتكـــون الغشـــاوة على الإبصار، وهذا هو الراجح، بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهذا ما ذهب إليه ابن عاشور بقوله[2]: "والظاهر أن قوله "وعلى سمعهم" معطوف علـــى قوله "قلوبهم"، فتكون الأسماع مختوماً عليها، وليس هو خبراً مقدماً لقوله "غشاوة"، فـــيكون "وعلـــى أبصارهم معطوفاً عليه؛ لأن الغشاوة تناسب الأبصار لا الأسماع؛ ولأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب، إذ كلاهما يشبه الوعاء، ويتخيل فيه معنى الفلق والسد، فإن العرب تقول: "استكَّ سمعه، ووقر سمعه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم".

وبـــناء على ما سبق فتكون الجملة الأولى فعلية، وهي قوله: "ختم الله على قلوبهم وعلـــى سمعهم"، وعدل عنها إلى الاسمية بقوله: "وعلى أبصارهم غشاوة"، برفع (غشاوة) على الابتداء، وشبه الجملة قبلها متعلق بالخبر.

ولو جرى السياق على نسق واحد لانتصبت "غشاوة" على أنها مفعول به، ولعطف قولـــه: "على أبصارهم" بالواو على قوله "على قلوبهم وعلى سمعهم"، ولكانت الغشاوة قد شـــملت بالقلـــوب والسمع والأبصار، لا الأبصار فحسب: "ووجه العدول عن الفعلية إلى الاسمية وترك التناسب المطلوب، أنه قصد فيه إلى أن غشاوة البصر ثابتة جبلّة فيهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الألْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. فمن لا لب لـــه لا ينظر نظر استبصار في الأنفس والآفاق، بخلاف عـــدم التصـــديق وعـــدم الإصغاء للنذر، فإنه متجدد فيهم قديماً وحديثاً، فدل النظم على

---

[1] انظر: البرهان، الزركشي، ١٩٧/٢.

[2] التحرير والتنوير، ٢٥٥/١.

أنهــم كما لم يمتثلوا أوامر الرسول، لم يجروا على مقتضى العقول؛ لخبث طينتهم والطبع على طويتهم، وهذا هو السر في التعبير بالغشاوة الخلقية في العين"[1].

وذهب أبو السعود -أيضاً- إلى تعليل حسن، فقال[2]: "إن ما يدرك بالقوة الباصرة مــن الآيــات المنصــوبة في الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة، كان تعاميهم عن ذلك -أيضاً- كذلك".

وتلــزم الإشــارة فــي هذا الموضع إلى معرفة السر في مجيء الآية الأخرى في سورة الجاثية جملة فعلية، وهي قوله تعالى: "وجعل على بصره غشاوة"، ولم يقل: (وعلى بصره غشاوة)، فتأتي جملة اسمية كما هو الحال في آية البقرة.

وقد علل السامرائي ذلك فقال[3]: "وقال في سورة البقرة (وعلى أبصارهم غشاوة)، بالجملة الاسمية، والجملة الاسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى هذا أن هؤلاء لــم يســبق لهم أن أبصروا، وإنما هذا شأنهم وخلقتهم فلا أصل في إبصارهم في يوم من الأيــام، فــي حين قال في الجاثية (وجعل على بصره غشاوة)، بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث، ومعلوم أن (جعل) فعل ماضٍ، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدلك علــى ذلــك قوله تعالى: "وأضله على علم"، مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترديه، ثم خــتم آيــة البقرة بقوله: (وله عذاب عظيم)، ولم يقل مثل ذلك في الجاثية، فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم، ولذا قدم ختم القلب على ما سواه؛ لأنه هو الأهم، فــإن القلب هو محل الهدى والظلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

[1] حاشية الشهاب على البيضاوي، ٤٤٩/١.

[2] تفسير أبي السعود، ٦٧/١، ٦٨.

[3] التعبير القرآني، ٦٥.

وفي تخصيص الختم للقلوب والسمع، والغشاوة للأبصار لطيفة يذكرها البروسوي، يقول[١]: "ولما اشترك السمع والقلب في الإدراك من جميع الجوانب، جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار مما اختص بجهة المقابلة، جُعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة".

وكرّر (على) مع السمع، فقال: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم)، ولم يقل: (ختم الله على قلوبهم وسمعهم). وذلك أنه "لو لم يكرر حرف الجر (على) مع السمع لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة، وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدلّ على شدة الختم في الموضعين"[٢].

ومن نماذج هذا العدول أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

أفاد العدول عن الجملة الفعلية (ونقلبهم) إلى الاسمية (وكلبهم باسط) إلى أن الكلب ثابت على حالة واحدة وهي بسط ذراعيه بباب الكهف، في حين أن فتية الكهف يقلبون يميناً وشمالاً، فدلت الجملة الفعلية على الحركة والتجدد.

يقول الجرجاني[٣]: "وانظر إلى قوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فإن أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه" لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها، من غير أن يكون هناك مزاولة، وتزجية فعل".

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البروسوي، ت: محمد الصابوني، ١/٣٠-٣١.

(٢) الكشاف، ١/١٦٤.

(٣) دلائل الإعجاز، ١٧٥.

ونفهـم مـن كـلام الجرجاني أن الجملة الاسمية لا تدل على الثبوت والاستقرار للوصـف إلا إذا كـان خبـرها اسـماً لا فعـلاً، وهو ما سبق ذكره من قول أبي البقاء الكفـوي[1]: "والجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار إذا كان خبرها اسماً".

وفـي العدول إلى الجملة الاسمية في قوله: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) دلالة علـى أن الله قـد حفظ الكلب دون حاجة إلى تقليب، وحفظ الفتية بالتقليب؛ حتى لا تأكل الأرض أجسـادهم. وفي ذلك مزيد تكريم وتشريف للفتية، وفيه دلالة أيضاً على قدرة الله الذي يحفظ بالأسباب ويحفظ بدونها.

وقـد يـرد العـدول عن الحملة الفعلية إلى الاسمية في مقولة القول للدلالة على المفارقة بين القولين، من ذلك قوله تعالى –يصف المنافقين– : ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤].

نجـد العـدول عن الجملة الفعلية (آمنا) إلى الجملة الاسمية (إنا معكم) في مقولة المنافقـين يمـثل مفارقـة بين القولين، بين مخاطبتهم المؤمنين، وبين مخاطبتهم إخوانهم المنافقـين، يقـول ابـن الأثير –مبيناً دلالة هذا العدول–[2]: "فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشدَّدة؛ لأنهم في مخاطبة إخوانهم بمـا أخبـروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزالوا عنه، على صـدق رغـبة ووفـور نشاط، فكان بذلك مستقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم، وأمّا الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خوفاً ومداجاة، وكانوا يعلمون أنهم لـو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً، ولأنهم

---

(١) الكليات، ٣٤١.

(٢) المثل السائر، ٢/٥١، ١٩٢.

لـــيس لهـــم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة؛ فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين آمنًا وفي خطاب إخوانهم إنًا معكم".

ويرد العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية الواقعة خبراً للدلالة على المفارقة بين الحالين.

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّـــنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـــئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦١].

نجد الخبر في هذا السياق قد ورد جملة فعلية (أولئك يلعنهم الله) ثم عدل عنه إلى الجملة الاسمية (أولئك عليهم لعنة الله).

ويكمن سر هذا العدول في أن الآية الأولى في شأن من يكتمون ما أنزل الله، وهذا الكتمان حاصل متجدد منهم بتجدد الزمان والمكان، فناسب ذلك أن يعبر عن لعنهم بالجملة الفعلية الدالة على حدوث اللعن وتجدده، فقال: "أولئك يلعنهم الله"، فكلما تجدد منهم كتمان تجدد عليهم لعن من الله، ومن اللاعنين.

أمـــا الآيـــة الأخرى فهي في شأن الكفار الذي ماتوا على كفرهم وهؤلاء قد ثبت كفرهم واستقر بموتهم، فناسب أن يعبر عن لعنهم بالجملة الاسمية الدالة على ثبوت اللعن عليهم واستقراره.

يقول الشهاب الخفاجي[1]: "والمراد من قوله (يلعنهم) لعنهم في الحياة الدنيا، وقوله: (عليهم لعنة الله) فيما بعد الممات؛ لأن أمر الدنيا على التجدد والحدوث، وأمر الآخرة على الدوام والثبات، فالأول بيان لحدوث اللعنة، والثاني لبيان استقرارها وثباتها".

ويرد العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية مع (أم) المتصلة للدلالة على رجحان مـــا بعـــدها. نحو قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

إذ تبـــرز الجملـــة الفعلية (أجئتنا بالحق) استغرابهم من هذا الأمر الحادث الجديد علـــيهم، ثـــم عدلوا إلى الاسمية (أم أنت من اللاعبين)، ولم يقولوا (أم لعبت)، لأنهم قالوا ذلك "قاصدين إلى المعادل الثاني لـــ (أم)، وكأنهم قالوا لـــه: هل ما جئتنا به هو الحق أم أنت مستمر على لعبك وعبثك، منخرط فيه، لا تنفك عنه"[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

إذ حصل العدول عن الجملة الفعلية (أَدَعَوْتُمُوهُمْ) إلى الاسمية (أَمْ أَنتُمْ صَامِتُون)، ولـــم يقل: (أم صمتم)، وذلك "لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فكانت حالتهم المستمرة أن يكونـــوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إذا دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم"[3].

---

[1] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٣٢/٢.

[2] دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، ١٩٤.

[3] الكشاف، ١٣٨/٢.

ومــن نمــاذج هذا العدول -أيضاً- ما يرد فيه العدول عن جملة فعلية إلى جملة اســمية مســبوقة بــ (كان)[1] في أسلوب إنشائي أو خبري. نحو قولــه تعالى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

لقد كان المطابق لقولهم: "إما أن تلقي" أن يقولوا: "وإما أن نلقي" لكنهم عدلوا عن ذلك إلى قولهم: (وإما أن نكون نحن الملقين).

وفــي قــولهم هــذا "مــا يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، من تأكيد ضميرهم المتصل[2] بالمنفصل، وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل"[3].

وتــبع هــذه الآيــة قولــه تعالى -على لسان موسى عليه السلام-: ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ [الأعــراف: ١١٦]، وبــذلك سوّغ لهم موسى رغبتهم في أن يلقوا أولاً؛ "إزدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كانوا بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبداً"[4].

ولــو جــاء التعبيــر (إما أن تلقي وإما أن نلقي)، "فإن فيه فضلاً عن عدم اطِّراد الــنظم، وتخالف الفاصلة، فيه ما يشير إلى عوامل الشك والقلق الذي يساور السحرة من نتيجة إلقائهم السحر"[5]. ومع كل هذه الثقة لدى السحرة وما لديهم من عدّة وعتاد لم يفلح

---

[1] يقــول الدســوقي فــي حاشــيته على شرح المغنى "وكلام المصنف يقتضي أن (كان) مسندة لاسمهما وهوا الصحيح بناء على قول الجمهور وأن لها دلالة على الحدث والزمان وأما قول البيانيين أنها قيد للخبر فمعنى كان زيد قائماً، زيد متصف بالقيام المتصف بالحصول في الزمن الماضي، وحينئذ فالإسناد بين اسمها وخبرها كما كان قبل دخولها، فهو مبني على أنه لا دلالة لها على الحدث": حاشية الدسوقي، ٢/٣٦، والجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل السامرائي، ١٥٨.

[2] الصواب هنا: ضميرهم المقدّر.

[3] الكشاف، ٢/١٠٣.

[4] المصدر السابق الصفحة نفسها.

[5] الفاصلة القرآنية، عبدالفتاح لاشين، ١٤٧.

كـــل ذلـــك أمام قوة الحق وجلاله، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُـــونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

كان مقتضى المشاكلة أن يرد السياق على نحو (أصدقت أم كذبت) لكنه عدل عن الجملـــة الفعلـــية إلى الاسمية فقال: (أم كنت من الكاذبين). وقد اختلفت الآراء في معرفة ســـبب هذا العدول. فرأى بعضهم[1] أن سليمان -عليه السلام- لم يواجه الهدهد بالتكذيب له، وإنما أدرجه في جملة الكذابين أدباً في الخطاب، ويكون في ذلك دلالة على أنه ترجح صدق الهدهد لدى سليمان عليه السلام.

ورأى آخرون أن قوله: (أم كنت من الكاذبين) فيه دلالة على ترجيح جانب الكذب فـــي حق الهدهد، "لأنه عدل عن الفعل الذي هو (أم كذبت)، وعن مجرد صفته في قوله: (أم كـــنت كاذباً)، إلى جعله واحداً من الفئة الموسومة بالكذب، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد"[2].

ولأن صـــدور مثل هذا الكذب من هذا الطائر على حقارته أمام نبي عظيم وملك جلـــيل كسليمان "يجعله منخرطاً في سلك الكاذبين، فيكون الكذب سجية له وطبيعة فيه لا يستطيع الفكاك منها"[3].

---

[1] انظـــر: البـــرهان في علوم القرآن، الزركشي، ٦٣/٤، والكشاف، ١٤٥/٣، وبحث الإعجاز البياني في آيات قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، فايز الخطيب، ٦٣، مؤته للبحوث والدراسات، م ١٦، ع١، ٢٠٠١م.

[2] حاشية الكشاف، ابن المنير، ١٤٥/٣.

[3] دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبدالجواد طبق، ١٩٥.

يقـول ابـن عاشـور[1]: "وإقحـام "كنت" أدخل في نسبته إلى الكذب من صيغة "أصدقت"؛ لأن فعل "كنت من الكاذبين" "يفيد الرسوخ في الوصف بأنه كائن عليه، وجملة "مـن الكاذبـين" أشد في النسبة إلى الكذب بالانخراط في سلك الكاذبين، بأن يكون الكذب عـادة لـه، وفي ذلك إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلّص من العقاب، وإيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأنَّ كذبه أرجح عند الملك؛ ليكون الهدهد مغلباً الخوف على الرجاء، وذلك أدخل في التأديب على مثل فعلته، وفي حرصه على تصديق نفسه بأن يبلغ الكتاب الذي يرسل معه".

وقـد يـرد العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية المنفية، فيكون ذلك آكد للنفي.

مـن ذلـك قولـه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

كان مقتضى السياق أن يقول: (وما آمنوا) ليقابل ذلك قولهم: (آمنا) لكنه عدل عن ذلك إلى الجملة الاسمية المنفية، فقال: (وما هم بمؤمنين).

علـل الزمخشري سبب هذا العدول فقال[2]: "فإن قلت: كيف طابق قوله –وما هم بمؤمنـين– قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟

قلـت: القصـد إنكـار مـا ادّعوه ونفيه، فَسُلِكَ في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلـوب، وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٦/١٩.

(٢) الكشاف، ١٦٩/١.

أن تكـــون طائفـــة مـــن طوائف المؤمنين؛ لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان".

ونضيف إلى ما قاله الزمخشري، أن التعبير لو جاء على نسق سابقه في المشاكلة فقال: (وما آمنوا)، لأوهم ذلك أنه أراد نفي كمال الإيمان، لا نفي الإيمان أصلاً، أي: وما آمـــنوا الإيمـــان الحـــق الكامل الذي ينبغي صدوره منهم، لكنه عدل عن ذلك إلى الجملة الاســـمية المنفية قال: (وما هم بمؤمنين) فكان ذلك آكد في نفي وجود أدنى إيمان لديهم، وزاد في تأكيد هذا المعنى مجيء الباء المؤكدة في خبر الجملة الاسمية.

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فقد نفى التعبير القرآني اتباع أهل الكتاب قبلة النبي ﷺ بالجملة الفعلية فقال: (وما تبعوا قبلتك)، في حين عدل عن الجملة الفعلية إلى الاسمية المنفية في نفي اتباع النبي ﷺ قبلتهم، فقال: "وما أنت بتابع قبلتهم".

وفي ذلك إمعان في النفي أن يصدر من النبي ﷺ شيء من ذلك، يقول الألوسي[١]: "وما أنت بتابع قبلتهم"، أي: لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون".

ويقـــول سيد قطب[٢]: "وما أنت بتابع قبلتهم، ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً، واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ﷺ تجاه هذا الأمر".

---

(١) روح المعاني، ٢/١١.

(٢) في ظلال القرآن، ١/١٣٥.

وزاد تأكـيد هذا المعنى أيضاً دخول الباء المؤكدة على اسم الفاعل (بتابع)؛ ليدل ذلـك "على النفي الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم في اتباع النبي ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتـبعهم في دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة المنفية للدلالة على انتفاء أهلية النبي ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه"[1].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَــن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

نلحظ في هذا السياق مجيء الجملة الفعلية في نفي جزاء الوالد عن ولده فقال: "لا يجـزي والد عن ولده"، ثم عدل عنها إلى الجملة الاسمية عند نفي جزاء الولد عن الوالد، فقال: "ولا مولود هو جازٍ...".

يقــول الزمخشري في تعليل هذا العدول[2]: "السبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وقد قُبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الآكد".

وقد تعقب ابن المنير هذا الرأي للزمخشري قائلاً[3]: "وهذا الجواب تتوقف صحته علــى أن هــذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطلق عليه اسم الناس".

---

(١) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ١٧٠.

(٢) الكشاف، ٣/٢٣٨.

(٣) حاشية الكشاف، ٣/٢٣٨.

والتعليل المناسب عنده هو أنه[1]: "لما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع؛ لأن الله حَضـــه علـــيه فـــي الدنـــيا، كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس".

ويزيد تأكيد هذا المعنى مجيء العدول المعجمي في كلمة (المولود) ولم يقل (ولد)، فالمولود -كما ذكر الزمخشري- لا يطلق إلا على من وُلِدَ منك، أما الوالد فهو عام يشمل الولد وإن نزل، وفي ذلك تأكيد لنفي عموم النفي، فإذا كان المولود الذي هو من صلب أبيه لا ينفع والده، فمن باب أولى ينتفي الانتفاع بغيره.

النمط الثاني: العدول عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧].

أبـــرز هـــذا العدول عن الجملة الاسمية (والله يريد...) إلى الجملة الفعلية (ويريد الـــذين...) المفارقة بين إرادتين، وأشار إلى كمال المباينة بين مضموني الجملتين، فإرادة الله إرادة خيّـــرة فـــيها كمال النفع والصلاح لخلقه، وإرادة متبعي الشهوات إرادة شريرة خبيـــثة، لا خير فيها ولا صلاح. فناسب التباين في المعنى تباين المبنى... وبرز ذلك من خلال التغاير بين الجملتين.

وفي تقديم لفظ الجلالة على الفعل في قوله: (والله يريد) تكثيف للدلالة على المسند إلـــيه وهو الله -عزوجل- وفي ذلك إشارة إلى كمال هذه الإرادة ونفاذها ما دامت صادرة منه تعالى، في حين عبّر بالجملة الفعلية عن إرادة متبعي الشهوات فقال (ويريد الذين...)

---

[1] حاشية الكشاف، ٣/٢٣٨.

للإشـــارة إلـــى تجدد هذه الإرادة منهم بإلحاح وحرص، ومع ذلك فإرادة الله غلاّبة، والله يفعل ما يريد.

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٤].

عـــدل الســـياق الكريم عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية فقال (وأعدَّ لهم أجراً كـــريماً) ولـــم يقـــل (وأجـــرهم أجر كريم) أو (ولهم أجر كريم). فأفاد ذلك "المبالغة في التـــرغيب، والتشـــويق إلى الوعد ببيان أن الأجر هو المقصد الأقصى من بين سائر آثار الـــرحمة، وأنـــه موجـــود بالفعل مهيأ لهم، فضلاً عما حققه هذا العدول من الانسجام في مراعاة فواصل الآي[1]".

---

[1] من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني. طالب الزوبعي ١٥٧.

المبحث الثامن

العدول في النسق الإعرابي

وهــو أن يأتــي فــي الكلام تركيب أو لفظ – مخالف في حكمه الإعرابي للحكم الإعرابــي الذي سبقه، مع أن الكلام يشمله سياق نحوي واحد، ويمثل ظاهرة نحوية لافتة تســاعد في دخول الخطاب دائرة الاحتمالات، وتدفع المتلقي إلى تلمس التأويلات المختلفة لعلة هذا العدول الإعرابي الملحوظ[١].

وقــد ارتــبط الإعراب بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، يقول ابن جني[٢]: "والإعراب هو الإبانــة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمــت بــرفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان شرجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه".

لــذلك كل عدول في النسق الإعرابي يصاحبه عدول في المعنى قطعاً، "إذ المعنى هو الأساس والمنطلق في إعراب الجمل وتحليلها[٣]"، فظاهرة العدول في الإعراب " ليست مجرد حركات إعرابية مخالفة، وإنما لها مقابلاتها المعنوية الكامنة في الضغط على مدلول الصفة المخالفة في إعرابها[٤]".

وهــنا تظهــر مهمــة النحوي المدرك لأسرار التراكيب ودلالاتها، في تأويل هذا العــدول والوقوف على مكنوناته الدلالية، فالمعنى هو الموجه للإعراب يقول ابن جني[٥]: "فــإن أمكــنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه،

---

(١) انظر: تحولات البنية في البلاغة العربية، ٤٣١.

(٢) الخصائص ٣٥/١.

(٣) التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب، عبدالعباس عبدالجاسم ٢٥.

(٤) نظرية اللغة في النقد العربي، عبدالحكيم راضي ٢٢٣.

(٥) الخصائص ٢٨٣/١-٢٨٤.

وإن كـــان تقديـــر الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت تقدير الإعراب".

ويقــول شـــيخنا الدكتور سمير استيتية مبيناً أهمية الإعراب وعلاقته بالبلاغة(١):

"الإعـــراب نفسه بليغ، وحسبُك أن تخبرك الحركة الإعرابية، بأن هذه الكلمة فاعل، وأن تلـــك مفعول به، وأن هذه الكلمة تتبع تلك وتصفها، أو أنها منقطعة عن التي قبلها؛ ليكون ذلـــك دليلاً على أن للإعراب وظيفة بلاغية تؤديها في اللسان العربي، بل يكفي أن تشير الحركة الإعرابية إلى عامل محذوف أو مقدَّر، ليكون لذلك أثر بلاغي واضح".

ويذكر شيخنا أيضاً أن الإعراب قد يؤدي إلى تعدد المعنى للقول الواحد، فيقول(٢):

"وحسب الإعراب أن القول الواحد يمكن أن يتقلب فيه على معانٍ كثيرة، بدلاً من أن يكون للقول الواحد معنى واحد، كما هو الحال في سائر اللغات".

ويشـــير إلى أن الإعراب يمكن أين يكون باباً من أبواب الإبداع، فيقول(٣): "ومن بلاغـــة الإعراب أنه قادر على أن يستخدم الملكات العقلية والقدرات التأويلية لدى العلماء والباحثـــين، أي: أنه يمكن أن يكون باباً من أبواب الإبداع والابتكار، مثلما هو قادر على أن يكون مؤشراً لمكنونات لغوية، وأسرار عظيمة في التركيب".

ويرد هذا النوع من العدول في السياق القرآني في صور عديدة، نعرض لأهمها(٤) على النحو الآتي:

---

(١) منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، سمير شريف استيتية، ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) روافد البلاغة بحث في أصول التفكير البلاغي، سمير شريف استيتية، ٣٢٢، ضمن كتاب "دراسات إسلامية عربية".

(٣) منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، سمير شريف استيتية، ٣٢٧.

(٤) عرضـــنا هذه التحولات في الإعراب وفق قراءة حفص بن عاصم، وأما تحولات الإعراب في القراءات فهو بـــاب واســـع، يشكل دراسة مستقلة بذاته، انظر: التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب في القراءات السبع، عبدالعباس عبدالجاسم أحمد، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠١م.

أولاً: عدولات الرفع

تتعدد دلالات هذا العدول وأشكاله على النحو التالي:

أ. العدول عن الرفع على العطف للتشريك إلى النصب على التخصيص بالمدح.

ب. العدول عن الرفع على النعت إلى النصب على القطع للذم.

جـ. العدول عن الرفع على العطف أو الاستئناف إلى النصب على المعية.

د. العدول عن الرفع على الإخبار إلى الجزم على جواب الطلب.

ونبدأ عرض ذلك على النحو الآتي:

أ. العدول عن الرفع على العطف للتشريك إلى النصب على التخصيص بالمدح

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فنجد في هذه الآية العدول عن الرفع في كلمة (المؤمنون) إلى النصب في (الصابرين) وكان القياس عطفها على سابقتها بالرفع فتكون (والصابرون).

وقد علل علماء اللغة والتفسير هذه المخالفة في الإعراب للفظة (الصابرين) فذكر الواحدي أن قوله (والصابرون) انتصب على المدح، وإن كان معطوفاً على مرفوع، لأن العرب إذا تطاول الكلام اعترضت فيه بالمدح أو الذم، فينصبون وإن كان حقه الرفع(١).

وزاد الزمخشري الأمر توضيحاً فقال(٢): "وأخرج (الصابرين) منصوباً على الاختصاص والمدح، إظهاراً لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال".

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢٥٢/١.

(٢) الكشاف ٣٣١/١.

وهــذا الــرأي مذهب جمهور المفسرين[١]، وهم في ذلك يصدرن عن آراء أئمة النحو المتقدمين، يقول الفرّاء[٢]: "والعرب تعترض من صفات الواحد إذا تطاولت بالمدح أو الــذم، فيــرفعون إذا كــان الاسم رفعاً، وينصبون بعض المدح، فكأنهم ينوون إخراج المنصوب بمدح مجدَّد غير مُتْبَع لأوّل الكلام من ذلك قول الشاعر[٣]:

لا يَــبْعَدَنْ قومـــي الــذينَ هُــمُ   سُـــمُ العُـــدَاة وآفـــةُ الجُـــزْرِ

النازِلـــينَ بِكُـــلِّ مُعْتَـــرَكٍ   والطَّيِّبــــينَ[٤] مَعَاقِـــدَ الأُزُرِ"

وهــو رأي سيبويه يقول[٥]: "وسمعنا بعض العرب يقول: الحمدُ للهِ ربَّ العالمين، فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية، ومثل ذلك قول الله عزوجل: ﴿لَٰـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْـمِ مِـنْهُمْ وَالْمُؤْمِـنُونَ يُؤْمِـنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الـزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] فلو كان رفعاً كان جيّداً، فأما المؤتون فمحمول على الابــتداء، وقال جل ثناؤه: "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ... والموفون بعهدهم إذا عاهــدوا، والصَّــابرين في البأساء والضرَّاء" ولو رفع (الصابرين) على أوّل الكلام كان جـيداً، ولــو ابــتدأته فــرفعته على الابتداء كن جيّداً، وكما ابتدأت في قوله (والمؤتون الــزكاة)... زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناس ولاَ منْ تخاطب بأمــر جهلــوه، ولكنّهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناء وتعظيماً ونصبه على الفعل".

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير ٢٠٩/١ وتفسير أبي السعود ١٩٤/١، وروح المعاني ١٤٧/٢.

[٢] معاني القرآن ١٠٥/١.

[٣] اللبـيت لـــ (خِرْنِق بنت هِفّان) أخت طرفة بن العبد، انظر: الديوان، ت: واضح العبد، ص: ٣٩، ورواية الديوان (النازلون). وانظر: شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١٤/٢، وخزانة الأدب للبغدادي ٤١/٥.

[٤] ويروى (الطيبون) بالرفع، انظر: شرح الشواهد للعيني، ٦٠٣/٣، والدرر اللوامع ١٥٠/٢.

[٥] الكتاب ٦٣/٢-٦٦.

ويفهـم من كلام سيبويه أن هذا الأسلوب قد خرج عن الشكل العادي الخبري إلى أسـلوب انفعالـي عاطفي وهو أسلوب المدح، فقام المتكلم بتغيير أسلوبه الإعرابي؛ ليُعبّر عن هذا التغيير[1].

فالمولى -عزوجل- لم يقصد مطلق الخبر عندما تحدث عن الصابرين في البأساء والضـراء، وإنما قصد على وجه التخصيص المدح والثناء على هذه الفئة، لذا عدل عن الرفع بالعطف على التشريك في الحكم والمساواة في الجزاء إلى النصب، وفيه مزيد حث على الصبر على البلاء.

وتمثيل ذلك على النحو الآتي:

التركيب (المتوقع) ←	والموفون بعهدهم إذا عاهدوا	والصّابرون
حالة الإعراب ←	↓ مرفوع	↓ مرفوع
الدلالة ←	↓ إخبار	↓ إخبار
العدول الحاصل في التركيب الحالي ←	والموفون بعهدهم إذا عاهدوا	والصّابرين
حالة الإعراب ←	↓ مرفوع	↓ منصوب
العدول في المعنى ←	↓ إخبار	↓ اختصاص (للمدح والتعظيم)

(1) انظر: أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية، يحيى القاسم، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات م١١ ع١ ١٩٩٣م، ص ١٤.

ونحـــو ما سبق قوله تعالى ﴿لَّـــكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَـــا أُنـــزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢].

فقد حصل في هذا السياق عدول في الإعراب، إذ القياس أن ترد كلمة (والمقيمين) مرفوعة، لأنها معطوفة على (الراسخون)، لكن السياق عدل عن ذلك إلى النصب ليوافق ذلـــك عـــدول فـــي المعنـــى عن الإخبار المحض إلى التخصيص بالمدح والثناء لمقيمي الصلاة.

يقول ابن هشام في شرح شذور الذهب[١]: "إن المقيمين نصب على المدح، وتقديره وأمدح المقيمين، وهو قول سيبويه[٢] والمحققين، وإنما قطعت هذه الصفة عن بقية الصفات لبيان فضل الصلاة على غيرها".

وجاء في (معترك الأقران) للسيوطي[٣]:"قطع النعوت في مقام المدح والذم أبلغ من إجـــرائها، قال الفارسي: إذا تكرت صفات في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف فـــي إعرابها؛ لأن المقام يقتضي الإطناب، فإذا خولف في الإعراب كان المقصود أكمل؛ لأن المعاني عند الاختلاف تتنوع وتتفنّن، وعند الاتحاد تكون نوعاً واحداً".

ب. العدول عن الرفع على النعت أو الخبر إلى النصب على معنى القطع للذم

مـــن ذلـــك قـــولـــه تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المســـد: ٤-٥]. ففـــي هـــذا الســـياق عدول عن الرفع في لفظة (حمالة) لكونها نعتاً لـــ

---

[١] شرح شذور الذهب، ٥٤، وانظر: الكشاف ٥٨٢/١.

[٢] انظر: الكتاب ٦٣/٢.

[٣] معترك الأقران ٣٥٤/١، وانظر: البرهان للزركشي ٤٤٦/٢-٤٤٧.

(امرأته)[1] إلى النصب أو خبراً إلى النصب على الذم، يقول ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)[2]: "أما من قرأ[3] قوله سبحانه: (حمَّالةَ) بالنصب، فقد قطع كلامه ونصب على الذم، وجعلها مفعولاً به لفعل محذوف، تقديره (أعني) أو (أذُم) إذ العرب تنصب بالمدح والذم".

ويقـارن مكـي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) بين الرفع والنصب فيقول[4]: "وفي الرفع أيضاً ذم، لكن هو في النصب أبين؛ لأنك إذا نصبت لم تقصد إلى أن تزيدها تعريفاً وتبييناً، إذ لم تجر الإعراب على مثل إعرابها، إنما قصدت إلى ذمها، لا لتخصيصها من غيـرها بهذه الصفة التي اختصصتها بها". ففي النصب (حمالة) مبالغة في الذم، ولذا فقد تغير إعرابها تبعاً لتغير أسلوبها من الجر المحض إلى الذم[5].

جـ. العدول عن الرفع على العطف أو الاستئناف إلى النصب على المعية

مـن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. ففي هذا السياق نلحظ العدول إلى النصب فـي الفعلـين (ولا نكذبَ ... ونكونَ) ... ولو مضى السياق على نسق واحد من الحركة الإعـرابية لكـان (ولا نكذِّبُ ... ونكونُ) بالرفع لكونهما معطوفين على الفعل المرفوع

---

[1] تعـددت أوجـه الإعراب في رفع (حمالةُ) على قراءة الرفع، انظر: معاني القرآن للفراء ٢٩٨/٣، ومعاني القرآن للأخفش ٥٤٨/٢، ومعاني القرآن للزجاج ٣٧٥/٥.

[2] الحجة في القراءات، ٣٧٧.

[3] قـرأ الجمهور السبعة (حمالةُ) بالرفع، وقرأها عاصم وحده نصباً ووافقه ابن محيصن، انظر: البحر المحيط، ٢٥٦/٨، والنشـر في القراءات العشر، ٤٠٤/٢، والكشف عن وجوه القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي، (ت ٤٣٧هـ)، ٣٩٠/٢، ت: محيي الدين رمضان.

[4] الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجتها، ت: محي الدين رمضان، ٣٩٠/٢.

[5] أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب، ٢٠.

(نُردُّ). وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير والكسائي، والنصب قراءة حمزة وحفص عن عاصم[١].

ويبــرز العدول عن الرفع إلى النصب في قراءة حمزة وحفص، ولكي ندرك سر هذا العدول على هذا الوجه من القراءة، ينبغي أن نعرف أولاً المعنى بمقتضى قراءة الرفع التـــي جرت على نسق المطابقة في السياق، ثم نفسر العدول عن المطابقة وما يضفيه من دلالة في ذلك.

فقــراءة الــرفع تخــرج على وجهين: **الأول:** أنها على عطف الفعلين على (نُرَدُّ) فــيكون المعنى حينئذ أن الكفار تمنوا هذه الأمور الثلاثة الرد وعدم التكذيب بآيات ربهم، وكونهم من المؤمنين[٢].

والــوجه **الثاني:** "أن يكون الفعلان مستأنفين، على معنى أنهم تمنوا الرَّدَّ وحده، ثم قالوا: ولا نُكذِّبُ ونكونُ من المؤمنين رُدِدْنا أم لم نرد"[٣].

وقــد علل سيبويه الوجهين في الرفع في هذه الآية فقال[٤]: "فالرفع على وجهين: فأحــدهما أن يشْرِكَ الآخِرُ الأوّلَ، والآخر على قولك: دَعْني ولا أَعُودُ، أي فإنّي ممن لا يعــود، فإنّما يسألُ الترك وقد أوجب نفسه أن لا عودة له البتَّة، ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يســأل أن يجتمع لــه الترك وأن لا يعودَ"، ويكون معنى الآية على الوجه الثاني أنهم

---

(١) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ١٣٧، والبرهان في إعراب القرآن، ٣/١٤٥.

(٢) انظر: البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الأنباري، ١/٣١٨.

(٣) القــراءات القــرآنية من الوجهة البلاغية، فضل حسن عباس، ٤٧، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، م١٤، ع ٧، ١٩٨٧م.

(٤) الكتاب، ٣/٤٤.

"أخبــروا أنهم لا يكذبون بآيات ربهم، وأنهم يكونون من المؤمنين على كل حال، رُدُّوا أو لم يُردُّوا"[1].

وعلــى قــراءة النصب التي نحن معنيون بمعرفة سر العدول فيها، يكون المعنى: أنهم تمنوا الرَّدَّ مع عدم التكذيب، وكونهم مؤمنين، لذلك عقب المولى عزوجل على قولهم هذا بقوله: ﴿ولو رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

يقول ابن القيم[2]: "فمعنى الآية أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها، وعلمــوا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون إلى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته، ولا يعودون إلى تكــذيب رسله، فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم ولا سجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردُّوا لكانوا بعد الرَّدّ كما كانوا قبله، وأخبر أنهم كاذبون في زعمهم أنهم لو ردُّوا لآمنوا وصدَّقوا".

فيكون الفعلان منصوبين بإضمار "أن" بعد الواو التي بمعنى "مع" كقولك: ليت لي مالاً وأتصدَّقَ منه"[3].

ومعنـــى القراءة على نصب الفعلين أنهم تمنوا الرَّدَّ على أن يكونوا في حالة الرَّدّ غير مكذبين ومن المؤمنين كذلك[4].

وألمح من هذا السياق، بتعدد أوجه الإعراب المختلفة له، أن الكفار كانت لهم عند مشاهدة العذاب عدة أمنيات، وليست أمنية واحدة، وقد أخبر القرآن عنها كلها.

---

(١) البرهان في إعراب القرآن، الميقري، ١٤٥/٣.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم، ت: الندوي، ٢٣٥.

(٣) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، ١٣٧، والبيان في غريب إعراب القرآن، ٣١٨/١، والبرهان في إعراب القرآن، ١٤٥/٣.

(٤) انظر: القراءات القرآنية من الوجهة البلاغية، فضل عباس، ٤٧.

فكـــأنهم عندما شاهدوا العذاب ابتداء فزعوا فتمنوا الرَّدَّ إلى الدنيا، وهم في لحظة الفزع والذهول قد آمنوا بما شاهدوا ولم يعودوا من المكذبين بآيات ربهم سواء رُدُّوا أم لم يُـــرَدوا، فـــلا علاقة للردِّ حينئذ بإيمانهم. وهذا ما توحي به قراءة الرفع في أحد وجهيها (وهـــو الاســـتئناف)، فـــي قولـــه تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثـــم تمنوا الرَّدَّ مصطحبين في معيتهم هذه القناعة التي رسخت لديهم من المشاهدة والعـــيان لـــيعملوا بهـــا فـــي الدنـــيا، وهـــو ما أشار إليه القرآن في موضع آخر بقوله: ﴿وَلَـــوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وهـــو ما توحي به قراءة العدول إلى النصب (على المعية) بقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم عندما يئسوا من الرجوع إلى الدنيا، وأن ذلك يستحيل، لهجوا بالحسرة والندامة متمنين ثلاثة أمور: الرد إلى الدنيا وأنهم ما كانوا كذَّبوا بآيات ربهم، وأنهم كانوا مؤمنين، وهـــو مـــا توحي به قراءة الرفع على الوجه الآخر (وهو العطف)، فكل وجه من وجوه الإعراب دل على معنى جديد لا يؤديه سواه، وهذه الأوجه بمجموعها تتكامل في وصف مشهد الحسرة والعذاب.

د. العدول عن الرفع على الإخبار إلى الجزم على جواب الطلب

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِـــيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ...﴾ [الصف: ١٠-١٢].

نجـد الفعلــين (تؤمــنون) و(تجاهــدون) مرفوعين، في حين ورد الفعل (يغفرْ) مجــزوماً، وقــد علــل العلمــاء جزمه في هذا السياق؛ لكونه وقع جواباً للجملة الخبرية المقصود بها الأمر، أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يَغْفِرْ لكم[1].

وأفاد الجزم للفعل (يَغْفِرْ) ترتبه على ما قبله ترتب النتيجة على السبب. وفي ذلك مــزيد تشــويق للمؤمنــين وتحفيز للمسارعة إلى تنفيذ الفعل، ولو أتى به مرفوعاً (يَغْفِرُ لكــم...) لكـــان خبراً محضاً لا تعلق له بما قبله، وجزمه دل على أن ما قبله طلب، وأن الفعل مترتب عليه.

ثانياً: عدولات النصب

وتتنوع أشكال هذا العدول، فتختلف دلالاته تبعاً لاختلاف أشكاله، وسنتناول بعض هذه الأشكال على النحو الآتي:

أ. العدول عن النصب على الفعلية إلى الرفع على الاسمية.

ب. العدول عن النصب على العطف للتشريك إلى الرفع على الاستئناف.

جـــ. العدول عن النصب على التعليل إلى الرفع على الإخبار.

د. العدول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الرفع على سبيل عطف الجمل.

هـــ. العدول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الجزم على سبيل عطف الجمل.

وســـنعرض لـــبعض الـــنماذج لكـــل شكل من هذه الأشكال متناولين تلك النماذج بالتحليل؛ للوقوف على أبعادها الدلالية، وذلك على النحو التالي:

---

[1] انظر: معاني القرآن وإعرابه المنسوب للزجاج، ٢٢٦/١، معاني القرآن، الفرّاء، ١٥٤/٣.

أ. العدول عن النصب على الفعلية إلى الرفع على الاسمية

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

وقوله تعالى -أيضاً: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٦].

فالعدول إلى رفع (سلام) في مقولة إبراهيم -عليه السلام-، دون نصبها كما وردت في مقولة الرسل، هو عدول عن فعلية الجملة إلى اسميتها، إذ أنها في حال النصب مصدر منصوب بفعل محذوف وتقديره: نسلم سلاماً، أما من حال الرفع فهي: إما خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف خبره، والتقدير: أمري سلام أو سلام عليكم[١].

وقد علل علماء التفسير والبلاغة هذا العدول تعليلاً يقوم على أساس الفرق الدلالي بين الجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، والجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار. يقول الزمخشري[٢]: "رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم -عليه السلام- حيّاهم بتحية أحسن من تحيّتهم؛ لأن الرفع دل على معنى ثبات السلام لهم دون تجدُّده وحدوثه".

ويرى ابن المنير[٣] أنه "لما كان الرفع دالاً على الثبوت مجرَّداً عن قيد التجدد والحدوث، ناسب أن يقصد به الثبات والدوام بمعونة المقام، بخلاف النصب المستلزم لتقدير الفعل الدال بوضعه على الحدوث والتقضي".

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ٢٠٥، وانظر: تفسير القرطبي، ٦٣/٩.

(٢) الكشاف، ٤٨/١.

(٣) حاشية الكشاف، ٤٨/١.

وقد التمس السهيلي معنىً مغايرا لما هو معهود عند البلاغيين والمفسرين في هذ السياق من مفاضلة السلامين؛ لاختلاف التعبير بالاسمية والفعلية عنهما.

فيرى أن الأول قد ورد منصوباً[1]؛ "لأنه لم يقصد الحكاية، ولكنه جعله قولا حسنا وسمّاه سلاماً؛ لأنه يؤدي معنى السلام في رفع الوحشة ووقوع الأنس، وحكى عن إبراهيم -عليه السلام- قوله، فرفع بالابتداء، وحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية هذا ورفعه ونصب ذلك، إشارة لطيفة وفائدة شريفة، وهو أن السلام من دين الإسلام، والإسلام ملة إبراهيم -عليه السلام-، وقد أمرنا بالاتباع والاقتداء به، فحكى لنا قوله، ولم يحك لنا قول أضيافه، إذ لا فائدة في تعريف كيفيّته، وإنما الفائدة في تبيين قول إبراهيم وكيفية تحيته، ليقع الاقتداء به، وأخبر عن قول الأضياف على الجملة، لا على التفصيل، وعن قول إبراهيم -عليه السلام- مفصلاً محكياً لهذه الحكمة، والله أعلم".

ودلالة السياق تحتمل كل ما سبق ذكره، فيكون العدول عن النصب إلى الرفع في هذا السياق قد أفاد الدلالات التالية:

أولاً: دلت تحية النبي بالرفع على أنه حيّاهم بأحسن من تحيتهم؛ لدلالة الثبوت والاستقرار في الجملة الاسمية، وهذا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

ثانياً: يشير شيخنا الدكتور سمير استيتية إلى ملحظ دلالي جديد في الآية فيقول[2]: "وإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى، انتهينا إلى أن الملائكة سلمت على إبراهيم -عليه السلام- بما يناسب طبيعة الإنسان من التجدد والتغير، فهو سلام متجدّد، وأن

---

(1) نتائج الفِكر في النحو، السهيلي، ت: عادل عبدالموجود، ٣١٩.

(2) منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، ٣٢٥.

إبــراهيم -علــيه الســلام- ردُّ عليهم التحيَّة بما يناسب خلق الملائكة من الثبوت والاستمرار وعدم التغير".

ثالــثاً: دلَّت الجملة الفعلية على الندب والاستحباب، فابتداء السلام مندوب، وردُّه واجب، فكــان الــردّ مــن النبي إبراهيم -عليه السلام-، جملة اسمية، وهي ترد في سياق الوجــوب والفرض، إذ يرجح الرفع فيما سبيله الفرض والواجب، والنصب فيما له دلالة على المندوب[1].

رابعــاً: حكى التنزيل تحية الملائكة بالمعنى؛ وذلك لأن معرفة لفظها لا يتعلق به حكم أو اقتداء، في حين أنه حكى تحية النبي إبراهيم -عليه السلام- بنصه ولفظه؛ للاقتداء به في العمل، والعناية بتحيته والاهتمام.

ونخلــص فــي هذا السياق إلى القول إن هاتين الحركتين الإعرابيتين قد أدتا إلى انفــتاح دلالي تتعدد فيه المعاني ويتسع فيه التأويل، يقول شيخنا الدكتور سمير استيتية[2]: "وهكذا تكون الحركتان الإعرابيتان في هذه الآية الكريمة قد أشارتا إلى هذه المعاني كلها، وربمــا غيــرها ممــا لــم نقف عليه، وهذا لا يعني أن إبراهيم قد رفع، وأن الملائكة قد نصــبت، بــل يعني حواراً فيه كل المعاني التي ذكرتها، ولخصتها الآية الكريمة بحركة نصب، وحركة رفع، أليست هذه هي قمة البلاغة، وأسمى دراجاتها، وأرقى منازلها؟"

ومــن ذلــك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) انظــر فــي ذلــك: المحــرر الوجيز، ٦٤/٢، ٢٢٩، ٢٢٩-٢٣٠، والبحر المحيط، ١٣/٢-١٤، والدر المصون، ٤٥٢/١، والتوجيه البلاغي للقراءات، ٩٦.

(٢) منازل الرؤية منهج تكاملي في قراءة النص، ٣٢٥-٣٢٦.

ففي قوله تعالى: "وكلمةُ الله هي العليا برفع (كلمةُ) على الابتداء عدول إلى الجملة الاســمية عــن نمــط الجملــة الفعلية السابقة عليها في السياق (وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى).

وندرك سر هذا العدول القرآني من كون الجملة الاسمية دالة على ثبوت الوصف واستقراره، فعلو كلمة الله -عزوجل- ثابت مستمر في كل زمان ومكان. وهذا الذي نفهمه مــن عــدم عطــف لفظة (وكلمة الله) على ما قبلها فتكون جملة فعلية، وإنما العطف هنا عطف جملة على جملة لا عطف مفرد على مفرد؛ للنكتة البلاغية المذكورة.

ولو عطف (كلمة الله) على (كلمة الذين كفروا) لدل السياق على أن علو كلمة الله مجعــول حــادث، أي: أنَّ علــوها حادث متجدد، وذلك يفهم من دلالة الفعل على التجدد والحدوث، وأنه قد مر على كلمة الله أوقات لم تكن عليا.

يقــول ابن عاشور[١]: "وجملة "وكلمة الله هي العليا" مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام؛ لأنــه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنها صارت سفلى، أفاد أن العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عليا، لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أن العِلاء ثابت لها ومقصور عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى. ومعنى جعلها كذلك: أنه لما تصادمت الكلمتان وتناقضتا، بطلت كلمة الذين كفروا، واستقر ثبوت كلمة الله".

---

[١] التحرير والتنوير، ١٠/٢٠٥.

ويــرد الســؤال هنا لماذا لم يأتِ التعبير القرآني برفع (كلمةَ الذين كفروا) لتكون جملــة اسمية تدل على ثبوت تسفل كلمة الكفر على الدوام، ويكون بذلك قد قابل بين ثبات تسفلها ودوام علو كلمة الله -عزوجل-؟

وقــد أجــاب عن ذلك أبو الفضل القرشي، فقال[1]: "إن الآية لو جاءت على هذا النحو (أي: من غير جعل)، لأفادت أن كلمة الكفر في نفسها سافلة وليس هذا هو المراد، بل المراد أن تسفلها قد حصل ببركة النبي ﷺ".

ونلحظ أيضاً في هذا السياق تقابلاً لطيفاً بين الجملتين:

فقــولــه تعالى: (وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى)، تقابل (وكلمةُ اللهِ هي العليا)، وداخل هذه المقابلة توجد الثنائيات التالية:

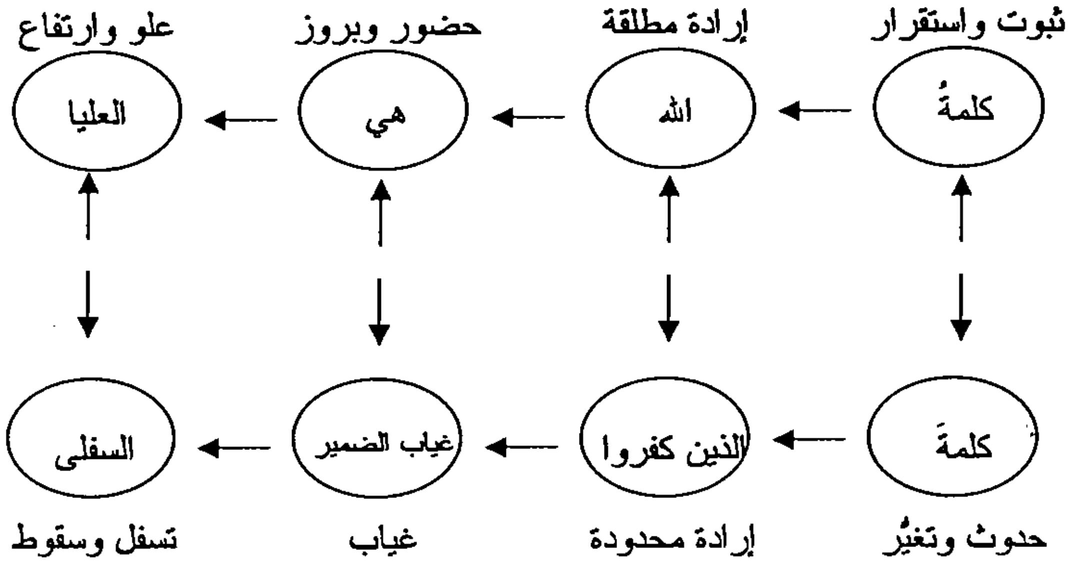

---

[1] حاشية أبي الفضل على هامش البيضاوي، ٩/٣.

وجاء الرسم في كلمتي (السفلى ↔ العليا) في غاية الإعجاز والبيان، إذ [السفلى] الألـــف فـــيها مقصورة، إشارة إلى أن كلمة الكفر مقصورة في مبناها ومعناها، و[العليا] بالألف الممدودة، إشارة إلى امتداد كلمة الله وعلوها وارتفاعها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فقـــد جاءت كلمة (أحياءٌ) مرفوعة، وحقها النصب إذ هي معطوفة بـــ (بل) على (أمواتاً)، لكنها جاءت مرفوعة على تقدير (بل هم أحياءٌ) فـــ (أحياءٌ) خبر لمبتدأ محذوف، ولم يقل: (بل أحياءً)، فعدل عن النصب إلى الرفع وذلك أن الرفع في تقدير جملة اسمية، وهي تفيد الثبوت والاستقرار، فحياة الشهداء عند ربهم ثابتة لا شك فيها، مستقرة لا تبديل لهـــا، ومستمرة لا انقطاع فيها. في حين لو جاء التعبير بالنصب (بل أحياءً) لكان التقدير على إعادة العامل، ويكون التقدير بجملة فعلية، أي: بل احسبهم أحياء[1].

والمقـــام مقـــام يقين، فلا يُؤْمَر فيه بمحسبة، ولا مجال فيه للحسبان والشك، وقد جـــاءت مادة "حسب" في القرآن الكريم في سياق الشك واعتقاد ما هو خلاف الحقيقة نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وقولـــه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] في حين دل العدول إلى الرفع على الثبوت واليقين.

---

[1] انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٤٨٨/١، والكشاف، ٤٣٩/١.

ب- العدول عن النصب على العطف للتشريك إلى الرفع على الاستئناف

كما في قولـــه تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَـا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٠-١٣].

إذ حصـــل عدول عن النصب بالعطف على المضارع المنصوب (يكذبون) الذي أصـــله (يكذبونني)، فيرد السياق (ويضيقَ صدري ولا ينطلقَ لساني ...)، فحصل العدول عن النصب إلى الرفع (ويضيقُ صدري ولا ينطلقُ لساني).

وذلـــك على تقدير أنه معطوف على خبر (إنّ)، أو على الاستئناف، فيكون المعنى إنّـــي خائف، وضيّقُ الصدر، وغيرُ منطلق اللسان، فهذه الصفات موجودة فيه أصلاً قبل الرسالة، وهي أكثر ما تكون حين إرساله إلى قومه، فبيَّن السياق ثقل الأمر على موسى -عليه السلام-.

يقول الزمخشري[1]: "و(يضيقُ) و(ينطلقُ) بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر (إنّ) والنصب لعطفهما على صلة (أنْ)، والفرق بينهما في المعنى، أن الرفع يفيد أنَّ فيه ثلاث علـــل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان. والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة".

---

(١) الكشـــاف، ١٠٦/٣، يقول الفرّاء في معاني القرآن، ٢٧٨/٢: "ويضيقُ صدري مرفوعة؛ لأنها مردودة على (أخـــافُ) ولـــو نُصِبَتْ بالرَدّ على (يكذبون) لكانت نصباً جواباً، والوجه الرفع؛ لأنه أخبر أن صدره يضيق، وذكر العلّة التي كانت بلسانه، فتلك ممّا لا تخافُ؛ لأنها قد كانت".

جـ العدول عن النصب على التعليل إلى الرفع على الإخبار

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُــرَابٍ ثُــمَّ مِــن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

نلحـــظ في هذا السياق مجيء الفعل (نقرُّ) مرفوعاً، والقياس يقتضي نصبه لكونه معطـــوفاً علـــى فعـــل منصوب قبله (لنبينَ) لكن العدول إلى الرفع كان بقصد الإخبار لا التعليل. يقول الزمخشري[١]: "فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر في الأرحام ما يشاء أن يقرَّه من ذلك إلى أجل مسمى ....، والقراءة بالنصب (نقرُّ) تعليل معطوف على تعليل، ومعناه: خلقـــناكم مدرجـــين هذا التدريج لغرضين: أحدهما: أن نبين قدرتنا، والثاني: أن نقر في الأرحام من نقر، حتى يولدوا وينشؤا، ويبلغوا حدَّ التكليف فأكلفهم".

د. العدول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الرفع على سبيل عطف الجمل

من ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فـــي هذا السياق نجد العدول بارزاً في مجيء الفعل (نُرَدُّ) مرفوعاً، وحقه النصب لكـــونه معطوفاً على فعل منصوب (فيشفعوا) وقد عللوا سبب الرفع – تعليلاً نحويا- بأنه عُدِلَ عن عطف المفردات على بعضها إلى عطف الجمل، فهو من قبيل عطف جملة على جملة.

---

[١] الكشاف ٦/٣، وانظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢١٦/٢.

يقول الفرّاء[1]: "وقوله (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ) ليس بمعطوف على (فيشـفعوا)، إنما المعنى –والله أعلم– أو هل نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل، ولو نصبت (نردُّ) على أن تجعل (أو) بمعنى حتى، كأنه قال: فيشفعوا لنا أبداً حتى نُردَّ فنعمل).

وإلى قول الفراء ذهب الزمخشري فقال[2]: "(نردُّ) جملة معطوفة على الجملة التي قـبلها، داخلـة معها في حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء أو هل نردُّ، ورافعه وقـوعه مـوقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد، ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه، فلا يقدر: هل يشفع لنا شافع أو نرد".

ولا نكتفي بالتعليل النحوي في هذا السياق، وإنما نبني عليه التعليل الدلالي المرتبط بالإعراب. فيمكننا القول إن العدول إلى الرفع دل على أنهم "تمنوا الشفعاء والرَّد، وقطعوا بالشـفاعة وعمـل مـا لـم يكونوا يعملونه، ولو نُصبَ (أو نُرَدَّ) لكانوا قد تمنوا الشفعاء وحدهم، ولكنهم قطعوا بأحد الأمرين إما الشفاعة وإما الرَّد"[3].

---

(1) معاني القرآن ١/٣٨٠.

(2) الكشاف ٢/٨٢.

(3) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ١٣٢، وانظر: المحتسب لابن جني ١/٣٦٤.

ويمكننا تمثيل دالّة العدول في هذا الإعراب على النحو الآتي:

التركيب المتوقـــــــع ←	فيشفعوا لنا ↓	أو نُرَدَّ ↓
حالـــــــــة الإعراب ←	منصوب	منصوب ↓
الدلالـــــــــــــــة ←	العطف [تمنوا الشفعاء ليشفعوا لهم من العذاب أو يردُّوهم إلى الدنيا].	السببية [تمنوا الشفعاء ليشفعوا لهم حتى يُرَدّوا].
التركيب الحالي المتحول ←	فيشفعوا لنا ↓	أو نُرَدُّ ↓
حالـــــــــة الإعراب ←	منصوب	مرفوع
موضع العــــــــــدول ←		[عدول عن النصب إلى الرفع] ↓
دلالـــــــــــــــته ←		الاستئناف [تمنوا شيئين: الشفعاء والردّ؛ أما الشفعاء ليشفعوا لهم من العذاب، وأما الرد ليعملوا غير الذي كانوا يعملون].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

فمقتضى السياق أن ترد كلمة (الصابئون) منصوبة، لأنها معطوفة على اسم (إنّ)، لكن السياق عدل إلى الرفع، وذهب سيبويه إلى أن كلمة (الصابئون) مرفوعة على الابتداء، وأن في الكلام تقديماً وتأخيراً، يقول[1]: "وأما قوله -عزوجل- "والصابئون" فعلى التقديم والتأخير، كأنه ابتدأ على قوله: "والصابئون" بعد ما مضى الخبر، وعلى هذا يكون الخبر محذوفاً، وتكون الجملة معطوفة -على نية التأخير- على موضع إنّ واسمها وخبرها، أي: كأنه قيل: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حُكمهم كذا، والصابئون كذلك".

واستدل بقول بشر بن أبي خازم[2]:

وَإِلا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُم بُغَاةٌ مَا بَقِينَا في شِقَاقِ

"أي: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك".

ويؤيد الزمخشري هذا الرأي لسيبويه، ويستثمره ويعلله تعليلاً طريفاً مبيِّناً النكتة في التقديم وحقه التأخير بقوله[3]: "فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصَّابئين يتاب عليهم، إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم، وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ظُلّالاً وأشدّهم غيّاً، ما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها: أي خرجوا؛ كما أن الشاعر قدم

---

(١) الكتاب سيبويه ٢/١٥٥-١٥٦، ٦٦١، وانظر: معاني القرآن، الفراء ١/٣١١.

(٢) ديوان الشاعر، ت: صلاح الدين الهواري، ٢١٩، ووردت في الديوان (بغاة ما حيينا).

(٣) الكشاف ١/٦٣٢.

قولــــه وأنتم؛ تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومــــه، حيث عاجل بــــه قــبل الخبر الذي هو بغاة، لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم مع كونهم أوغل فيه منهم وأثبت قدماً".

ومــا ذهب إليه الزمخشري في تعليل التقديم حسن، لكنه لا يعلل بلاغة الرفع على وجــه الخصــوص، إذ يمكــن الــتقديم مــع النصــب كمــا ورد فــي ســورة الحج[1] قــولـــه تعالــى﴿إِنَّ الَّــذِينَ آمَــنُوا وَالَّــذِينَ هَــادُوا وَالصَّــابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّــذِينَ أَشْــرَكُوا إِنَّ اللَّــهَ يَفْصِــلُ بَيْــنَهُمْ يَــوْمَ الْقِــيَامَةِ إِنَّ اللَّـــهَ عَلَــى كُــلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ولفهــم -كمــا يقــول ابــن المنيــر- مــن تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم مــن الــرفع، مــن أن هــؤلاء الصــابئين وهــم أوغــل الناس في الكفر يتاب عليهم، فمــا الظــن بالنَّصــارى، ولكــان الكلام جملة واحدة بليغاً مختصراً، والعطف إفرادي، فَلِــمَ عــدل إلــى الــرفع وجعل الكلام جملتين، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الإفرادي[2]؟

ويجــيب ابن المنير عن ذلك[3] بأنه لو نصبه وعطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهــذا الصــنف؛ لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات، وهذا الصــنف مــن جملــتها والخبــر عــنها واحــد، وأمــا مــع الرفع فينقطع عن العطف الإفرادي، وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به، ويكون خبر هذا الصنف

---

(١) انظــر: سر تقديم الصابئين على النصارى في آيتي الحج والمائدة، وتقديم النصارى عليهم في آية البقرة كُلاً من: درة التنزيل للخطيب الإسكافي ١١/١، والبرهان في متشابه القرآن، الكرماني، ٣٨/٣٧.

(٢) حاشية الكشاف ٦٣٢/١.

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها.

لمنفـــرد بمعزل، تقديره والصابئون كذلك، فيكون كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها".

فكان العدول عن النسق الإعرابي في هذه الآية على النحو الآتي:

التركيب المفترض	←	إنّ	الذين آمنوا	والذين هادوا	والصّابئين	والنصارى
		↓	↓	↓	↓	↓
حالة الإعراب		أداة نصب	منصوب	منصوب	منصوب	منصوب
التركيب الحالي (المتحول)		إنّ	الذين آمنوا	والذين هادوا	والصّابئون	والنصارى
		↓	↓	↓	↓	↓
حالة الإعراب	←	أداة نصب	نصب	نصب	مرفوع	منصوب
					↓	
موضع العدول	←	(عدول عن النصب إلى الرفع)				
تعليله	←	(مقطوع عن العطف الإفرادي إلى عطف الجمل)				
دلالته	←	[لفت انتباه المتلقي إلى خصوصية (الصابئون)، وأنه يتاب عليهم إذا أمنوا، من باب أولى غيرهم]				

هـ- العدول عن النصب على سبيل عطف المفردات إلى الجزم على سبيل عطف الجمل

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

ففي هذا السياق نجد الفعل المضارع (أصَّدقَ) قد جاء منصوباً، وعطف عليه الفعل المضـــارع المجـــزوم (أكُنْ) وحق هذا الأخير أن يرد منصوباً؛ لأنه معطوف على فعل منصوب، ولكن السياق عدل عن النصب إلى الجزم.

وقد اختلفت آراء المفسرين والنحاة في تأويل ذلك، فذهب سيبويه والخليل إلى أن هـــذا مـــن قبيل العطف على التوهم. يقول سيبويه[١]: "وسألت الخليل عن قوله عزوجل: "فأصدَّقَ وأكُنْ من الصَّالحين" فقال: هذا كقول زهير[٢]:

بَدَا ليَ أنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مضَى وَلاَ سَابِقٍ شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِيا

فإنمـــا جـــرُّوا هذا لأن الأوَّل قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني وكأنهم قد أثبتوا في الأول الـــباء، فكذلك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً لا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله فعلى هذا توهموا هذا".

وذهـــب بعضـــهم إلى أنه من قبيل العطف على المحل، يقول ابن هشام[٣]: "وقال السيرافي والفارسي: هو عطف على محل فأصدق".

وقـــال الزمخشري مثل السيرافي والفارسي وزاد فقال[٤]: "وقريء (وأكُنْ) عطفاً على محل (فأصَّدَّقَ) كأنه قيل: إن أخرتني أصدَّق وأكن".

وســـائر النحاة ممن عنوا بهذا الموضع داروا في فلك هذه التعليلات، وخلاصة ما ذكر أن مرد الجزم في (أكن) أنه معطوف على التوهم أو على المحل[٥].

---

(١) الكتاب ٣/١٠٠-١٠١.

(٢) الديوان، ١٣٨، ت: محمد حمود، ورواية الديوان (ولا سابقاً).

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٦٢٠.

(٤) الكشاف ٤/١١٢.

(٥) انظر: كلام أبي حيان في التفريق بين عطف التوهم والعطف على المحل البحر المحيط ٨/٢١٧، ٢٧٥.

والمراد بالتوهم عند سيبويه والخليل في هذا الموضع ومن أخذ بقولهما، أن الفعل (أصـــدق) في هذا الموضع لو لم تذكر الفاء لكان مجزوماً[1] فجاء جزم (اكن) على توهم جـــزم الفعل أصدق. يقول الفرّاء[2]: كيف جزم (وأكن) وهي مردودة على فعل منصوب؟ فالجـــواب فـــي ذلك أن (الفاء) لو لم تكن في فأصَّدَّقَ كانت مجزومة، فلما رُددت (وأكن) رُدَّت على تأويل الفعل لو لم تكن فيه الفاء".

ويـــرى الباحث أن القول بالعطف على التوهم لا ينبغي ذكره في حق القرآن، إذ العطـــف علـــى الـــتوهم يـــوهم بالخطـــأ، وهذا يقع في كلام البشر، أما في كلام المولى -عزوجل- فلا يكون، فلا توهم في الكتاب العزيز.

ويرى شيخنا الدكتور سمير استيتية، أن (الفاء) في هذا السياق عطفت جملة على جملـــة لا فعلاً على فعل، يقول[3]: "والآية -فيما أرى- قسمان: أما أولهما فإنشائي طلبي، وهو: (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق) فالفاء سببيَّة، والفعل منصوب بها مباشرة، أو بـــأن مضمرة (على الخلاف أيضاً)، وهذا القسم قائم بذاته مستقل عما بعده، والقسم الثاني إخـــباري لا طلبي، وهو: (وأكن من الصَّالحين) وفي اعتقادي أن مبدأ الخطأ في فهم هذه الآية، ناجم عن أن القوم تصوّروا أنها تعطف الفعل (أكن) على الفعل (أصدّق)، وهي في نظـــري تعطـــف الجملة الإخبارية على الإنشائية الطلبية: (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصَّـدَّق). وهـــذا يقتضـــي أن تكون الجملة المعطوفة وهي (وأكن من الصالحين) جملة

---

(1) انظر: المقتضب للمبرد ٢/٣٣٩، ٤/٣٧١.

(2) معاني القرآن ٣/١٦٠، وانظر: الحجة في القراءات لابن خالويه ٣٤٦.

(3) منازل الرؤية، منهج تكاملي في قراءة النص ٣٢٨-٣٢٩.

شرطية كاملة، حذف منها أداة الشرط وفعل الشرط، وبقي جوابه"، وتكون البنية الدلالية لهذه الآية كما يلي:

لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّقَ و إن أخرتني أكُنْ من الصّالحين	"لو آخرتني إلى أجل قريب فأصدّقَ ⟵ وأكن من الصالحين"

ولكون الصلاح أهم من الصدقة، لأن الذي ينجي من العذاب كونه من الصالحين، "فعبــر عــن كــونه من الصالحين بأسلوب الشرط (وأكن من الصالحين)؛ لأنه أقوى في الدلالــة علــى التعهد والتوثيق، فأعطى الأهم والأولى أسلوب الشرط الدال على القوة في الأخــذ على النفس والالتزام، وأعطى ما هو دونه في الأهمية والأولوية، أسلوب التعليل ولم يجعلهما بمرتبة واحدة"[١].

ثالثاً: عدولات الجر:

تتعدّد أشكال هذا النوع من العدول على النحو التالي:

أ. العدول عن الجر على العطف إلى الرفع على الاستئناف.

ب. العدول عن الجر على العطف إلى النصب على المفعول به.

جـ. العدول عن الجر بالعطف على القريب إلى النصب بالعطف على البعيد.

وسنتناول هذه الأشكال محللين بعض النماذج على ذلك على النحو الآتي:

---

[١] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل فاضل السامرائي ١٩١.

أ. العدول عن الجر على العطف إلى الرفع على الاستئناف

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ١٧-٢٢].

نلحظ في هذا السياق القرآني مجيء لفظة (وحورٌ) مرفوعة، مع أنها معطوفة على ما قبلها من الألفاظ المجرورة (بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ... وفاكهةٍ ... ولحمٍ).

فكـــان القياس أن ترد مجرورة على ما قبلها بالعطف فتكون "وحورٍ عين"[1]، لكن السياق عدل عن الجر إلى الرفع.

وقد علل سيبويه الرفع فقال[2]: "لما كان المعنى في الحديث على قولهم: لهم فيها، حمله على شيء لا ينقض الأول في المعنى".

"ويفهـــم مـــن كلام سيبويه أن الرفع في الآية محمول على إضمار خبر يدل عليه قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) فلا يحمل على معنى يطوف، وإنما على تقدير خبر، كقولنا (لديهم) أو (عندهم)، وبهذا التقدير يستقيم المعنى[3]".

وما ذهب إليه سيبويه من تقدير خبر محذوف يستقيم مع دلالة السياق، فإنه يطاف بالأكواب والأباريق والفاكهة، ولكنه لا يطاف بالحور العين، فكان التقدير بالرفع (وعندهم حـــور عـــين) أو (لهـــم حور عين) وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى في موضع آخر:

---

(1) قرأ من السبعة بالجر و "حورٍ عين"، حمزة والكسائي، وقرأ الباقون، بالرفع انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٨٣/٢" ونحن معنيون هنا بقراءة حفص عن عاصم وقد قرأ بالرفع.

(2) الكتاب ٢٢٨/١، وانظر: معاني القرآن، للفراء، ١٢٣/٣-١٢٤.

(3) الحمـــل علـــى المعنـــى وأثره الدلالي في القرآن، حسن عثمان ص ٧٤، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، مخطوطة ٢٠٠٣.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٨].

وكـــأن السياق القرآني يوحي بالمفارقة في النعيم والتدرج فيه، فكل ما سبق ذكره مـــن النعيم من ذكر الأكواب والأباريق والفاكهة واللحم كل ذلك يمثل نوعاً من النعيم؛ لذا شـــرك بينه في العطف، وجعل النعيم بالحور العين نعيماً قائماً بذاته، مستقلاً عن العطف على سابقه، فكان الاستئناف.

ب. العدول على الجر على العطف إلى النصب على المفعول به

من ذلك قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ [الحج: ٢٣]. نجد فـــي هـــذا السياق أن لفظة (لؤلؤا) قد جاءت منصوبة وحقها الجر[١] لكونها معطوفة على لفظة (أساورَ) المجرورة، وأما الفتحة التي في (أساور) فهي نيابة عن الكسرة؛ لأنها جمع تكسير على زنة (أفاعل) الممنوع من الصرف.

وقد ذهب بعضهم إلى أن (لؤلؤا) منصوبة بالعطف على محل (من أساور) فهو من قبـــيل العطـــف على المحل، وهذا كقولهم: (مررتُ بزيدٍ وعمرا)[٢]. ويرى آخرون أنها منصوبة بفعل محذوف تقديره: "ويعطون لؤلؤا"[٣].

"وهـــذا الـــرأي أوفق لسياق الآية الكريمة، وبه يحصل التحول في التركيب، كي يكـــون العطاء من الله -سبحانه- لأهل الجنة وافرا، فاللؤلؤ حلية بمفرده من غير الذهب، لأنه للزينة أصلا[٤]".

---

[١] قرأ بالنصب (ولؤلؤا) نافع وعاصم، وقرأ بقية السبعة بالجر. انظر: الكشف عن الوجوه القراءات السبع، ٢/ ١١٧-١١٨.

[٢] انظر: البيان في غريب إعراب القرآن ٢/١٧٢.

[٣] انظر: الكشاف ٣/١٠، والتبيان في إعراب القرآن ٢/٩٣٨، والبيان في غريب إعراب القرآن، ٢/١٧٢.

[٤] التحول في التركيب وعلاقته بالإعراب في القراءات السبع عبد العباس أحمد ١٨٤.

فيكون السياق قد أخبر عن تحليتهم بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ، على قراءة الجـــر (مـــن أساور من ذهب ولؤلؤ)، وأخبر أنهم يعطون أيضاً اللؤلؤ نفسه لكمال الزينة والعطاء، (والله أعلم).

جـــ. العدول عن الجر بالعطف على القريب إلى النصب بالعطف على البعيد

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [المائدة: ٦].

ظاهر الأمر يقتضي جر (وأرجلكم) لمجيئها بعد اسم مجرور و (رؤوسِكم) والواو عاطفـــة، وهو ما وردت به القراءة الأخرى[١]، فدل النصب (وأرجلكم) على أنها معطوفة على ما قبلها لا على الرؤوس، وهو قوله (وجوهَكم وأيديَكم).

فـــيفهم مـــن ذلـــك أن العدول عن الجر إلى النصب في هذه القراءة بيَّن أن حكم الأرجـــل هـــو الغســـل، ولـــو جاء العطف بالجر فقط لكان المراد أن فرض الأرجل في الوضـــوء هـــو المســـح فقط، عطفاً على الرؤوس في الحكم إذ حكمها المسح (وامسحوا برؤوســـكم)، وأمـــا قـــراءة الجر (وأرجلِكم) فقد وقف عندها علماء التفسير واللغة وقوفاً مطوّلاً، وذهبوا في تخريجها كل مذهب[٢].

وأحسن ما وقفت عليه من تخريجات هي:

أولاً: تخـــريج بلاغـــي ذهب إليه الزمخشري في كشافه فقال[٣]: "وقرأ جماعة وأرجُلكم بالنصب فدلَّ على أن الأرجل مغسولة، فإن قلت: فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في

---

(١) قرأها بالنصب نافع وابن عامر وحفص والكسائي، وقرأها بالجر ابن كثير وحمزة وأبو عمرو. وانظر: النشر ٢/٢٥٤.

(٢) للاستزادة في معرفة مذاهب العلماء وتخريجاتهم المختلفة لهذه القراءة، انظر: تفسير الطبري ٦/٨٣، وتفسير القرطبي، ٦/٩٣، وحروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف الفقه محمود سعد ٢٣٨-٢٤٠.

(٣) الكشاف ١/٥٩٧.

حكـــم المســـح؟ قلـــت: الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء علـــيها، فكانت مظنّة للإسراف المذموم المنهي عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجب الاقتصاد في صبّ الماء عليها".

ثانياً: ذهب بعضهم إلى أن كل قراءة أفادت حكماً مستقلاً، وأن هذا يشير إلى أن للرجلين حالتـــين، فـــإذا كانـــتا مكشوفتين ففرضهما الغسل، وإذا كانتا مستورتين جاز المسح عليهما، ويكون هذا دليلاً من القرآن على جواز المسح على الخفين إضافة إلى ما ورد مـــن أدلـــة السنة على جواز ذلك. يقول ابن عربي (ت ٥٤٣هـ)[1]: "وجاءت السنة قاضـــية بـــأن النصب يوجب العطف على الوجه واليدين، ودخل بينهما مسح الرأس، وإن لـــم تكـــن وظيفـــته كوظيفتهما؛ لأنه مفعول قبل الرجلين لا بعدهما، فذكر لبيان الترتيب لا ليشتركا في صفة التطهير، وجاء الخفض ليبين أن الرجلين يمسحان على الاختـــيار على حائل، وهما الخفان بخلاف سائر الأعضاء، فعطف بالنصب مغسولاً على مغسول، وعطف بالخفض ممسوحاً على ممسوح، وصح المعنى فيه".

ثالـــثاً: العمـــل بالقـــراءتين معاً، والجمع بين حكميهما، وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري (ت ٣١٠هـــــ) بقـــولـــه[2]: "والصـــواب من القول في ذلك أن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقاً اسم ماسح غاسل؛ لأن غسلهما إمرار الماء عليهما أو إصـــابتهما بالماء، ومسحهما إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما، فإذا فعل ذلك بهما فاعل، فهو غاسل ماسح".

---

(١) أحكام القرآن، ٥٧٨/٢.

(٢) تفسير الطبري، ٨٣/٦.

رابعاً: عدولات الجزم:

وهذا النوع من العدول يكون في الأفعال ويرد على نوعين هما:

أ. العدول عن جزم جواب الشرط إلى رفعه على الإخبار.

ب. العدول عن الجزم على العطف إلى الرفع على الإخبار.

ويمكننا تناول ذلك على النحو التالي:

أ. العدول عن جزم جواب الشرط إلى رفعه على الإخبار

مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ [طه: ١١٢].

وقولـــه تعالى: ﴿وأنَّا لمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمنَّا به فمن يُؤْمنْ بربِّه فَلَا يَخَافُ بخَساً وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

فقـــد عـــدل عن جزم فعل جواب الشرط إلى رفعه فقال (فلا يخافُ) ولم يقل (لا يخف)، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]. إذ جاء جواب الشرط مجزوماً في قوله (لا يَلِتكْم).

وســـر هـــذا العـــدول عن جزم جواب الشرط إلى رفعة بعد (فاء) الجواب، وذلك لتصبح الجملة اسمية فتكون أدلَّ على ثبوت الوصف واستقراره.

يقول الزمخشري[1]: "فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له، ووجوب إدخال (الفاء) وكان ذلك كله مستغنىً عنه بأنه يقال: لا يَخَفْ؟

قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: (فهو لا يخافُ)، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة، وأنه هو المختص بذلك دون غيره".

---

[1] الكشاف ١٦٩/٤.

العدول عن الجزم على العطف إلى الرفع على الإخبار

مــن ذلــك قولــه تعالى: ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِــكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

نجــد الفعــل المضارع (يغفرُ) قد جاء مرفوعاً، وفي ذلك عدول عن الجزم عطفاً علــى جــواب الشرط (يحاسبكم) إلى الرفع استئنافاً، والتقدير (فهو يغفرُ لمن يشاء)، ولَو جــرى الســياق على نسق واحد من الإعراب لكان (فيغفرْ لمن يشاء، ويعذبْ من يشاء) بالجزم[1].

وقــد علــل شــيخنا الدكــتور سمير استيتية دلالة هذا العدول إلى الرفع فقال[2]: "فالقــراءة علــى الاستئناف المرفوع (فيغفرُ) تشير إلى إسناد المغفرة إليه، دون غيره – تعالى– بعد تمام الحساب، ولذلك كان التقدير: فهو –لا غير– يغفر لمن يشاء، ويعذب ما يشــاء"؛ أي: دل العــدول إلــى الــرفع على الاختصاص، فالله –عزوجل– هو المختص بالمغفرة وحده.

ويعلــل شيخنا أيضاً قراءة الجزم، وهذه القراءة تمثل إطراداً في النسق الإعرابي، وتضــفي دلالة أخرى، فيقول[3]: "والقراءة بالجزم عطفاً على المجزوم (يحاسبكم) تهدف إلــى إبراز ما تشير إليه (الفاء) من مباشرة وتعقيب من غير تراخ، وذلك من أجل إدخال

---

(1) قــرأها بالــرفع ابــن عامــر وعاصم، وقرأ الباقون بالجزم فيها، انظر: إملاء ما من به الرحمن. العكبري ١٢١/١، والبحر المحيط ٣٦٠/٢.

(2) منازل الرؤية، منهج تكاملي في قراءة النص ٣٢٦.

(3) المصدر السابق ٣٢٧.

الطمأنينة في نفوس المؤمنين، فكأن الآية تخبرهم بأن الله سيغفر لمن يشاء عقب الحساب مباشرة، دون أن يطول الزمن بين الحساب والمغفرة".

ومـــنه قـــولـــه تعالـــى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

فقد عدل عن جزم الفعل (ينصرون) عطفاً على جواب الشرط (يولوكم) إلى رفعه علـــى تقديـــر: ثـــم (هم لا ينصرون). فأفاد ذلك دلالة الإطلاق، وهي أن عدو المسلمين مخـــذول دائماً، وغير منصور مطلقاً. ولو جاء الفعل مجزوماً على العطف، لدخلت جملة (لا ينصـــرون) فـــي حيز الشرط، ولأصبح المعنى حينئذ، أن عدوهم غير منصور حالة مقاتلته المسلمين وتوليته الأدبار فقط.

وآثـــرت الصياغة في التركيب مجيء حرف العطف (ثم)[١] للدلالة على التراخي فـــي الرتبة لا في الوجود؛ "لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار[٢]".

فصاحب العدولَ- هنا في التركيب عن الشرط إلى الإخبار عدولُ في المعنى عن التقييد إلى الإطلاق.

---

(١) انظر: الكشاف ١/٤٥٥.

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها، وانظر: حاشية الكشاف لابن المنير ١/٤٥٥.

ويمكن تمثيل هذا العدول على النحو الآتي:

التركيب المتوقع ←	إنْ	يقاتلوكم	يولوكم	ثم	لا ينصروا
	↓	↓	↓	↓	↓
حالة الإعراب ←	أداة جزم	مجزوم	مجزوم	عطف	مجزوم
				↓	↓
الدلالة ←				التراخي الزمني	(دلالة التقييد) (تقييد نفي النصر بالتولية)
التركيب الحالي ←	إن	يقاتلوكم	يولوكم	ثم	لا ينصرون
	↓	↓	↓	↓	↓
حالة الإعراب ←	أداة جزم	مجزوم	مجزوم	عطف	مرفوع
					↓
موضع العدول ←				↓	عدول عن الجزم إلى الرفع
					↓
الدلالة ←				عطف للتراخي الرتبي	دلالة الإطلاق (نفي النصر عنهم مطلقاً)

الخاتمة و أهم النتائج:-

في ختام هذه الدراسة التي كان موضوعها العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم، توصل الباحث إلى نتائج عدة هي على النحو الآتي:

١- أثبتت الدراسة أن موضوع العدول السياقي الذي شاع في الدراسات الأسلوبية الحديثة، له جذور في التراث البلاغي العربي، فقد تناوله العلماء المتقدمون بالتحليل والتعليل.

٢- العدول النحوي السياقي هو من أبرز الظواهر الأسلوبية في التعبير القرآني، وأكثرها وروداً، ويمثل مظهراً من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

٣- السياق له دور بارز ومهم في تحديد الدلالة المناسبة للعدول.

٤- أثبتت الدراسة من خلال تحليل سياقات العدول المتعددة في النص القرآني، أن كل عدول في المبنى يصاحبه عدول في المعنى قطعاً.

٥- تتسع العدولات صورةً ودلالةً في النص القرآني باتساع البنية الواردة فيها، فكلما اتسعت البنية اتسع العدول؛ لذلك فالعدول النحوي هو أكثر اتساعاً في صوره ودلالاته من العدول الصوتي والصرفي والمعجمي؛ لاتساع بنيته التركيبية أكثر من غيره.

٦- تكتسب الأفعال في السياق القرآني دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه، لا من بنيتها الصرفية فحسب.

٧- أثبتت الدراسة من خلال تحليل مواطن العدول في حروف المعاني أن كل حرف يختص بدلالة لا يشاركه فيها غيره، والسياق هو الذي يحدد الدلالة المرادة؛ وبناء على ذلك لا تناوب في حروف المعاني.

٨-الإعراب يرتبط بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، فالحركات الإعرابية هي دوالٌ على معانٍ مقصودة، وأن العدولات من الرفع إلى النصب أو الجر وغيرها من عدولات الإعراب ترتبط بالمعنى دون شك.

٩-ينبغي الربط بين البنية العميقة للتركيب والبنية السطحية؛ ليظهر من خلال ذلك جماليات التركيب، ووظيفته البلاغية.

١٠- ظاهرة العدول والخروج عن مقتضى الظاهر هي وجه من وجوه شجاعة العربية وروعتها.

١١- من الصعب حصر دلالات العدول السياقي في النص القرآني؛ لاتساع النص القرآني من جهة، وانفتاحه الدلالي من جهة أخرى، واختلاف فهوم المتلقين له.

١٢- العدول النحوي السياقي هو روح نظرية النظم التي نادى بها الجرجاني، وهو دراسة تطبيقية مباشرة للنظم.

١٣- أبرز العدول في السياق القرآني دلالات نفسية، وتربوية،و فكرية، كما هو الحال في السياقات القرآنية التي تصف حال المؤمنين و المنافقين و الكفار، وكذلك الآيات التي خاطب المولى عز وجل فيها هذه الأصناف الثلاثة، فجاء العدول فيها يمثل أثراً نفسياً و يقوم التصور و الفكر، و كذلك الآيات التي وصفت مشاهد الخلق في الكون و الحياة.

١٤- كشف العدول في السياق القرآني أيضاً عن حقائق علمية،تظهر وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن و هو الإعجاز العلمي،كما هو الحال في الآيات التي تحدثت عن عالم الفلك وعالم الطب وغيرها من عوالم الكون،كما هو موضحُ في مواضعه من هذه الدراسة.

١٥- أبرز العدول السياقي في القرآن أيضاً الجوانب الغيبية في صورة المشاهد المحسوسة المرئية،قطعاً بحدوثها و حصولها ،كما الحال في السياقات القرآنية التي تحدثت عن عوالم الجنة و النار.ومشاهد البعث و الحساب وغيرها من العوالم الغيبية،كما هو مذكور في مواضعه من الدراسة.

١٦- وُظِّف العدول في التعبير القرآني ليوافق ببنيته المتحولة الوقائع المحسوسة في مشاهد الحياة،فبرز من خلال ذلك موافقة المقال لمقتضى الحال ،و تلك هي البلاغة.

١٧- ولد العدول في السياقات القرآنية دلالات شرعية،و أحكاماً فقهية،مرجع الفهم فيها إلى اللغة والبيان، وقد برز ذلك في آيات الأحكام،كما هو مذكور في مواطنه من هذه الدراسة.

١٨- يوصي الباحث بالاهتمام بالدراسات اللغوية التي توظف اللغة توظيفاً دلالياً و اجتماعياً،و ذلك من خلال التعامل مع النصوص عن قرب بالتحليل و التعليل،لا سيما النص القرآني المعجز في نظمه و معناه، والذي كل مفردةٍ فيه بل كل حرفٍ أو حركةٍ إعرابية تحمل رسالةً تتجاوز حدود الكلمة و الجملة إلى عالم النفس و الحياة.

١٩- يشير الباحث أن هناك مواضيع لغوية بلاغية بحاجة إلى دراسات مستقلة، تسهم في إبراز جوانب مضيئة من إعجاز النص القرآني، وعبقرية لغته، لغة التنزيل، من تلك الموضوعات، موضوع العدول الصوتي، والعدول المعجمي في السياقات القرآنية، وكذلك العدول البلاغي الفني في الصور و التشبيهات و غيرها من موضوعات البلاغة المختلفة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.
- أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد عبدالله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- أساليب النفي في القرآن، د. أحمد ماهر البقري، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٤م.
- أسرار البلاغة، أبو بكر، عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، (ت ٤٧٤هـ)، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- أسرار الكون في القرآن، داود سليمان السعدي، دار الحرف العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، (د.ن)، ١٩٩٠.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين، خلف جامع الأزهر، ١٩٩٣م.
- الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبدالحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ت (٤٠٣هـ)، ت: أحمد صقر، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: إبراهيم العزباوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتاب العربي، ومؤسسة جمال، بيروت، (د.ت).
- أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة، د.فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧م.
- إملاء ما منَّ به الرحمن، أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، ت: إبراهيم عطوه عوض، مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٩م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، ت: الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٣م.
- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، ت: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، ت: محمد عبدالمنعم الخفاجي، ط٣، المكتبة الأزهرية، ١٩٩٣م.
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، (ت ٥٢١هـ)، ت: مصطفى السقا، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (ت ٧٥٤هـ)، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- بدائع الفوائد، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، (ت ٧٥١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.

- البرهان في إعراب القرآن، أحمد ميقري، ت: د. حسن الأهدل، المكتبة العصرية، ٢٠٠١م.
- البرهان في توجيه متشابه القرآن، تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت ٥٠٥هـ)، ت: عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٧٢م.
- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، عمان، الأردن، ٢٠٠٣م.
- البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار البشير، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط١، ١٩٩٩م.
- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، د. فضل حسن عباس، عمان، دار الفرقان، ط٧، ٢٠٠٠م.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبدالمطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، (ت ٣٨٨هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٨م.